الكتب

وجهات نظر

فى الثقافة والسياسة والفكر

مجلة شهرية . العدد الثانى والثمانون . السنة السابعة . نوفمبر ٢٠٠٥ . الثمن عشرة جنيهات

Weghat Nazar - Volume 7 - Issue 82 - November 2005

المرأة.. أيقونة الحب والحرب

كابوس الوباء الطائر

نوبل نوبل.. هل نحن حقا "نوبليون"؟!

في بلاد التتار

عراق واحد.. أم أعراق؟!

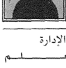
حلمي التوني 2005

الفساد الأصغر والفساد الأكبر

السنة السابعة
العدد الثانى والثمانون
نوفمبر ٢٠٠٥

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى





الكتب وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة
رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى
مدير التحرير
أيمن الصياد

محتويات العدد:

كتاب العدد:

- إبراهيم العريس.. ناقد سينمائى من لبنان.
- أحمد أبو حسين.. كاتب فلسطينى ومدير موقع عرب ٤٨ على الإنترنت.
- ألبرشت هوفهاينز.. أستاذ مساعد فى جامعة أوسلو ـ متخصص فى الدراسات الثقافية.
- أمير حمد .. كاتب وشاعر سودانى مقيم فى برلين.
- أميمة أبو بكر.. أستاذة الأدب الإنجليزى المقارن بجامعة القاهرة.
- آن بنيكيث.. المحررة الدبلوماسية لصحيفة الإندبندنت البريطانية.
- أيمن الصياد .. صحفى.
- براين هاندورك.. صحفى أمريكى.
- بشير نافع.. أستاذ مساعد بجامعة لندن ـ فلسطينى.
- جمال محمد غيطاس.. رئيس تحرير مجلة لغة العصر ـ مصر.
- جون جراى.. أستاذ الفكر الأوروبى بكلية لندن للاقتصاد.
- سلامة أحمد سلامة.. صحفى.
- صالح محمد النعامى.. كاتب فلسطينى.
- فهمى هويدى .. صحفى.
- محمد إبراهيم شاكر.. نائب رئيس المجلس المصرى للشئون الخارجية.

رسوم العدد للفنانين
سعد الدين شحاته ـ أحمد اللباد
Ares - David Levine





المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
ت : ٣٩٣٠٤٩٠/ ٣٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٣٠٤٩٦ ـ فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد : داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى ـ اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا ـ أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا ـ أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا ـ باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ص. ب : ٣٣ البانوراما ـ مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية ـ السعودية ١٥ ريالاً ـ الكويت ١.٥ دينار ـ الإمارات ١٥ درهما ـ مملكة البحرين ١.٥ دينار ـ قطر ١٥ ريالا ـ سلطنة عُمان ١.٥ ريال ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ونصف ـ ليبيا ديناران ـ الجزائر ٣٠٠ دينار ـ المغرب ٣٠ درهمًا ـ تونس ٤ دنانير ـ اليمن ٢٠٠ ريال ـ فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

ســـــلامـة أحـمـــــد ســـــلامـة

من الفساد الأصغر إلى الفساد الأكبر

■ برزت قضية الفساد والدعوة إلى مكافحته فى السنوات الأخيرة، كواحد من أهم المعايير التى يقاس بها الحكم الصالح فى البلدان العربية. وهى قضية قد تغيب فى خضم الجدل الساخن الذى يجتاح المنطقة حول الحاجة الملحة إلى إنجاز إصلاح سياسى سريع على طريق الديمقراطية والحرية فى سياق جهد مكثف لتحقيق التنمية الإنسانية بمعناها الواسع. ولكن المحقق أن انتشار الفساد يعد أخطر معول هدم فى مجال التنمية، وبالأخص حين يتلازم مع مناخ القمع وغياب الديمقراطية والتضييق على الحريات المدنية.

وفى مجتمعاتنا مقولة لا تنفك تتكرر كلما زكمتنا رائحة الفساد وتفجرت على الملأ فضائحه، وهى أن الفساد ليس قصرًا علينا بل هو آفة عالمية تنتشر فى البلاد الغنية والفقيرة، الديمقراطية والديكتاتورية. وهذه حقيقة لا ينكرها أحد، إذ شهد العقد الأخير بروز الفساد كقضية سياسية عالمية. اجتاحت الساحة. فسقطت حكومات، وأطيح بأحزاب من الحكم. وانتحرت شخصيات سياسية مرموقة. ولكنها كظاهرة ووجهت أيضًا بما يشبه الثورة على مستوى العالم، وعكفت منظمات دولية عديدة على تقديم المبادرات لإحكام الرقابة الدولية الكفيلة بمكافحتها. باعتبارها من أقدم المهن التى يمارسها السياسيون ورجال الأعمال وسدنة البيروقراطية لبعض الوقت، إن لم يكن طول الوقت.

ولا يتوهمن أحد أن دحر الفساد يمكن أن يتحقق فى مدى زمنى قصير ينتهى بانتهاء مظاهره. فالفساد ظاهرة معقدة متعددة الوجوه والأسباب والطرائق. وكثير من الساسة الذين اتخذوا من مكافحة الفساد منطلقًا للوصول إلى السلطة، لم يلبثوا أن غرقوا فى الفساد إلى أذقانهم، وإن كان هناك أمل بأن الحرب على الفساد يمكن أن يتحقق النصر فيها، بعد أن أخذ التوازن بين الحكومات والشعوب يتحول إلى صالح الشفافية، وأساليب الحكم المنفتحة، وآليات المحاسبة الديمقراطية، وظهور عصر المعلومات وتقدم تكنولوجيا المعرفة.. وكلها من العوامل التى فتحت العيون على حقائق ومعلومات لن يكون بوسع أى حاكم أن يخفيها أو يتلاعب بها. بل أصبحت أساسًا لشرعية النظام واستمراريته والقبول به دوليًا.

ومن المسلم به أن طول بقاء جماعة حاكمة فى مقاعد السلطة يعد من أهم العناصر التى تولد بيئة الفساد. وهناك أمثلة عديدة لموبوتو وماركوس وصدام وسوهارتو وعشرات غيرهم. فالديمقراطية التى تقوم على مبدأ تداول السلطة، لا تضفى حصانة تلقائية ضد الانحراف، بل تولد بيئة مقاومة للفساد بفضل قوى وأحزاب معارضة نشيطة، وسلطتين تشريعية وتنفيذية مستقلتين، ووسائل إعلام حرة تمتلك ضمانات حرية النشر والتعبير، وقضاء مستقل لا تُنتهك قداسته.

أما فى الدول التى تمر بمرحلة انتقالية من الحكم السلطوى إلى الديمقراطية، أو من نظام الحزب الواحد إلى النظام التعددى، ومن الاقتصاد المركزى إلى اقتصاد السوق.. فإنها تكون أكثر عرضة للفساد. وكلما طالت وتأخرت عملية التحول كلما عششت عناكب الفساد وتسترت. إذ يصبح الفساد لا مركزيًا، بتعدد مراكز القرار، وتفكيك القيود المفروضة على أنشطة اقتصادية وتجارية كانت خاضعة بأكملها لبيروقراطية الدولة، مما يفتح الباب أمام التدليس واغتنام الفرص. وتظهر طبقة جديدة من المسئولين الذين أنيطت بهم عمليات خصخصة الأصول العامة من أصحاب الثروات الفاحشة، عن طريق بيع تلك الأصول بأسعار منخفضة لقاء رشاوى سخية، أو تمكين أسرهم وأصدقائهم من حيازتها. وهى عمليات - كما تقول دراسة صادرة عن مجموعة دافوس التابعة للمنتدى الاقتصادى العالمى - تحدث فى المراحل الباكرة من الانتقال إلى اقتصاد السوق. عندما تخصخص الشركات فى غيبة إطار تنظيمى فعال. ويفضى التعايش بين قطاعات تتميز بحرية السوق والأسعار وبين قطاعات أخرى مازال يسود فيها التخطيط المركزى، إلى حدوث تشوهات كبرى وفرص مهتبلة للكسب غير المشروع.

وفى عالم اليوم أصبح النظام الدولى يتكون من شبكات تضم مئات الآلاف من شبكات الكمبيوتر، وبضربة واحدة على مفاتيحها، تتدفق أرقام لا يدركها العقل لملايين الملايين من الدولارات يوميًا فى معاملات يصعب تتبعها، لتحويل أموال إلى مواقع مترامية الأطراف حول الكرة الأرضية. وحسب دراسة لمجلة «التايم» الأمريكية فإن البحث عن الأموال القذرة الطافية على سطح محيط من المدفوعات والأموال المشروعة، يصبح مثل البحث عن إبرة فى كومة من القش. مما يجعل التخلص من ثمار الفساد والإجرام أمرًا بالغ اليسر من الناحية التقنية، ويجعل التمييز بين الأموال المشروعة وغير المشروعة أمرًا بالغ الصعوبة.

أين تقع البلدان العربية إذن على خريطة الفساد؟

فى مسح أجرته منظمة الشفافية العالمية (٢٠٠٣) تجاوز التقدير بانتشار الفساد بين عينة إحصائية فى خمس دول عربية نسبة الـ ٩٠٪. وكان الاستنتاج المنطقى أنه لا ينتظر أن تقل النسبة عن ذلك فى البلدان العربية الأخرى التى لم يجر فيها المسح، وذلك طبقًا لتقرير عام ٢٠٠٤ عن التنمية الإنسانية العربية.

والفساد كما هو متعارف عليه، هو استغلال المنصب العام من أجل منفعة خاصة. وإن كان هناك نوع آخر من الفساد الذى يفرزه الخلل الكامن فى بنية النظام.. وذلك على سبيل المثال حين يجعل القانون والعرف فى بعض الدول من الأرض والثروات الطبيعية ملكًا للحاكم أو الأسرة، وهو الشأن فى دول النفط، دون تمييز بين الصفة الخاصة والعامة للحاكم. أو فى حالات أخرى حين تنشئ الدولة مؤسسات اقتصادية تابعة لبعض أجهزتها العسكرية أو الأمنية بغرض تمويل نشاطها. وهنا تختلط الأمور، حيث يصعب وضع حد فاصل بين ممارسة المسئول لحدود وظيفته الرسمية، وبين تصرفات تدخل فى باب الفساد الشخصى. فضلاً عن أنواع أخرى من التحايل على القوانين التى تحظر فى معظم البلدان العربية على كبار المسئولين الجمع بين المنصب العام والعمل الخاص. وتغمض الدولة عينيها، فيتجاوز المسئول هذه الحدود، بإنشاء شركات باسم زوجته أو أفراد أسرته. وهو وضع ملتبس ييسر للشركة الاستفادة من موقع المسئول ونفوذه وعلاقاته!!

وهكذا يتضح أن أشكال الفساد أوسع كثيرًا فى البلدان العربية مما نتصور، ولا يمكن فصلها عن التركيبة السياسية. وتبدو وجوه الفساد حينئذ واضحة للعيان، وخاصة فى قطاع الأعمال. ويشير تقرير التنمية الإنسانية العربية إلى ظاهرة احتكار أهل الحكم للأنشطة الاقتصادية المهمة، إما مباشرة أو باعتبارهم «شركاء» لرجال الأعمال الناجحين. كما يتلقى المسئول وبطانته عمولات طائلة عن العقود التى تبرمها الشركات الأجنبية والمحلية مع الدولة.. بما فى ذلك صفقات التسليح، والأدوية

والمبيدات واللحوم والأغذية والقمح، وطائفة كبيرة من السلع والاحتياجات العادية والاستراتيجية التى لا مجال هنا لحصرها. وفى مصر على وجه التحديد لا تكاد سلعة من هذه السلع تغيب عن قائمة فضائح الفساد الكبرى التى لا ينشر غير النزر اليسير منها فى وسائل الإعلام بين يوم وآخر.

تطلق الدراسة على هذا الضرب من الفساد الأكبر «الفساد البنيوى»، لأن الاستغلال الشخصى للمنصب والتصرف فى المال العام، يعتبر هنا أمراً طبيعياً فى العرف السائد ويجرى تبريره بأنه من ضرورات الحيلولة دون انهيار النظام، والمحافظة على الأمن العام.. وذلك بخلاف أنواع أخرى من الفساد الذى يتورط فيه مرتكبه خفية وبعيداً عن الأعين حتى لا يقع تحت طائلة القانون.



يبقى بعد ذلك ما يسمى «بالفساد الأصغر»، وهو الفساد الذى يضطر فيه المواطن للجوء إلى الرشوة أو الوساطة والمحسوبية، للحصول على خدمات أو حقوق هى فى أغلب الأحوال حقوق مشروعة، أو لتفادى التعرض للغرامة أو لعقاب من جهة الإدارة. وهذا الفساد الصغير أو الأصغر هو الأوسع انتشاراً فى البلاد العربية. ولا يكاد يوجد مواطن عربى لم يلجأ إليه، إن لم يكن لمنفعة خاصة فلواحد من أفراد أسرته أو أصدقائه.

وفى كل الأحوال لم يترك الفساد فئة أو طائفة من فئات المجتمع لم يصل إليها فى مجال العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. ويحتل السياسيون ورجال الأعمال وكبار الموظفين رأس القائمة بين أكبر المساهمين فى انتشار الفساد فى البلدان التى تناولها المسح المشار إليه. وإن كانت الشكوى قد أجمعت على فساد صغار الموظفين، نتيجة سوء الإدارة وتغلغل ثقافة الفساد فى المجتمع.

بل إن القضاء لم ينج من شكاوى الفساد.. وفى الأغلب الأعم نتيجة تدخل الدولة للتأثير على أحكام القضاء، وبالدرجة الأولى فى القضايا التى تتصل بضرورات بقاء النظام وتأييده، حيث يخضع القضاء إدارياً فى معظم الدول العربية للسلطة التنفيذية فى التعيينات والترقيات والمميزات الأخرى. ويلجأ النظام السلطوى فى أحيان كثيرة - من أجل البقاء - إلى إنشاء نظم قضائية موازية تطبق فيها إجراءات وقوانين استثنائية تفتقر إلى معايير العدالة. وهو أسلوب ينتشر فى معظم الدول العربية ويكون سبباً فى تقنين شرعية الفساد وتحصينه.

بيد أن أخطر أنواع الفساد على الإطلاق هو الذى تسرب إلى الجامعات ومراكز البحوث والمؤسسات التعليمية. وفى مصر فقدت الجامعات مكانتها بسبب انتشار سرقات البحوث العلمية ورسائل الماجستير والدكتوراة، ومعها ظاهرة بيع الامتحانات وبيع المذكرات الجامعية وانتشار الغش الجماعى فى الشهادات العامة. وقد أصبح من المألوف أن نسمع بين يوم وآخر عن مؤلفين سرقوا كتباً ونصوصاً من تأليف مؤلفين آخرين. ولا توجد عقوبات رادعة لمحاربة هذا النوع من الفساد الذى يسرى فى نخاع العقل الجمعى للأمة، أكثر من حرمان الأستاذ الذى سطا على إنتاج زميله من الترقية، أو إبعاده من الجامعة.

وحين يصل الفساد إلى المؤسسة التى تتولى الارتقاء بعقل الأمة وزيادة قدراتها المعرفية وتنشئة أجيالها القادمة، فكل شىء يهون بعد ذلك. ويصبح تسرب الفساد إلى مجالات أخرى أمراً طبيعياً لا يحرك ساكناً ولا يهز جامداً. ولهذا السبب - ربما - لم تتأثر الدولة كثيراً أو قليلاً حين تكشف حجم الفساد الذى عم مؤسسات الصحف القومية فى مصر خلال العقدين الأخيرين، وتحولت هذه المؤسسات إلى مصدر للإثراء غير المشروع بينما كانت الديون والقروض تتراكم عليها بالمليارات. ومع ذلك فمازالت الدولة تحجم عن فتح ملفات الفساد المالى والإدارى فيها.

وثمة صورة أخرى من صور الفساد، هى تلك التى يقوم فيها تحالف بين المال والسياسة.. إذ ينخرط بعض رجال الأعمال فى المؤسسات السياسية والحزبية سعياً لعضوية المجالس النيابية، أو مجالس إدارات البنوك والشركات، للحصول على مميزات أو تسهيلات، والاحتماء بالحصانة النيابية.. وهو ما أدى إلى ظهور ما عرف باسم نواب القروض ونواب المخدرات والمتاجرين فى أراضى الدولة فى مصر. ووراء كل عبارة من هذه العبارات قضايا فساد كبرى قد تمتد سنوات وسنوات أمام المحاكم دون حسم.



من هنا تطرح قضية الفساد بدرجاته الصغرى والكبرى إشكالات سياسية بالغة الأهمية، تدور حول العلاقة بين الدولة والمجتمع من ناحية، وبين الثروة والسلطة من ناحية أخرى.

وفى كل الأحوال، فإن المستفيد من الفساد غالباً ما يكون شخصاً أو مجموعة بعينها من الأشخاص فى المواقع الرفيعة من السلطة والشرائح العليا من المجتمع. بينما يلحق الضرر والخراب معظم الناس معظم الوقت. وبعبارة أخرى فإن الفساد ينزع إلى أن يفيد سياسياً ومادياً واجتماعياً من يملكون على حساب من لا يملكون. وهؤلاء الأخيرون قد لا يحصلون إلا على الفتات من ثمار الفساد، فى صورة تلك الرشاوى الصغيرة للحصول على رخصة سيارة أو الإفلات من غرامة مرور.



تراكم صور الفساد من مستوياته الدنيا إلى مستوياته العليا يفضى فى النهاية إلى فقدان الثقة فى النظام السياسى وإلى ارتفاع تكلفته السياسية بما يهدده بالانهيار. ومن المسلم به فى الدراسات الموثقة أن الفساد يزدهر فى ظل نظام الحزب الواحد أكثر منه فى ظل تعددية حزبية

على أن تراكم صور الفساد من مستوياته الدنيا إلى مستوياته العليا يفضى فى النهاية إلى فقدان الثقة فى النظام السياسى وإلى ارتفاع تكلفته السياسية بما يهدده بالانهيار. ومن المسلم به فى الدراسات الموثقة أن الفساد يزدهر فى ظل نظام الحزب الواحد أكثر منه فى ظل تعددية حزبية بسبب ما يولده من اختلالات جسيمة فى التوازنات بين الدولة والمجتمع من ناحية، وبين السلطة والثروة من ناحية أخرى. ففى الحالة الأولى يزداد نفوذ جماعات المصالح الخاصة ورجال الأعمال والوسطاء سياسياً. وفى الحالة الثانية تنشأ ظروف يتوقف فيها انفتاح مسالك الترقى اقتصادياً وسياسياً على شكل من أشكال المقايضة وتبادل المنافع بين الطرفين.

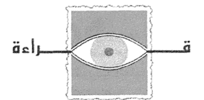
وبالتالى يصبح السؤال مشروعاً: هل يفضى الفساد المتفاقم إلى ديمقراطية أقل؟ وهل يكون العكس صحيحاً: أى هل يؤدى نشر الديمقراطية ودعم الحريات إلى تقليل الفساد؟ والإجابة هنا واضحة ولكنها ليست قاطعة أو صالحة لكل المجتمعات. فمن المؤكد أن نشر الديمقراطية وإطلاق الحريات واحترام سيادة القضاء يؤدى إلى مزيد من التوازن بين الدولة والمجتمع، وبين السلطة والثروة، وبالتالى إلى تقليل فرص الفساد وسد منافذه. ولعل فى هذا ما يفسر الجهود المستميتة للعناصر التى تستفيد من جمود النظام السياسى فترفض مبادرات الإصلاح، لإبقاء كل شىء على ما هو عليه، وعرقلة عمليات الإصلاح السياسى بكل ما تعنيه، من تعزيز الرقابة الشعبية والبرلمانية، ودعم التعددية، وإطلاق الحريات، وتأكيد مبدأ استقلال القضاء، وتحقيق التوازن بين السلطات.. فهذه هى البدايات الصحيحة فى المعركة ضد الفساد!

إضافة أخيرة..

●● فى التقرير السنوى الذى صدر هذا الشهر عن «منظمة الشفافية الدولية»، ومقرها لندن، أكد التقرير الذى شمل ١٥٩ دولة أن أقل الدول العربية فساداً هى سلطنة عمان التى احتلت المرتبة الثامنة والعشرين بالمشاركة مع إسرائيل. تليها الإمارات فى المركز ٣٠، وقطر ٣٢، والبحرين ٣٦، والأردن ٣٧، وتونس ٤٣، والكويت ٤٥، ومصر ٧٠ وتتعادل معها السعودية وسوريا وبوركينا فاسو وكرواتيا وبولندا.

وتصدرت السودان والصومال قائمة الدول العربية الأكثر فساداً حيث اشتركتا فى المركز ١٤٤. واحتلت العراق المركز ١٣٧ وليبيا ١١٧ وفلسطين ١٠٧ واليمن ١٠٣ والجزائر ٩٧ ولبنان ٨٣ والمغرب ٧٨.

ويلفت التقرير النظر إلى أن أكثر من ثلثى الدول التى شملها المسح تعانى من تغلغل الفساد فى القطاع الحكومى. ■



هل نحن «نوبليون» حقا؟

أيمن الصياد

نوبل «مصرية» رابعة..

هكذا كانت مانشتات الصحف قبل أسابيع. وكأي حقيقة.. أو عبارة يراد لها أن تكون كذلك، تستدعي المعاني أسئلةً ضرورية، ومشاهد ذات صلة.

ليس السؤال: هل ذهبت الأوسمة الأربعة إلى من يستحقها أم لا؟ فهم - قطعًا - لبوا معاييرها. واستحقها كلٌ منهم بلا شك، وإن اختلف السياق واختلفت الظروف. ولكن السؤال الذي ألح عليَّ وأنا أشهد الاحتفاليات والتصريحات والمانشتات، هو: هل نستحقها (نحن) كمجتمع؟! هل لبينا معايير الحداثة والتقدم: فكرًا وثقافة وعلمًا وتعليمًا؟ وهل يمكن النظر إلى بلادنا باعتبارها تتمتع ببيئة من شأنها أن تزهر «نوبليين»؟



على طاولة غداء جمعتني قبل أسابيع بصاحب نوبل (في العلوم) الباحث في معهد Caltech الأمريكي، والمصري الأصل والهوى «أحمد زويل»، سألته سؤالاً كنت أعرف مقدمًا إجابته: هل كان من الممكن أن يحصل «هو نفسه» على نوبل، لو كان قد استمر به الحال في مصر «أسير» مناخها الأكاديمي والعلمي الذي نعرف؟

رغم الابتسامة الدبلوماسية، والإجابة المهذبة، كان الرد واضحًا لا لبس فيه. ويومها، وبعد أن طلب إغلاق الهواتف المحمولة، التي أصبحت بحق جزءًا من حالة التشتيت العامة في بلادنا، أراد ضيفنا حوارًا حول «مشكلة مصر». ورغم أنه ركز في تشخيصه - ومعه كل الحق - على «المثقفين» وآفاتهم «المتوطنة»، إلا أنه كان طبيعيًا أن يوافقني عالم الفيزياء (أكثر العلوم الطبيعية انضباطا) على حقيقة أن الـ System هو «ضابط» كل شيء. وشرطٌ لابد منه للنجاح والتقدم.. ولاستحقاق نوبل.

والنظام System هو - تعريفًا - عكس «العشوائية». ويعني في أبسط معانيه بنيانًا متكاملاً يبدأ بـ «نظرية» تقوم على عقائد: نؤمن بقيمها. تنشئ «قوانين»: نعمل بها. ومن ثم «آليات»: تنظم تنفيذ هذه القوانين. كلُ ذلك في «سُبحة» منتظمة، تسلم كل حبة فيها تلقائيًا إلى الحبة التالية.

هل تنتظم الحباتُ في عقد مجتمعنا بهذه الصورة. وبشكل أوضح، هل تؤدي كل المقدمات «عندنا» إلى نتائجها المفترضة؟! أو هل ندرك - عملاً لا قولاً - حتمية العلاقة بين طرفي المعادلة؟

في مجتمع تضيع فيه المسافة بين المقدمة والنتيجة، لا مكان لـ System. وفي مجتمع مثل هذا يصبحُ طبيعيًا أن يحصل «عبد الحميد شتا»: الشاب الشريف المجتهد، على أعلى الدرجات في امتحان الملحقين التجاريين، ثم يستبعده قرارُ التعيين لأن والده يعملُ «فلاحًا»... فينتحر.

لا يهم هنا أن من بين من استبعدوه من تعود أصوله إلى الطبقة الاجتماعية ذاتها. ولا يهم هنا أن والدَ مارجريت تاتشر (رئيسة الحكومة البريطانية السابقة) كان بقالاً، ولا أن جيمي كارتر كان يزرع الفول السوداني قبل أن يجلس في المكتب البيضاوي. بل ولا يهم أبداً أن نتذكر ماذا كان يعمل والد طه حسين أو من أين أتى أحمد زويل نفسه.

لا علاقة إذن بين المقدمة (الحصول على أعلى الدرجات) والنتيجة (التعيين في الوظيفة التي كان من أجلها الامتحان)، والذي لم يشترط «قانونه» ابتداءً منع أبناء المزارعين من التقدم إليه.

في مجتمع مثل هذا يصبح طبيعيًا أن تسير السيارات عكس الاتجاه. وأن تفاجأ على الطريق السريع بمطب صناعي بلا علامات تحذيرية، فتقف فجأة.. فتصطدم بك السيارة التي خلفك. (فقد زوج شقيقتي حياته قبل أيام فقط في هكذا حادث).

في مجتمع مثل هذا يصبح طبيعيًا أن تكون أرصفة الشوارع أعلى من أبواب السيارات (رغم أن كتب الهندسة الانشائية والقوانين المنظمة تحدد ارتفاعًا قياسيًا). وفي مجتمع مثل هذا، ضاعت فيه العلاقة بين السبب والنتيجة، يصبح طبيعيًا أن يفقد طفل حياته في حمام سباحة أحد الفنادق الراقية. لا غرقًا، وإنما لأن البالوعة «المكسورة» شفطته، حين قرر «المسؤول» دون اكتراث أن يُفرغ حمامَ السباحة من مائه قبل أن يخرج منه الأطفال. ويصبحُ طبيعيًا أن يكون هناك سلكٌ كهربائيٌ مكشوف على شاطئ قرية الدبلوماسيين في الساحل الشمالي فتفقد العروسُ الصغيرة حياتها.

وفي مجتمع مثل هذا.. لا تستغرب من فضلك أن يكتشف أحدهم فجأة في إحدى محافظات الدلتا أن الطلبة الذين حصلوا على الشهادة الإعدادية ومن قبلها الابتدائية، لا يعرفون كيف يكتبون أسماءهم على أوراق امتحانات الثانوية الفنية، بعد أن أمضوا - رسميًا - ١٢ عامًا في صفوف الدراسة. رغم لافتات «الحكومة الإلكترونية»... و«القراءة للجميع».. و«كمبيوتر لكل مواطن».

مجتمع مثل هذا.. لا يمكن له أن ينتج نوبل.. ولا يستحق - معيارًا - غير «صفر الأولمبياد» الشهير.



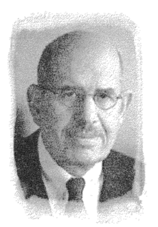
قبل أيام كنت في مركز للشرطة في إحدى محافظات شمال الدلتا. واستوقفني أنني لم أجد في لوحة يبدو أنها مخصصة لهذا الغرض، غير نشرتين بأسماء مطلوبين. إحداهما كانت تحمل صورًا للباكستانيين الأربعة الذين كان قد قيل قبل أشهر ثلاثة أنهم مسؤولون عن تفجيرات شرم الشيخ (ثبت في اليوم التالي مباشرة ورسميًا أن لا علاقة لهم البتة بالموضوع). وحين سألت الضابط الموجود، هل مازلتم تبحثون عنهم؟ قال: نعم. وشكرني إذا كنت أملك أية معلومات(!). وحين أخبرته بأن «المعلومة الوحيدة» التي لدي - إن كانت مفيدة - هو أنه قد ثبت قبل أشهر طويلة أن لا علاقة لهم بالتفجيرات.. وأن الجناة قد تم تحديدهم فعلاً؛ منهم من لقي حتفه «ومنهم من ينتظر..» لم يرغب في تصديقي، وإن كان - احترامًا - لم يبد هذا بوضوح.. (ولا تعليق).

«نشرة المطلوبين» الثانية على حائط مركز الشرطة كانت تتحدث عن محكوم عليه في جنحة تموين صدر عليه حكم «بالإكراه البدني» لمدة خمسين يومًا، لم ينفذ منها غير ٢٦ يومًا فقط ومطلوب القبض عليه ليستكمل مدته(!)

أعجبتني دقة الحساب.. وهمة الضابط الكبير الذي أرسل النشرة.. وجدية من التزم بتعليقها على الحائط. خاصة أن المتهم المطلوب لاستكمال الـ ٢٤ يومًا كان ينفذ عقوبته في طهطا في جنوب البلاد وأن الملصق الذي يبحث عنه معلق في مركز شرطة في أقصى الشمال. وخاصة - أرجو أن تلاحظ - أننا عمليًا بلد تزدحم قوائمه بمئات الهاربين من تنفيذ أحكام بالإعدام والأشغال الشاقة والسجن. وبالهاربين في جرائم قتل وتجارة مخدرات، وسارقي أموال البنوك. ولكنها الغيبوبة ومنطق «تسويد الخانات».. ويحدثونك عن نوبل (!)



أكاديميًا.. حدث ولا حرج. حيث تحفل الكتب المدرسية بالأخطاء، وحيث يحتفل التلاميذ «احتراما» بإلقائها في صناديق القمامة في آخر أيام







الامتحان. وحيث يتصدرُ الصفوفَ «الأكاديمية» الأقربُ للسلطة والألمعُ إعلامياً، لا ذلك المنشغلُ بطلبته أو أبحاثه أو معامله. وحيث تحددُ التقارير الأمنية (لا العلمية) من يعين ومن يرقى، ومن يوفد في بعثة علمية. وحيث يتخرج الطالب دون أن تعرف قدماه يوماً طريقها إلى المكتبة أو المعمل. وحيث.. وحيث.. هناك الكثير مما يعف القلم عن كتابته.

هل تعرفون ماذا جرى لمشروع «بناء قاعدة علمية معرفية» والذي حاولته اليونسكو مع الجامعات المصرية قبل سنوات. لدى صديقنا د. طارق شوقي الذي لم ينقصه يوماً الحماس للمشروع الطموح كل التفاصيل.

أخبروني عن بلد واحد فيه كل هذا الكرنفال التعليمي: مدارس وجامعات: أمريكية وكندية وبريطانية وفرنسية وألمانية وروسية. ثم أسبانية وصينية ويابانية تحت الإنشاء. وكلها - عدا الأمريكية العريقة ربما - ليست أكثر من مؤسسات «تجارية» لا تبغي غير الربح.

هل هناك من يستغربُ إذن أن لا تكون هناك جامعة مصرية واحدة على قائمة الجامعات الخمسمائة الأفضل في العالم.

جربوا من فضلكم زيارة موقع الجامعات المصرية على الإنترنت، أو مواقع مكتباتها. (حسب المعايير العلمية كان ترتيب موقع جامعة القاهرة بين جامعات العالم ٤٧٠٨، وبين جامعات أفريقيا ٢٦ بعد ناميبيا وموريشيوس ودار السلام!) - http://www.webometrics.info/top100_continent.asp-(cont=africa.htm

نتغافل عن كل هذا. ونتحدث عن الحكومة الإلكترونية. ونقنعُ أنفسنا بأن لدينا أربعة أوسمة «نوبلية». ونجلس على المقاهي.. في انتظار الخامسة. وإنا.. «ها هنا لقاعدون»..

في إحدى المناسبات التي حضرها أحمد زويل في زيارته الأخيرة للقاهرة، استوقفني مشهد مؤلم بكل المقاييس: أستاذٌ جامعي وباحث في الفيزياء في الحلقة السادسة من العمر ينحني ليقبل يد ممثلٍ صغير ليتوسط له ويمكنه من أن يلتقي العالمَ الكبير.. وقد كان. ودون دخولٍ في تفاصيل أكثر ألماً، أتوقف فقط عند الهدف الذي كان الرجل/ الباحث يسعى إليه من مقابلة العالم صاحب نوبل. أمامنا جميعاً كشف الرجلُ الذي ينتمي لجهة بحثية «مصرية» مرموقة كيف نخر الفساد في مؤسسته. معتقداً (أو آملاً) أن بمقدور العالم الكبير، الذي «يفترض» أن له كلمة مسموعة، التدخل لإعادة الأمور إلى نصابها الصحيح.

لم يكن فيما قاله الرجل أي جديد. فمن «لا يرى من الغربال...» كما يقول المثل المصري. كما لم تكن «عصا موسى» طبعاً في يد عالمنا الكبير. هل تذكرون محاولته إنشاء جامعة عصرية «مصرية» للبحوث. وهل تذكرون كيف أدى افتقادنا للـ System إلى إجهاضها.

ليس بعيداً عن هذا كان هناك مشهد آخر ربما كان ذا صلة. إذ تواكب الإعلان عن جوائز نوبل، التي أراد لها البعض أن تصبح احتفالاً «بمصرية» رابعة، مع فتح باب الترشيح للانتخابات النيابية في المحروسة. وكان المشهد لافتاً. على أبواب لجان الترشيح يتشاجرُ نواب «المستقبل» من مرشحي الحزب الحاكم والمنشقين عليه (الذين سينضمون إليه قطعاً حال نجاحهم). وتصل المشاجرات - حسب ما نشرته الصحف - إلى حد استخدام الأسلحة البيضاء. والمفارقة أن الشجار الدامي هنا لم يكن إلا تنافساً على «الرموز الانتخابية» التي ستوضع قرينَ أسمائهم(!) يذكرنا المشهد إذن - وهو جدير بكل تفاصيله بالأسى - بأننا بلد، رغم القرن الواحد والعشرين. ورغم الاحتفالات الإعلامية بنوبل «الرابعة»، مازال معظم ناخبيه لا يعرفون القراءة والكتابة. (تصل نسبة الأمية في مصر حسب آخر التقديرات إلى ٤٤.٤ ٪. تقرير التنمية البشرية ٢٠٠٤).

في مجتمع مثل هذا.. لا تستغرب أن يرشح حزب ما بلطجياً لعضوية البرلمان بدلاً من أستاذ جامعي..

وفي مجتمع مثل هذا.. حيث لا System. ومن ثم لا منطق ولا قانون، يصبح طبيعياً أن يحتفظ حزب الأغلبية (المطلقة) بين صفوف قادته من طلب القضاءُ محاكمته. بل ويصبح طبيعياً أن لا يقدم أبداً للمحاكمة.

وحين يغيب منطقُ الأشياء وتفسحُ حقائقُ الواقع مكانها للافتات البراقة. يصبحُ طبيعياً أيضاً أن نتحدث بكل الحماس عن إنضاج الحياة السياسية والحزبية. ثم «نحيك» من القوانين ما يحولُ قطعاً دون هذا. ويصبحُ طبيعياً كذلك أن نصدر قانوناً لـ «ديمقراطية» النقابات يؤدي عملياً إلى منعها من إجراء «انتخاباتها» منذ أكثر من عشرة أعوام.

حين يغيب الـ System يغيب المنطق. وحين يغيب المنطق.. من فضلك لا تستغرب. ولكنك قطعاً تعرف أن لا علم بلا منطق.. ولا نوبل بلا علم.



وبعد.. فالمجتمع - أي مجتمع - لا يمكن أن يصبح «نوبلياً» إلا إذا اتسم بسمتين: أن يعرفَ «المنطق» الذي هو - بحكم تعريفه - صنوٌ للنظام، ونقيضٌ للغوغائية. ثم أن يعرف منطقَ «القانون» الذي هو - بحكم تعريفه - فوق الجميع، ونقيض لمنطق القوة.

لسنوات طويلة تربى هذا المجتمع على أنه لا منطق هناك ولا قانون، فحين يتفشى الفساد والواسطة والمحسوبية تتراجع حكماً قيم العدل والمساواة والمنطق والقانون. وتدريجياً يكمن في النفوس شعور «خطر» بأنك لن تأخذ حقك. أو ما تتصور أنه حقك. إلا بالقوة.

أرجو أن نتذكر أن الإسكندرية التي شهدت قبل أيام محاولة البعض الحصول على ما يتصورونه حقهم (بالقوة)، هي نفسها المدينة التي شهدت قبل خمس سنوات فقط أن سلبتهم «الدولة» - بالقوة أيضاً - حقهم في الوصول إلى صناديق الاقتراع. هو إذن منطق القوة.. حين تصبح بديلاً للقانون.

لنسأل أنفسنا إذن صادقين: أين «مصر» واقعاً علمياً أو مجتمعياً في أوسمة نوبل الأربعة؟ أحدُهم منحها في سياق معروف. والآخر أجرى أبحاثه كلها في معامل جامعة «أمريكية». والثالث - لأسباب «مصرية» مألوفة - لم ترشحه دولته لمنصبه الذي حاز به الجائزة الرفيعة. وحده فقط.. نجيب محفوظ. الذي أرجو أن نلاحظ أن أعوامه «التسعين» إنما تعبر عن انتمائه لمصر - غير التي نعرف الآن - حين كان هناك «عصر العمالقة».



على شاطئ النيل كان غداؤنا مع العالم النوبلي. يومها تذكرت كم لقرون اطمأننا إلى «مصرية» النهر - قبل أن نفيق على حقيقة أن «خيره» يأتي من خارج الحدود.

يومها أيضاً.. وحين فشل النادل الشاب في أن يضبط اتجاه المظلة لتحجب الشمس عن الجلوس، تذكرتُ الفلاح البسيط في قريتي الصغيرة. وتساءلت - صامتاً - عن كنه الـ System الذي «توارثه» لقرون طويلة. والذي مكّنه من أن يخُط حقله كل موسم في خطوط «مستقيمة» متوازية طويلة... لا ينهيها غيرُ الأفق.

من يا ترى أضاعَ «الإرث»؟

وأين هي خطوطنا «المستقيمة» إلى الأفق؟

قبل الدخان الأبيض:

العالم هادئ والعرب وحدهم صاخبون!

نوبل: عقم وأطنان من البارود



إبراهيم العريس

■■ .. وفى منتصف نهار الثالث عشر من أكتوبر (تشرين الأول) من هذا العام، تصاعد «الدخان الأبيض» من مقر مؤسسة نوبل فى ستوكهولم معلنا اختيار فائز هذا العام بجائزة نوبل للآداب. ونعرف الآن أن الاختيار وقع على الكاتب البريطانى هارولد بنتر، بشكل خالف كل التوقعات والحسابات. فاسم هارولد بنتر، كان من الأسماء القليلة النادرة التى لم يطرحها أحد، لا فى العالم الخارجى ولا.. خاصة.. فى العالم الغربى. لسنا ندرى كيف كان حجم الخيبة إزاء فوز بنتر فى اللحظات الأولى لإعلان اسمه.. لكننا نعرف أن صحفيينا وكتابنا العرب الشجعان، سرعان ما تمالكوا أنفاسهم وتذكروا أن هارولد بنتر، ليس فقط، كاتباً كبيراً تعرف نخبتهم أعماله المسرحية جيداً، بل هو «مناضل ضد الحرب على العراق» وناقد عنيف لتونى بلير وجورج دبليو بوش. وهكذا برزت الظروف التخفيفية وطوى الجرح النرجسى العربى من جديد، على أمل اللقاء فى العام المقبل.

. ولكن فى خلال ذلك لم يتنبه كثير إلى أن هارولد بنتر من أصل يهودى برتغالى. لو تنبهوا لعاد الحديث يصخب عن «المؤامرة الصهيونية العالمية» التى تقف خلف كل قرار دولى.. كل جائزة عالمية.. وكل شىء تقريباً. حتى الآن نجت سمعة هارولد بنتر بنفسها من هذا المصير!

لكن الحياة الثقافية العربية لم تخرج من المعمعة سالمة. الخيبة اعتصرت أفئدة كثيرة. أفئدة لم تتنبه ربما إلى فوز المصرى محمد البرادعى بنوبل السلام (هو واللجنة الدولية للطاقة الذرية). ما يشكل، نظرياً، تعويضاً ما. وربما تنبهت وأرادت مناصرة لـ «حق» إيران فى أن تحوز قنابل نووية، أن تقول إن فوز البرادعى هو الآخر مؤامرة صهيونية. لكنها رأت أن اللعبة صارت شديدة السماجة. وهى صارت على هذا النحو، انطلاقاً من أن اللعبة صارت دائماً على هذا النحو: نبكى ونولول لأن «الصهاينة يسيطرون على كل شىء». بحيث يمنع العرب الكبار من أى فوز عالمى.. ثم حيث يحدث الفوز ننتحب غاضبين، ونقول إن أيدى الصهاينة هى وراء هذا الفوز حتى: حين أعطيت جائزة نوبل للآداب لعميد الرواية العربية.. قال عربانا الاشاوس: إن اليهود هم الذين أعطوه الجائزة لأنه مع التطبيع، ضاربين صفحاً عن أدبه الذى كان من شأنه أن يعطيه ألف نوبل ونوبل. ومن واقع أن كباراً مثل محفوظ هم الذين يثرون الجائزة لا العكس.

وحين فاز المصرى الآخر، العالم الدكتور أحمد زويل بجائزة نوبل، طلع من قال: إن الأمريكيين هم الذين أعطوها له، لأنه يعمل لديهم.. ولم يتذكر أحد أن فى حيثيات منحه الجائزة إنجازاته العظيمة فى العلوم.

مرات قليلة كانت تلك التى أعطى فيها مفكرون وكتاب عرب، جائزة نوبل.. وهم كانوا جميعاً، باستثناء ياسر عرفات (نوبل السلام) من مصر. ومع هذا يخيل إلينا أن العرب هم أكثر الناس صخباً وضجيجاً من حول جائزة نوبل، وبالتحديد من حول جائزة نوبل للآداب. وهذا الوضع تكرر هذا العام، بشكل فاق كل الأعوام السابقة، ودخل إلى حدود مرضية قد تستدعى فحوصات يقوم بها أساتذة فى التحليل النفسى السلوكى.

الإعلام الغاضب

فالحقيقة أن من يتابع الأسابيع التى تسبق منح جائزة نوبل للآداب.. والسجلات التى تدور حول هذا الأمر فى كل ضروب الحياة الثقافية فى شتى أنحاء العالم، لن يرصد أبداً، فى أى بلد أو فى أية بقعة من العالم، ما يشبه ما يرصده فى الحياة الثقافية العربية.. وتحديداً فى الصحافة العربية. تعلو التكهنات والترجيحات. ويتم الحديث عن تسريبات وتسريبات مضادة. ويصل الأمر حتى بصحف كبيرة محترمة أن تترك الحبل على غاربه لمحرريها ومراسليها، يزينون صفحاتها الأولى بأخبار وصور تشى بأنهم «يعلمون علم اليقين» اسم الفائز. وأنه الشاعر الفلانى، أو الروائى العلانى. طبعاً من بين الأسماء التى طرحتها الصحافة العربية فى هذا العام، أسماء لكبار يشكلون قمماً فى الإبداع العربى.. نقول هذا ونفكر، مثلاً، بأدونيس ومحمود درويش. وهما اسمان واردان من بين المرشحين الدائمين، حتى فى الأوساط السويدية. ولكن فى المقابل طالعتنا



هارولد بنتر الفائز بنوبل الأدب ٢٠٠٥

حين أعطيت جائزة نوبل للآداب لعميد الرواية العربية.. قال عربائنا الاشاوس: إن اليهود هم الذين أعطوه الجائزة لأنه مع التطبيع، ضاربين صفحاً عن قتل أدبه الذى كان من شأنه أن يعطيه ألف نوبل ونوبل. ومن واقع أن كباراً مثل محفوظ هم الذين يثرون الجائزة لا العكس



عشرات الأسماء، بعضها يرشح نفسه ويغرى صحفيًا بالحديث عنه، وبعضها يرشحه حواريون وأصدقاء لا يتردد الواحد منهم عن التأكيد على مصادر مطلعة انبأته بأن صاحبه هذا هو الفائز لا محالة.

كلهم.. حتى صغار الصحافيين وأكثر الشعراء فشلاً، وأصحاب تجربة أو تجربتين فى عالم الأدب، ذكروا ورشحوا.. وثارت خصومات، واستندت تنافسات. ولكن فى النهاية: لا شىء.. لا شىء تماماً مثلما كان الأمر فى الأعوام السابقة. ومع هذا وجدنا من ضرب كفا بكف حين أعلن فوز محمد البرادعى، وقال: «راحت علينا، لماذا؟.. لأن العرب لن يفوزوا مرتين فى عام واحد». والحقيقة أن قائلى هذا الكلام تفوتهم بديهة لم تعد تفوت أحداً فى العالم: جوائز نوبل لا تمنح لأوطان أو لمناطق جغرافية.. بل تمنح لأفراد مبدعين. وهم غالباً ما يكونون حقًا، أفراداً مبدعين، حتى حين تكون أسماؤهم غير معروفة كثيراً فى العالم خارج أوطانهم. ولنذكر هنا أن اسم نجيب محفوظ لم يكن، حين فاز بجائزة نوبل فى العام ١٩٨٨، معروفًا خارج العالم العربى، إلا لدى النخبة فى بريطانيا وفرنسا. لكنه بعد ذلك صار نجمًا كبيراً من نجوم الأدب العالمى.

والحقيقة أن أهل نوبل، يعتبرون أحداث هذه النقلة جزءاً أساسياً من مهماتهم. ذلك أن وظيفتهم الأساسية ليست تتويج كاتب سبق لقراء العالم كله أن توجوه (مع أن هذا يحدث فى أحيان كثيرة)، بل اختيار كاتب يرونه هم كبيراً، مهما كان حجم معرفة العالم به، لتعم شهرته لإلقاء العالم كله.

وإذ نقول هنا «من مهماتهم» فإننا نعنى بالتحديد، من مهمة بضعة عشر شخصاً هم الذين يختارون الفائز مرة فى كل عام. ونقوله لنتذكر أن ليس استفتاء شعبياً عاماً على مستوى الكون، وليس انتخاباً بالأكثرية النسبية أو الأكثرية المطلقة. ومن هنا، مهما كان رأينا فى «نوبل» وجوائزها، يجب ألا يغرب عن بالنا أن «اللعبة» فى نهاية الأمر لعبة اختيار شخصى، تخضع لاعتبارات فيها كثير من الموضوعية، لكن فيها قدراً كبيراً من الذاتية أيضاً. والحقيقة أن الحياة الثقافية العربية لن يرتاح لها بال، ما دامت ستواصل تغاضيها عن هذا الواقع.. وطالما أنها ستواصل الوقوف خارج فهم قواعد اللعبة.

سجالات حيوية

إذًا، لابد هنا من الإشارة إلى أن أعضاء الأكاديمية المولجين تحديد من هو الفائز، لا يخضعون لأية إملاءات تأتيهم من الخارج، لا من جمعيات ولا من أحزاب ولا من مؤسسات ولا من.. أفراد طبعاً. لكن هذا لا يعنى أن ثمة دائماً تأثيرات واعتبارات قد لا تكون أدبية إبداعية صرفة. تأثيرات ينفعل بها أولئك الأفراد الذين تنطرح عليهم مرة فى كل عام أسماء لمرشحين تأتيهم من كل مكان مرفقة بنتاجهم الأدبى.. وبملفات طويلة عريضة. لا تخلو أحياناً، وربما غالباً، من أبعاد سياسية طرفية - وهؤلاء الأفراد يتولون الاختيار كما يريدون. قد تكون لأحدهم مشارب معينة وعليه عند ذلك أن يقنع الآخرين باختيار معين.. وهكذا. ومن هنا لابد من القول إنه، حتى إذا كانت هناك بين الحين والآخر، اختيارات تنال إجماعاً، مسبقاً أو لاحقاً، (والنموذجان الأسطع على كل من هاتين الحالتين هما، بالطبع، غابريال غارسيا ماركيز ونجيب محفوظ)، فإن اختيارات عديدة، وأحياناً فى سنوات متلاحقة فى نيل هذا الإجماع. لكن العالم يرضى بالنتائج لأنه أصلاً يعرف قواعد اللعبة ويقبل بها. وهكذا، مثلاً، سرت احتجاجات كثيرة العام الفائت حين منحت الجائزة إلى الكاتبة النمساوية المشاركة الفريدى جيلينيك.. ولاتزال هذه الاحتجاجات قائمة حتى اليوم بعد أن ترجمت أعمال جيلينيك وقرئت على نطاق واسع ولم تعجب الكثيرين.

إذا يخطئ المولجون بالاختيار أو يصيبون.. هذا هو شأنهم وهذه هى مسئولياتهم. ومع هذا فإن العالم، بشكل عام، يتبع اختياراتهم باهتمام، معتبراً السجال من حولها مسألة حيوية. وهو - العالم - يفعل هذا، لأنه يدخل اللعبة أصلاً، من دون أوهام مسبقة. ولأنه يعرف تماماً أن «جائزة نوبل» ليست بداية الكون ولا نهايته.. الجائزة لا تصنع أديبًا أو عالمًا. ولا تخترع شيئًا من عدم.

المصيبة أننا نحن العرب، ننظر إلى الأمر برمته من منظور آخر. ومن هنا، ذلك الصخب العنيف والدائم من حول نوبل.. بل من حول كل جائزة، كبرى كانت أو صغرى، أدبية، علمية، أو فنية كانت.

وربما يعود هذا إلى أننا نعيش فى مرحلة يبدو فيها الإبداع الحقيقى وكأنه توقف بشكل شبه كلى. نعيش حقبة نود أن نصفها بالانتقالية، لكيلا نعطيها اسمها الآخر المرعب: مرحلة انحطاطية.

تتويج أم ماذا؟

فى هذه المرحلة التى نعيش، يخيل إلينا أن كل إبداعاتنا الكبيرة فى الأدب كما فى الفن، فى السياسة كما فى البناء الحضارى، فى العلوم والفكر، صارت وراءنا. كل كبير من كبارنا يموت أو يصمت دون أن يخلف وريثًا. وحسبنا أن نستعرض أسماء توفيق الحكيم وأم كلثوم وطه حسين والعقاد وميخائيل نعيمة ومحمد عزيز الحبابى ومحمود المسعدى وعشرات وعشرات غيرهم، من شبه المعاصرين لنا، دون أن نتوغل لنصل إلى أساطين النهضة وما تلاها من عصر ليبرالى. وحسبنا أن ندرك أن نجيب محفوظ وتوفيق صالح وعبد الله العروى صاروا من الصامتين عملياً. ثم نقارن بين ما ينتجه كبار العصر الذهبى الذين لا يزالون ناشطين بيننا، وما كانوا ينتجونه فى الماضى.

حسبنا استعراض هذا، لندرك إلى أين تسير إبداعاتنا العربية.. وندرك بالتالى خلفية اهتمام الحياة الثقافية العربية بكل ما هو دائر حول الإبداع، دون الإبداع نفسه.

فاليوم تكثر المؤتمرات والندوات.. تكثر المهرجانات.. تكثر الكتابات الموسوعية المؤرخة لحقب وإبداعات سابقة.. ثم خاصة تكثر الجوائز فرحة بنفسها، حتى ولو ناح النواحون ألف مرة فى اليوم على «نوبل» التى لا تدنو منا إلا بقدرة الخارج وبفضله (أربع جوائز من أصل خمس أعطيت لعرب.. هم أحمد زويل ومحمد البرادعى وأنور السادات وياسر عرفات، منحت لهم إما لاشتغالهم فى الخارج، وإما لمساهماتهم فى مساندة سياسات سلمية مرغوبة من الخارج، مرفوضة عندنا!).

ونحن نعرف، عادة، أن الحياة الثقافية حين يكثر فيها هذا النوع من النشاط، يكون هذا دليلاً قاطعاً على تضاؤل الإبداع نفسه فى أحيان كثيرة. وفى هذا الإطار هيا بنا نرصد الحكايات التى تتكرر مرة فى كل عام، مع جوائز عديدة تمنح لـ «المبدعين» فى طول العالم العربى وعرضه، وقد وفرتها أموال النفط وبعض النوايا الحسنة لراغبين فى أن يكونوا مبدعين وفشلوا فى ذلك مستعيضين بتخليد أسمائهم عبر الجوائز، عن تخليدها عبر الإبداع، إن معظم هذه الجوائز العربية التى يصعب فى نهاية الأمر القول إن لها قيمة حقيقية خارج قيمتها المادية البحتة، يعطى إما لأناس توقف معين إبداعهم منذ زمن طويل، أو لأناس لا هم مبدعون أصلاً ولا يحزنون، لكنهم يجيدون ألعاب العلاقات العامة.

وهذا الواقع «الجوائزى» المزرى، أفقد معظم هذه الجوائز من أى مضمون وأية مصداقية.. وصار العدد الأكبر من الجوائز يترافق مع فضائح وألاعيب، لم تعد حتى مثيرة بالنسبة إلى أى جمهور عريض.

إننا نعرف طبعاً، أن منح مبدع ما - فى أى مجال من مجالات الفن أو العلم أو الأدب أو الفكر - جائزة ما، يسفر عادة عن إثارة الاهتمام العام بإبداعه. فيرتفع عدد الكتب المباعة من هذه الأعمال. وتتركز من حوله وأعماله، دراسات وبحوث وينتقل الاهتمام به إلى الدراسات الجامعية، ويصبح هو بالتالى، ذا تأثير أخلاقى على الشعب الذى ينتمى إليه، فهل فى وسع أحد أن يحدثنا عن جائزة عربية.. أية جائزة عربية، كان لها هذا المفعول؟

سلطة أخلاقية

وهذا السؤال يعيدنا بالطبع، إلى جائزة نوبل، ومن خلالها كذلك إلى العديد من الجوائز التى تمنح فى هذا البلد أو ذاك («سرفانتس» الإسبانية، «غونكور» و«الأكاديمية» الفرنسية، «بوكر» الإنجليزية، «بوليتزر» الأمريكية بين جوائز أخرى رفيعة المستوى). إن أول ما نلاحظه فى هذا المجال هو أن وضعية الفائز تتبدل،

ليس بالنسبة إلى علاقته بإبداعه، بل بالنسبة إلى علاقته بالقراء، فتختلف بعد الجائزة عنها قبل الجائزة.. ثم إن كتبه تترجم بعد الفوز إلى عدد كبير من اللغات الحية، ما يحول المبدع من كاتب ولو مميز، إلى سلطة فكرية وأخلاقية على صعيد أجزاء عريضة من العالم (ولكى لا نبتعد عن عالمنا العربى كثيراً، نذكر الاهتمام العالمى الذى صار من نصيب كتب نجيب محفوظ بعد فوزه بنوبل.. ولكن أيضاً نذكر حالتين تتعلقان بكاتبين عربيين يكتبان بالفرنسية، هما اللبنانى أمين معلوف، والمغربى طاهر بن جلون، حيث إن كتابات كل واحد منهما تضاعف اهتمام القراء بها، كما تضاعف اهتمام الشعوب الأخرى بترجمتها إلى لغاتها، مرات عديدة، بعد فوزه بجائزة «غونكور» الفرنسية). وهنا تحضرنا بالطبع ذكرى ذلك الاجتماع الكبير الذى عقده الرئيس الفرنسى الراحل فرانسوا ميتران مع عدد كبير من الفائزين بنوبل، حين استضافهم فى قصر الأليزيه ليشاورهم فى شئون العالم، معتبراً إياهم ضمير هذا العالم الواعى.

إذاً، بعد الجائزة - حين تكون ذات قيمة معنوية، ثم مادية، على رغم سخاء المانحين المادى - لا يكون الفائز هو الذى يتغير، بل إن ضمير العالم هو الذى يأتيه دعم وإضافة.

وفى يقيننا أن كثيراً من الأدباء والمفكرين يعتبرون هذا من الأمور المهمة آخذينه فى عين الاعتبار، وكذلك يفعل كثير من المهتمين. ومن هنا تلك السجالات الضيقة التى تدور من حول منح جائزة مثل «نوبل».. ليس من موقع من فاز ومن لم يفز، أو من حيث «الكوتا» القومية أو الجغرافية أو ما شابه، بل من حيث البعد الأخلاقى المتوخى فى اختيار ما.. فى عام ما. مع العلم أن هذا البعد الذى يكون من المفروض اتسامه بالأخلاق، قد يغلب عليه طابع سياسى ما، حيث تلوح الفرصة مواتية بالنسبة للأكاديمية المانحة. وفى العادة تلعب الحصة السياسية الزائدة، والتى تبدو فى مثل هذه الحالات، مغرضة بالنسبة إلى كثير.. بل تكون أحياناً مغرضة من دون شك. وهى فى مثل هذه الحالات قد تضر بالكاتب وتبلبل حياته بأكثر مما تفيده، إذ تعطى له، ولعل أسطع مثال على هذه الوضعية الأخيرة، جائزة «نوبل» التى أعطيت للسوفيتى بوريس باسترناك عن روايته دكتور «جيفاغو» فى العام ١٩٥٨ فاضطر إلى رفضها بعد قبولها تحت ضغوطات سلطات بلاده. طبعاً يمكننا أن نقول هنا أن الكاتب وروايته يستحقان الجائزة تماماً. لكن المشكلة كانت فى أن التوقيت كان مغرضاً، إذ أن إعلان ضجة «نوبل» وبشكل استفزازى أتى فى وقت كانت الحرب الباردة قد وصلت ذروتها، وكانت رواية باسترناك تثير صخباً ومشاكل، بحيث إن الرجل ما كان أبداً فى «حاجة إلى تلك المساندة الأجنبية الخرقاء، فى ذلك الحين حيث إن توازن القوى لم يكن فى صالحه، بل فى صالح السلطات التى كانت استعادت مثاليتها بعد انفراج لم يدم سنتين.

رافضون

والحال أن فى وسع المرء هنا، أن يرصد قدراً كبيراً من الغرضية، ومن التوقيت المتعمد، فى منح العديد من الجوائز.. وخاصة إذ تعلق الأمر بتلك التى منحت إلى الكتاب السوفييت، وأحياناً إلى الكتاب الإسرائيليين.. ما دفع دائماً إلى النظر إلى نوبل على اعتبارها مسيسة أكثر من اللازم. وهذا الأمر دفع أحياناً بعض الفائزين إلى رفض الجائزة حين منحت إليهم. ومن الحالات الأشهر فى هذا المجال، جاك جان بول سارتر الذى رفض جائزة نوبل للآداب فى العام ١٩٦٤، وحال المسئول الفيتنامى لى دوكاثو، الذى رفض جائزة نوبل للسلام فى العام ١٩٧٣، لأنها منحت له، شراكة مع هنرى كيسنجر. وهناك على أية حال، ستة رفضوا الجائزة، أو ثمة إضافة إلى الثلاثة الذين ذكرنا: ريتشارد كوهن (الكيمياء للعام ١٩٣٨) وأدولف بوتنانهرت (الكيمياء للعام ١٩٣٩) وغرهاردت دوماك (الفيزياء أو الطب للعام ١٩٣٩ أيضاً)، علماً بأن هؤلاء الثلاثة ألمان، ورفضوا الجائزة تحت ضغط السلطات النازية. إذن، من بين الستة، كان سارتر والمسئول الفيتنامى الوحيدين اللذين رفضا الجائزة باندفاع ذاتى.

والطريف هنا هو أن رفض الجائزة يزيد فى مكانة رافضها، بقدر ما كان من شأن قبوله بها أن يفعل. غير أن هذه حكاية أخرى.

والآن بعد هذا كله قد يصح أن نعود إلى سؤال بديهى: ما هى جائزة «نوبل» أصلاً.. وكيف صارت لها كل هذه القيمة على صعيد العالم كله؟

الجواب يحتمل مقدمات، أولها افتراضى وهو أنه لولا اختراع الفريد نوبل للبارود ومتاجرته فيه، ما كان من شأنه أن يتمكن أبداً من تأسيس هذه الجوائز التى صار عمرها الآن أكثر من قرن، لأن الرجل تمكن من أن يفعل هذا بفضل ثروة طائلة جمعها من صنع البارود وبيعه، عبر ثمانين مصنعاً أقامها فى بلدان أوروبية عديدة وكانت تبيع سنوياً نحو ٦٦ ألف طن من البارود. هذا من ناحية، أما من الناحية الثانية فإن لعقم السيد نوبل، وعجزه عن الإنجاب ثم لخلافه الحاد مع أشقائه، الفضل الأساسى فى اتخاذه فى وصيته الشهيرة قرار تخصيص إرثه المالى كله لمكافأة المفكرين والمبدعين والعلماء على إنجازاتهم.

عولمة مبكرة

ومن ناحية ثانية قد يكون من اللافت أن نقول هنا أن لجوائز نوبل هذه، يعود الفضل الأساسى لولادة العولمة على الصعيد الإبداعى، بعدما كانت العولمة سابقاً لا تتحقق إلا بفضل الفتوحات والغزوات الإمبريالية. وعلى هذا يمكننا الافتراض بأن العولمة الحقيقية، إنما ولدت مع جوائز نوبل ومع بدايات القرن العشرين إلى جانب العديد من العلامات المبكرة لولادة هذه العولمة: فن السينما، الأدب الجماهيرى، خطوط المواصلات والاتصالات، الطيران، عالمية الصحافة.. وغيرها. لقد ترابط هذا كله منذ انفتاح العالم على بعضه البعض، لتأتى عالمية جوائز نوبل، لأول مرة فى تاريخ البشرية على مثل ذلك الاتساع. فتعطيه سماته الراهنة.

لكن ذلك كله لم يكن فى بال ألفريد نوبل (١٨٣٣ - ١٨٩٦) حين صاغ فى باريس، قبل رحيله بشهور ما يسمى بوصيته الثانية، والتى إذ استشرى الخلاف قبلها بينه وبين أشقائه - قرر فيها أن يخطو تلك الخطوة: أى أن يودع أمواله فى المصارف وقفاً على جوائز نوبل تمنح سنوياً لأعظم المجيدين فى مجالات فاقت، فى حينها جوائز، زيدت إلى ستة فى العام ١٩٧٠، حين أضيفت «نوبل الاقتصادية» إلى جوائز الكيمياء والفيزياء والطب والأدب والسلام. علماً بأن هذه الأخيرة. وبناء على وصية نوبل أيضاً. لا تمنح من قبل أكاديمية سويدية، بل من قبل لجنة ينتخبها البرلمان النرويجى.

ماء فى الطاحون

فى ذلك الحين لم تقرأ وصية الفريد نوبل إلا فى العام التالى لوفاته. والحقيقة أن الصخب والسجال العنيف والذى سيظل من نصيب هذه المؤسسة الفكرية الفريدة من نوعها (جوائز نوبل)، بدأ منذ ذلك اليوم، حيث إن الاحتجاج ساد فى السويد على الفور..

لولا اختراع الفريد نوبل للبارود ومتاجرته فيه، ما كان من شأنه أن يتمكن أبداً من تأسيس هذه الجوائز التى صار عمرها الآن أكثر من قرن، لأن الرجل تمكن من أن يفعل هذا بفضل ثروة طائلة جمعها من صنع البارود وبيعه



وكان احتجاجًا سياسيًا وقوميًا وماليًا أيضًا. إذ اتهم الرجل بأنه معاد لقومه فى الوقت الذى ساد فيه الهرج والمرج صفوف المساهمين السويديين فى شركة نفط باكو (وكان مقرها سانت سبيرج، التى كان يملكها شقيقان لألفريد نوبل). ولقد اتهم السويديون نوبل بنزعة سلمية جبانة، وبنزعة انفصالية، إضافة إلى كوزموبوليتينية بائسة.

بيد أن ذلك الضجيج هدأ فى ذلك الحين خلال السنوات القليلة التى مضت بين الإعلان عن الجوائز، والبدء فى منحها (فى العام ١٩٠١). ولكن ما أن منحت الجوائز الأولى، ولا سيما نوبل للآداب فى ذلك العام، وأعلن أن الفائز بها هو الكاتب اليمينى الفرنسى سولى برودون، حتى ثارت ثائرة اليساريين الأوروبيين الذين كانوا يرون أن الفائز الطبيعى كان يجب أن يكون إميل زولا. ومنذ ذلك الحين لم تتوقف السجالات، علمًا بأن محتجى العام الأول، سوف لن يفوتهم طوال قرن بكامله أن يروا ماء يرمى فى طاحونتهم، حيث إن الجوائز - الأدبية مثلاً - منحت غالبًا إلى كتاب يمينيين، فإذا كانوا يساريين كان عليهم أن يكونوا منشقين عن العالم الاشتراكى، حسب قول واحد منهم. والحقيقة أن أهل نوبل لم يفتهم أبدًا أن يغيظوا فى أحيان كثيرة، وخاصة حين يتعلق الأمر بجائزة نوبل للسلام، التى اعتادت أن تفصل دائمًا على مقاييس محددة تمت بصلة قرابة إلى الموقف الغربى من شئون العالم وشجونه.

ومع هذا، غلب دائمًا طابع إبداعى على منح الجائزة. وكانت هناك سنوات عديدة - هى الغالبة على أية حال - لم يلتفت فيها أكاديميو نوبل إلى أية اعتبارات غير الاعتبارات الفكرية والإبداعية. فإذا كانت «نوبل» ظلمت فى الابتعاد عنهم كتابًا زينوا القرن العشرين بإبداعاتهم، مثل جورج لويس بورغيس والبرتومورافيا وغراهام غرين مفضلة عليهم، مثلاً ونستون تشرشل (أجل.. أعطى جائزة نوبل للآداب فى العام ١٩٥٣) وصموئيل أتمنون وايمرى كرتشس وأمثالهم من كتاب لم يسمع بهم أحد قبل «نوبل» ولم يهتم بهم أحد من بعدها، فإنها أعطيت كذلك لبعض كبار كتاب الفن، من ماركيز إلى نايبول، ومن توماس مان إلى غونترغراس وأوكتافيو باز وارنست همنغواى وإلياس كانيتى وبرتراند راسل ووليام فولكنر.. بل حتى أعطيت لميخائيل شولوخوف، أحد كبار الكتاب الرسميين فى الاتحاد السوفيتى، فى عام وسط بين بوريس باسترناك (١٩٥٨) والكسندر سولجنسين (١٩٧٠)، اللذين لم يكن لموسكو أن ترضى عنهما أبدًا.

إحصاءات

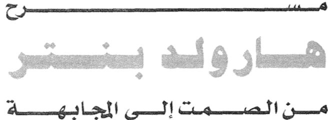
وبقى أخيرًا، أن نختم هذا الكلام ببعض الحقائق التى تبدو لنا طريفة ولكن مفيدة أيضًا:

● أصغر فائزين بجوائز نوبل كانا لورانس براغ (الفيزياء للعام ١٩١٥) وكان عمره ٢٥ سنة؛ وكارل آندرسون (الفيزياء للعام ١٩٣٦) وكان عمره ٣١ سنة.. أما أكبر فائزين سنًا فكانا ريموند دايفيز (الفيزياء للعام ٢٠٠٢) ٨٨ سنة؛ ومينثالى غينسبورغ (الفيزياء للعام ٢٠٠٣) ٨٧ سنة. علمًا بأن هناك آخرين كانوا فى الحادية والثلاثين من ناحية، والسابعة والثمانين من ناحية أخرى.. لكننا بحسبان الشهور والأيام اكتفينا باثنين من كل فئة.

● المجموع الإجمالى لعدد الفائزين بين ١٩٠١ و ٢٠٠٥، هو ٧٥٨ فردًا و١٨ مؤسسة ومنظمة. علمًا بأن البعض فاز مرتين: مارى كورى (نوبل للفيزياء عام ١٩٠٣، وللكيمياء عام ١٩١١)، جون باردين (للفيزياء عام ١٩٥٦ ثم عام ١٩٧٢)؛ فردريك سانغر (الكيمياء عام ١٩٥٨ ثم عام ١٩٨٠)؛ اللجنة العالمية للصليب الأحمر (نوبل للسلام ١٩١٧، ١٩٤٤ و١٩٦٣)؛ مكتب شئون اللاجئين التابع للأمم المتحدة (نوبل للسلام ١٩٥٤ و١٩٨١)؛ وأخيرًا لينوس باولنغ (نوبل للكيمياء فى العام ١٩٥٤، ثم للسلام عام ١٩٦٢).

● عائليًا تقول لنا الإحصاءات أن ثمة آباء وأبناء فازوا بالجائزة فى سنوات مختلفة، وهو ويليام براغ ولورانس براغ؛ تبلس بوهر وآغى بوهر؛ هانز نون أولر شلبن، وأدولف فون أولر؛ مان سيغبان وكاى مان سيغبان، وأخيرًا ج. توسون وجورج بادجت توسون. وهناك أب وابنته فازا، هما: بيار كورى وإيرين جوليو - كورى؛ وأم وابنتها فازتا: مارى كورى وإيرين جوليو - كورى؛ وأزواج فازوا: مارى كورى وبيار كورى؛ إيرين جوليو - كورى وفردريك جوليو، وجرثى كورى وكارل كورى. ■

مسرح



هارولد بنتر

من الصمت إلى المجابهة



■ «التهديد الخفى» (أو التهديد الشبح) هو للوهلة الأولى الاسم الذى اختاره المخرج الأمريكى جورج لوكاس، عنوانًا لواحد من أفلام سلسلة «حروب النجم». غير أن هذا الاسم ليس، بكل تأكيد من عنديات هذا المخرج الشعبى الذى أنجز منذ فترة آخر حلقات سلسلته. إذ أن لوكاس، الذى يوصف عادة بأنه، فى حياته الخاصة مثقف ونخبوى، ما كان فى إمكانه أن يجهل أن هذه العبارة تستخدم ومنذ عقود فى مجال الحديث عن الجو الأساسى الذى يخيم على مسرح هارولد بنتر، ذلك المسرح الذى بعدما ربط طويلاً بمسرح العبث، استقل وحده بصفة مستقاة من اسم الكاتب نفسه بحيث أن مسرح بنتر يسمى اليوم «البنتريسم»، وهو تحليليًا مزيج من أجواء فرانز كافكا ومن العالم المخيم أصلاً على رواية «صحراء التتار» للأبطال دينو بوتزاتى. فإذا كان الخطر الماثل أمام الإنسان، بشكل مستديم وبشكل جزءًا عضويًا من كينونته، خطرًا آتيًا من مكان ما مجهول. فإن بوتزاتى فى روايته تلك، ركز على ذلك الخطر المهدد، من خلال فرقة عسكرية محاصرة فى مكان صحراوى ما، تنتظر الأعداء، غير واثقة من هويتهم، ومن أين سوف يأتون. وهو نفس ما يطالعنا فى معظم مسرحيات بنتر، إضافة إلى المناخ الكافكاوى المباشر الذى ظهر لديه منذ مسرحيته الثالثة «حفل عيد الميلاد» (١٩٥٨) حيث لدينا عازف بيانو عاطل عن العمل. يعيش فى بيت منعزل إلى جانب البحر ويتجسد الخطر ذات يوم بالنسبة إليه، عبر شخصين يدخلان منزله عنوة ومن دون توقع، ليحاكماه على جرائم لا يعرف عنها، هو، شيئًا. أما مسرحيته الأولى «الغرفة» (١٩٥٧) فإنها حددت لبنتر فضاء «الأحداث» التى تقع فى مسرحياته: إنه مكان مغلق محاصر مهدد فى كل لحظة عن طريق قوة لا نعرف ولا يعرف نزلاء المكان، عنها شيئًا. طبعًا فى تطور لاحق سوف ينقل بنتر الحصار والتهديد من هذا الحيز الجغرافى المغلق، إلى منغلق آخر هو داخل الإنسان.. وسيكون ذلك قبل أن يسيس عمله أكثر وأكثر، وتصبح المسألة عنده، فى مسرحيات مثل «النظام العالمى الجديد» (١٩٩١) مسألة سلطة وتسلط على البشر.. حيث صار العدو الآن معروفًا والتهديد واضحًا. وما مواقف بنتر الأخيرة ضد محاولات الهيمنة الأمريكية

على العالم، وضد تبعية تونى بلير، لجورج دبليو بوش، سوى صورة لتجسد ماهية ذلك التهديد.

إعادة اعتبار

إذًا، كانت رحلة طويلة تلك التى قطعها هارولد بنتر من «مسرح اللامعقول» (الذى لم يكن أبدًا من رواده أو دعاته، إلا على صعيد استخدام اللغة (احتذاء اليونسكو) واستخدام الصمت (احتذاء لصامويل بيكيت).. أو ذلك التأرجح الخلاق لديه بين الصمت والكلام. أما بالنسبة إلى المواضيع، فإنها حتى وإن كانت أعماله الأولى تبدو غارقة فى البحث عن الشرط الإنسانى فى تعميم وجودى، عادت وتموضعت لاحقًا فى تساؤل حاد حول التناقضات الطبقية، مرتبطة - كما لدى رائد التحليل النفسى للجنس ويليام راش - بتيمات أساسية تجدها مشتركة فى أعمال هارولد بنتر، سواء أكانت مسرحية أو سينمائية أو شعرية، أو حتى مقالات سياسية، ومن هذه التيمات الأساسية، إضافة إلى التهديد الخفى الذى لا اسم له، الخيالات الجنسية، الغيرة والكراهية العائلية والمشاكل العقلية. ويقينًا أن هذه التيمات لم تكف عن زيارة أعمال بنتر منذ بداياته التى كانت على شكل قصائد شعرية قبل ما يزيد على نصف القرن.

إن شهرة هارولد بنتر فى العالم تعود أساسًا إلى كونه كاتبًا مسرحيًا، ناهيك عن مواقفه السياسية المتمردة، التى جعلت منه ضمير الحياة الثقافية الإنجليزية فى صراعها مع مفاسد السياسة، وضد الاستعمار الذى يعود إلى العالم أنجلو - ساكسونى، بوجوه جديدة.

ومن المؤكد أن مسرحياته هى التى دفعت لجنة محكمى جائزة نوبل للآداب إلى منحه جائزة هذا العام بشكل نال تصفيقًا فى العديد من الأوساط، وأعاد للجائزة اعتبارًا كانت فقدته منذ زمن. لكن علينا أن نلاحظ أيضًا أن هارولد بنتر هو كاتب سيناريو من طراز استثنائى، حتى وإن كان - على غرار ما يفعل أستاذنا نجيب محفوظ - قد اكتفى دائمًا بكتابة السيناريو اقتباسًا لأعمال أدبية كتبها غيره.

ومن سيناريوهاته الأهم والأشهر «الخادم»، و«حادث»، و«الوسيط» (والثلاثة من إخراج جوزيف لوزاين) و«آكل اليقطين» من إخراج جاك كلايتون، و«عشيقة الضابط الإنجليزى» (من إخراج كارل رايس)، و«العملاق الأخير» (من إخراج إيليا كازان).. ناهيك بالسيناريو الذى كتبه انطلاقًا من «البحث عن الزمن الضائع» قصد أن يحققه جوزيف لوزاين، ثم لوكينو فسكونتى، لكنه لم يتحقق أبدًا فاكتفى بنشره فى كتاب. من ناحية مبدئية تحمل القصص الأصلية التى أخذت عنها هذه السيناريوهات، تواقيع ل. ب. هارتى وفرانسيس سكوت فيتزجيرالد وجون فاولر وغيرهم، لكنها فى الحقيقة تتبنى على الشاشة، حوارًا ومواقف، إلى عوالم هارولد بنتر (وحتى إلى عوالم مخرجيها). وفى المقابل سيكون من اللافت أن نذكر أن أعمالاً لبنتر، مسرحية الأصل، حين اقتبست إلى الشاشة (الكبيرة والصغيرة أيضًا)، من قبل كليف دونز («المعتنى» - ١٩٦٣)، ومن قبل روبرت ألتمان («الغرفة» و«الساقى الأخرس») لم يقبل بنتر العمل بنفسه على كتابة السيناريو لها (وهذه أيضًا نقطة مشتركة بين بنتر ونجيب محفوظ).

الخطر.. شبح مجهول

حتى وإن كان هارولد بنتر قد دنا من فن السينما إلى هذا الحد، كاتبًا للسيناريو وللحوار.. وحتى إذا كان قد بدأ شاعرًا، وفى الشعر كذلك عبر عن نفسه فى أعماله الأخيرة، فإنه يبقى فى نهاية الأمر كاتبًا مسرحيًا، بل إنه فى مقابل استشراء ما يسمى بمسرح الغضب الذى ظهر فى لندن خلال النصف الثانى من القرن العشرين (أوزبورن، آردن.. ورفاقهما)، وقف وحده - تقريبًا - مرتبطًا بمسرح أقل مباشرة فى واقعيته، وفى بعده الاجتماعى، متجاوزًا هذا البعد دون أن يتخلى عنه، إلى طرح أسئلة قلقة حول الإنسان ومصيره فى عالم مهدد رمى فيه.

والحقيقة أن هذا العالم المهدد، كان جزءًا من طفولة هارولد بنتر وتكوينه، هو الذى ولد العام ١٩٣٠ فى القطاع الشرقى من لندن، لأب خياط هو فى الأصل مهاجر يهودى من البرتغال. وقد شب هارولد ودرس أول الأمر فى مدرسة ابتدائية وسط مناخ سيقول لاحقًا أنه هو، من موقع عدائى، ما نبهه إلى يهودية أبيه عبر استشراء العداء للسامية. ولقد أتت الحرب وهو بعد لم يبلغ العاشرة من عمره، إثر أجواء خانقة كانت نذيرًا بحتميتها، لتشعر الفتى بهشاشة العيش، حتى وإن كان أهله نجحوا فى إبعاده عن لندن أيام قصفها مما جنبه مواجهة الموت والدمار بشكل مباشر. وهو سيقول لاحقًا، إن هذا أثر فيه سلبًا، إذ جعل الخطر والرعب بالنسبة إليه شبحين يحومان لكنه لا يلمسهما مباشرة. ولسوف يظل هذا البعد طاغيًا عليه منذ الأشعار الأولى التى كتبها وراح ينشرها وهو بعد فى السادسة عشرة من عمره، إلى مسرحياته. ولكن قبل أن يبدأ الكتابة للمسرح، اتجه هارولد، إلى عالم التمثيل المسرحى، بدءًا من المدرسة الثانوية حين كانت بداياته على الخشبة، ولاحقًا حين صار ممثلاً محترفًا إثر دراسته فى «أكاديمية الفن الدرامى» ثم فى المدرسة المركزية للخطابة والدراما، اتخذ لنفسه اسمًا مستعارًا هو دافيد بارون. وهو بهذا الاسم عرف فى الجولات المسرحية وفى الأدوار العديدة التى قام بها، قبل أن يكتب فى العام ١٩٥٧ مسرحيته الأولى «الغرفة».. وإذا كانت هذه المسرحية قد عرفت بعض النجاح حين قدمت فى مدينة بريستول، للمرة الأولى، فإن مسرحيته التالية «حفل عيد الميلاد» نالت فشلاً ذريعًا لا سابق له فى تاريخ المسرح البريطانى الحديث، إذ أنها لم تصمد سوى ست ليال، أمام حالة شبه فارغة.. ناهيك عن مهاجمة النقاد لها، ولسوف يكون هؤلاء النقاد أنفسهم من سيدعم المسرحية نفسها حين قدمت لاحقًا وحققت نجاحًا كبيرًا.. لكن ذلك كان بعد نجاحات تلت الفشل الأول، بدأت تتحقق لبنتر منذ مسرحيته الرابعة «المعتنى» (١٩٥٩) ليتلوها نجاح «العودة إلى الدار» (١٩٦٤) ما دفع بهارولد بنتر إلى الصف الأول.. وهى مكانة لا يزال يحتلها فى المسرح البريطانى حتى اليوم.

من الصمت إلى المجابهة

بين العام ١٩٥٧ («الغرفة») وحتى العام ٢٠٠٠ (حيث أصدر واحدة من آخر مسرحياته وهى «ذكرى الأشياء الماضية») كتب هارولد بنتر أكثر من ٣٥ مسرحية، تشكل متن عمله الكتابى الأساسى (إضافة إلى عدة دواوين شعرية وآخرها «الحرب: ثمانى قصائد وخطاب» - ٢٠٠٣ - وإلى نحو ١٠ سيناريوهات للسينما، صدرت فى ثلاثة مجلدات عن دار «فابر» اللندنية).

وإذا كان الباحثون فى أعمال هارولد بنتر المسرحية قد رأوا أنه فى مجمل أعماله، ومهما كانت درجة خفية التهديد، أو وضوحه فيها، تمكن من أن «يعيد إلى المسرح عناصره الأساسية، بوصفه حيزًا مغلقًا، وحوارات مباغتة، حسب ما تقول الأكاديمية السويدية فى بيان يشرح مسوغات إعطاء الكاتب جائزة نوبل، فإن ما لابد من رصده هو أنه لئن كان الأشخاص فى هذا المسرح، معرضين للتهديد فى كل لحظة داخل ذلك الحيز،





من المؤكد أن مسرحياته هى التى دفعت لجنة محكمى جائزة نوبل للآداب إلى منحه جائزة هذا العام بشكل نال تصفيقًا فى العديد من الأوساط، وأعاد للجائزة اعتبارًا كانت فقدته منذ زمن



فإن كل واحد منهم يبدو فى الوقت نفسه واقعاً تحت رحمة الثانى، على رغم أن الحبكة تكون دائماً عند الحد الأدنى.. بل تقريباً من دون أحداث. ولعل عبقرية بنتر تكمن فى تمكنه من أن يخلق الدراما من لعبة توازنات القوى، ومن خلال الحوار الاستثنائى والغريب، والذى ـ فى بدايات بنتر على الأقل ـ كان الصمت يشكل جزءاً أساسياً منه. وانطلاقاً من هنا يقول بيان الأكاديمية أن مسرحيات بنتر استقبلت أول الأمر بوصفها منتمية إلى المسرح اللامعقول.. لكنها سرعان ما وصفت لاحقاً بـ «كوميديا التهديد»، حيث لعبة السيطرة والخضوع تلعب عن طريقة المحادثة. وهكذا «فى مسرح بنتر يطالعنا أناس كانوا فى البداية يدافعون عن أنفسهم ضد دخلاء مجهولين، ثم صاروا يدافعون ضد اندفاعاتهم الداخلية، وسط وجود مقلص وخاضع للسيطرة والرقابة».

ولعل من الأمور اللافتة، أن شخصيات مسرح بنتر كانت تبدو أول الأمر مذعنة، عاجزة حتى عن التواصل.. بل كانت تبدو جاهلة تماماً.. لكنها فى المسرحيات الأخيرة صارت تبدو أعلى مستوى «من الناحية التعليمية، وقادرة على التواصل اللفظى الحقيقى فيما بينها، مع أنها ظلت تفضل اختيار عدم التواصل».

إن التهديد الآتى من الخارج والمجهول هو ـ كما أسلفنا ـ المهيمن تماماً على أول مسرحيات هارولد بنتر («الغرفة»)، حيث لدينا زوجان عجوزان يعيشان وسط غرفة مضاءة تقع وسط عالم مظلم تماماً. وذات ليلة يأتى دخلاء مجهولون لتدمير أمان الزوجين. وفى المسرحية التالية «الساقى الأبكم»، عاد بنتر ليجعل من التهديد الخفى أساس المسرحية، من خلال قاتلين مأجورين جالسين فى غرفة وهما ينتظران أمراً للقيام بمهمة ما.. وهذا الأمر سوف يعمل عن طريق ساقٍ أبكم. «حفل عيد الميلاد» كانت ثالث مسرحيات بنتر، لكنها كانت الأولى من ذوات الثلاثة فصول.. والأولى التى فيها مجابهة حقيقية، إنما بائسة بين ستانلى والشخصين المكلفين من قبل قوى مجهولة بقتله. وعبر هذه النقطة الانتقالية (المجابهة إلى محاولة المقاومة) كان من الطبيعى لبنتر أن ينتقل فى المسرحية التالية «رماد خفيف» (١٩٥٩) ليرينا التهديد الآتى دائماً من الخارج، وقد صار جزءاً من الصراع الداخلى لدى الشخصيات نفسها.. وذلك من خلال إدوارد الذى إذ يهدد من قبل شخص عجوز، يرى بأم عينيه تفتت وجوده إلى حد أن تستبدله زوجته فى نهاية الأمر بذلك الشخص العجوز. وهكذا يحدث فى المسرحية التالية «المعتنى» (١٩٦٠) التى كانت أول مسرحية لهارولد بنتر تحقق نجاحاً تجارياً حقيقياً، يحدث أن التهديد يصبح واضحاً وجلياً ـ يصبح بالتالى صراعاً مفتوحاً ـ فى داخل الشخصيات الموجودة فى الحيز الجغرافى الذى لايزال، كما فى السابق، مغلقاً. وهو نفس ما يمكننا ملاحظته فى «العودة إلى الدار» (١٩٦٥)، مع العلم أن المهددين هم الآن فى الداخل، أما الضحايا فتأتى من الخارج.. ولعل هذا يشكل خط انقلاب فكرى فى مسيرة كاتبنا الذى ينسب هنا الفكرة العاطفية المعتادة عن الإنسان الذى لن يشعر بالأمان إلا حين يعود إلى دياره.

خبر غير مفرح

فى النهاية، منذ «العودة إلى الدار» وحتى «ذكرى الأشياء الماضية»، مروراً بأعمال أساسية فى مسار هارولد بنتر، مثل «المجموعة» (١٩٦١) و«أزمان ماضية» (١٩٧٠) و«أرض لا أحد» (١٩٧٤) و«أصوات عائلية» (١٩٨٠) و«محطة فكتوريا» (١٩٨٢) و«لغة الحيل» (١٩٨٨)، ثم خاصة «النظام العالمى الجديد» (١٩٩١) و«من الرماد إلى الرماد» (١٩٩٦) راح هارولد بنتر يكون عالمه المسرحى، مقترباً حيناً من الواقعية السيكولوجية، وحيناً من نوع الشاعرية، دون أن يفوته أن يقدم بعض لحظات من حنان، رغم قسوة عوالمه ككل.

ذلك أن هارولد بنتر، الذى استشعر هشاشة الوجود الإنسانى منذ بداياته، سار أيضاً مع زمنه، ومع تحولات عواطفه ومواقفه الشخصية، متأثراً بشتى أنواع الفنون ولاسيما فن السينما. ولكن متأثراً أيضاً بالتقلبات السياسية التى رافقته ورافقها منذ البداية ولا يزال، إذ نعرف أنه رفض الخدمة العسكرية وحوكم بسبب ذلك، ثم وقف ضد الحروب «الكولونيالية» المتتالية التى سادت خلال النصف الثانى من القرن العشرين، ولاسيما حرب فيتنام ثم الحرب الأولى والثانية التى شنها الأمريكيون (والإنجليز اكتواريا) فى العراق وقبل ذلك فى أفغانستان.

وانطلاقاً من هذا كله يمكن لنا أن نختتم قائلين: يقيناً أن فوز هارولد بنتر بجائزة نوبل للآداب للعام ٢٠٠٥ لم يكن خبراً مفرحاً لا لجورج دبليو بوش ولا لتونى بلير. ■



ديوان الطرب

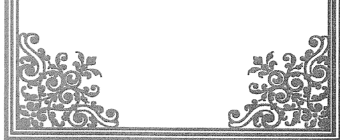
سلامة حجازى

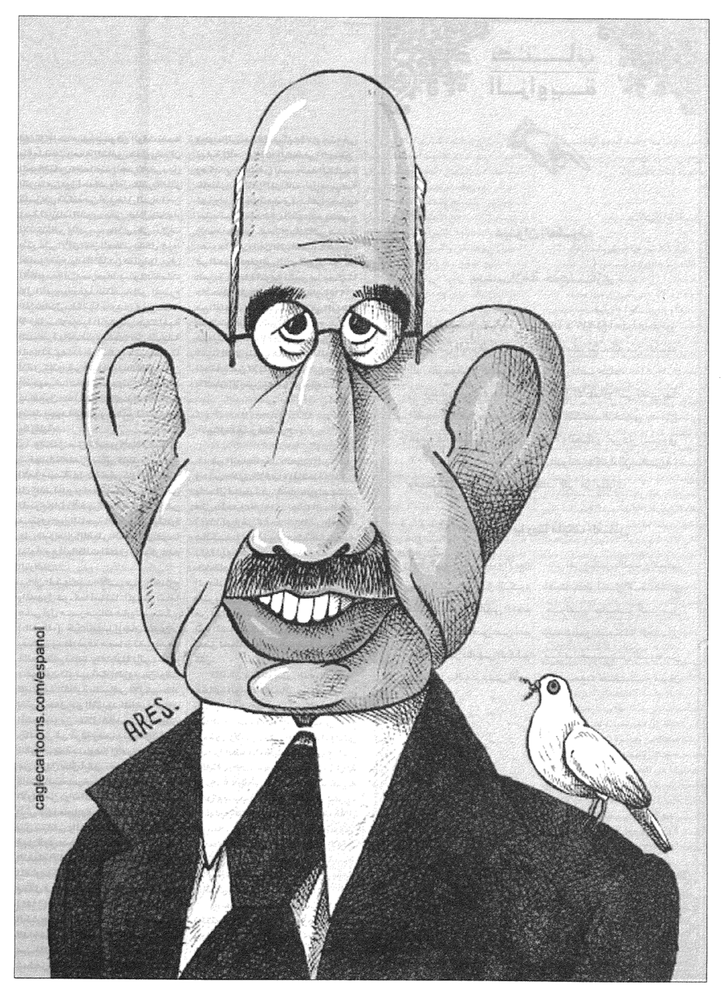
الشيخ سلامة حجازى (١٨٥٢ ـ ١٩١٧) أحد أهم رموز الموسيقى الشرقية الأصيلة وقد امتد نشاطه من الغناء إلى الموسيقى والتمثيل والغناء فى المسرحيات.

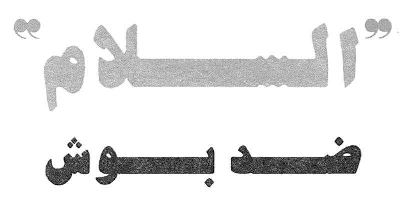
وتنشر «وجهات نظر» بعضاً من الأعمال التى تغنى بها الشيخ سلامة حجازى وتضمنها الكتاب الخاص به من موسوعة أعلام الموسيقى العربية والصادر عن دار الشروق ٢٠٠٢ بالتعاون مع مركز توثيق التراث بمكتبة الإسكندرية. ومعظم الأعمال لم يشر الكتاب إلى مؤلفيها.

احفظ لنا يا ربنا مليكنا العباس

وليبق فى عز وفى وزيره الأمين   حتى نفى ونكتفى بالنصر والتمكين
أيها السادة أهل الكرم   أنتمو أهل الفطن
جدتموا فضلاً بأبهى النعم   حزتموا صفو الزمن
أنسكم قد أمن عن أمم   ونفى عنا الحزن
فلكم شكر بأبهى الكلم   يا محبين الوطن
دمتموا بالعز بين الأمم   ما بدت منكم منن




ARES.
caglecartoons.com/espanol



ضد بــوش

آن بـيـنـكـــــــيـث

■■ وربما إذا عكسنا العبارة أيضاً، تظل صحيحة. ففي تحدٍ درامي للرئيس جورج بوش تم منح جائزة نوبل للسلام للرجل الذي جرؤ على القول للأمريكيين أن أساس منطقهم في شن الحرب على العراق هو كذبة. منحت لجنة نوبل الجائزة رفيعة المستوى لمحمد البرادعي، مسئول الأمم المتحدة الذي اشتهر بكشفه للمدى الذي يمكن للولايات المتحدة أن تذهب إليه في ادعاءاتها دفاعاً عن الحرب.

وكان البرادعي، رئيس الهيئة الدولية للطاقة الذرية والذي يقتسم الجائزة مع الهيئة قد سدد ضربة موجعة لإدارة بوش عشية الحرب على العراق. ففي خلال اجتماع مصور تلفزيونيا لمجلس الأمن في مارس ٢٠٠٣ قال البرادعي لوزراء الخارجية المجتمعين: إن المستندات، التي تثبت أن العراق حاولت شراء يورانيوم من النيجر لصناعة أسلحة نووية، «مزيفة».

يومها كانت شخصيات بارزة في إدارة بوش بالذات؛ كونداليزا رايس ونائب الرئيس ديك تشيني قد قدموا برنامج العراق المتطور والمفترض للأسلحة النووية على أنه السبب الرئيسي لشن الحرب.

ومازال معظمنا يذكر ما قالته كونداليزا رايس في تعليق مشهور لها حول بحث المفتشين عن «دخان المسدس» (وهو كناية عن البحث عن شيء وهمي) «إننا لا نريد لدخان المسدس أن يتحول لسحابة مشروم (غيمة نووية)» وكانت بريطانيا قد قامت أيضا باستخدام العلاقة التي ثبت زيفها الآن مع النيجر للترويج

بضرورة التحرك العسكري الفوري ضد صدام موحية بأنه كان على وشك إضافة الإمكانات النووية لترسانته من أسلحة الدمار الشامل.

ونعلم جميعاً أنه في النهاية لم يتم اكتشاف أي أسلحة للدمار الشامل من أي نوع فما بالك بالبرنامج النووي.

إن تكريم البرادعي ووكالة الطاقة الذرية يمكن أن يكون تحذيراً للرئيس بوش. ولتوني بلير الذي ساند بوش في الغزو- ضد الهجوم على إيران بحجة برنامجها النووي.

إن الرسالة الضمنية للجنة نوبل والتي قالت إن التهديد بالأسلحة النووية «يجب أن يُجابه عبر أوسع شكل ممكن من التعاون الدولي». هي أن التفتيش على الأسلحة أفضل في التعامل مع أي أزمة من اللجوء إلى الحرب.

ويشير القرار الذي أتى في الذكرى الستين لإلقاء القنبلة النووية الأمريكية على هيروشيما ونجازاكي إلى عودة لجنة نوبل في النرويج إلى جذورها فيما يتعلق بنزع السلاح.

وقال رئيس اللجنة أول دانبولت مويس «أن هذه رسالة لجميع سكان الأرض. افعلوا كل ما تقدرون عليه للتخلص من الأسلحة النووية. إن قوة الشعوب جبارة».

والبرادعي المصري المولد والذي علم بخبر فوزه وهو يشاهد التلفزيون مع زوجته أعلن أن الجائزة «shot in the arm » للوكالة التي يتم الآن تهميشها في الطموحات النووية لإيران وكوريا الشمالية، الدول التي تشكل أكبر خطر على السلام والأمن العالمي. ولقد تم منع الوكالة أيضا من الوصول إلى مهندس القنبلة النووية الباكستانية

عبد القادر خان الذي وضع الآن تحت الإقامة الجبرية.

ولقد كان السيد خان المدير التنفيذي غير الرسمي لسوق محظورة تتعامل مع أكثر من ٣٠ شركة في ٣٠ دولة لتمرير الأسرار النووية لإيران وكوريا الشمالية وليبيا.

قال البرادعي في مقر الوكالة في فيينا «إن الجائزة ترسل رسالة قوية - استمروا في ما تفعلونه. كونوا محايدين وتعاملوا وهذا هو ما ننوي فعله».

وأضاف على وقع تصفيق موظفي الأمم المتحدة «إن الميزة في مجيء هذه الجائزة الآن هي أنها ستقوي من عزيمتي» مؤكداً على أن الجائزة اعتراف بأن «الخطر الأول الذي نواجهه اليوم» يأتي من التهديد بالانتشار النووي.

يوصف البرادعي بأنه «مدافع لا يعرف الخوف» عن نزع السلاح ويستمد قوته من أنه لا يخجل من أن يقول للسياسيين الحقيقة التي لا يستسيغونها والتي يأتي بها من الأدلة الموثقة التي مصدرها المفتشون «على الأرض».

ومع ذلك لم تكن الوكالة وإنما منشقون إيرانيون هم من أطلق جرس الإنذار بخصوص برنامج إيران النووي السري. وقد أثبتت تحريات مفتشي الأمم المتحدة على الأسلحة أن إيران كانت تعمل على برنامجها النووي قبل ضبطها بالجرم المشهود بثمانية عشر عاماً.

وحتى اليوم بعد مرور سنين على التفتيش لم تحسم وكالة الطاقة الذرية ما إذا كانوا يعملون على برنامج تسليح، وهو الأمر الذي ينكرونه في كل الأحوال . أم لا . أما في حالة كوريا الشمالية

فليس في وسع الوكالة إلا أن تخمن ما الذي يجري في هذا النظام المنغلق حيث إن المفتشين طردوا منها عام ٢٠٠٢.

لقد تم في الواقع الاستيلاء على مفاوضات نزع السلاح مع بيونجيانج لحساب مفاوضات سداسية الأطراف يشترك فيها الولايات المتحدة مع أطراف إقليمية.

إن البرادعي هو من يشرف على تطبيق اتفاقية منع الانتشار النووي منذ أصبح مدير عام الوكالة عام ١٩٩٧ بعد ترقيه في المناصب المختلفة فيها عبر ١٣ سنة وقد انتقد بشكل خاص ما رأى أنه معايير مزدوجة من طرف الدول التي تمتلك أسلحة نووية ولكنها تسعى لمنع الآخرين من امتلاكها.

كما قال «يجب علينا أن نتخلى عن المفهوم غير القابل للتطبيق والذي يعتبر أنه من الأخلاقي أن يسعى البعض لامتلاك أسلحة دمار شامل أو أن من المقبول أخلاقياً أن يعتمد عليها آخرون لحمايتهم وأن يستمروا فعلا في تحسين قدراتها».

في الغالب لن يرضى الأمريكيون عن جائزة البرادعي حيث إنهم يعملون مع الوكالة على أمل إحالة طهران لمجلس الأمن لعدم كشفها عن المدى الحقيقي لبرنامجها النووي.

لم يحصل البرادعي على الجائزة فقط رغم أنف واشنطن، بل إنه كان قد احتفظ بمنصبه أيضاً رغماً عنها إذ كان جون بولتون الذي يشغل حاليا منصب مندوب الولايات المتحدة في الأمم المتحدة قد قام بشن حملة فاشلة لإقالة البرادعي عندما كان بولتون المسئول الأمريكي عن ملف نزع السلاح. ولكن تم التجديد للبرادعي في منصبه للمرة الثالثة ليستمر في فيينا. والتي لن يتركها - رغم أماني بولتون - إلا إلى ستوكهولم ليتسلم الجائزة الرفيعة. ■

عن صحيفة الإندبندنت البريطانية

ترجمة: نرمين نزار



الوكالة.. والجائزة

محمد إبراهيم شاكر



من الطبيعي أن يحس كل من عمل أو يعمل حاليا في الوكالة أو ارتبط بها من قريب أو بعيد أنه معني بهذه الجائزة



■■ غداة حصول الوكالة الدولية للطاقة الذرية والدكتور محمد البرادعي - مديرها العام - على جائزة نوبل للسلام لعام ٢٠٠٥، اتصلت بي إعلامية بإحدى الصحف اليومية لتهنئتي وتهنئة مصر بهذه الجائزة، وتساءلت ببساطة: عما إذا كنت أحد الفائزين بهذه الجائزة بصفتي أحد الخبراء في مجال الطاقة النووية وبسبب سابق عملي فترة ما في الوكالة الدولية في الماضي، فشكرتها على هذا الشعور، واختلجتني مشاعر كثيرة وذكريات عديدة حول قصة ارتباطي الطويلة بالوكالة الدولية للطاقة الذرية ومنع انتشار الأسلحة النووية.

قضيت أعواما طويلة في مجال منع انتشار الأسلحة النووية منذ أن عملت كعضو في وفد مصر لدى مؤتمر نزع السلاح في جنيف في الفترة من ١٩٦٤ حتى ١٩٦٨، وهي الفترة التي كرس فيها المؤتمر جهوده للتفاوض حول معاهدة منع انتشار الأسلحة النووية، مما شدني فيما بعد إلى التفرغ أربع سنوات لإعداد رسالة دكتوراه عن هذا الموضوع منحتها لي جامعة جنيف بسويسرا عام ١٩٧٥ (أصدرتها دار نشر كبيرة في نيويورك ١٩٨٠ في كتاب من ثلاثة أجزاء، والذي يعد اليوم بشهادة الجميع المرجع الرئيسي بالنسبة للمعاهدة).

وبعد مرور فترة طويلة من حصولي على الدكتوراه وتنقلي بين اكثر من عاصمة - وخاصة واشنطن - خلا منصب ممثل مدير عام الوكالة لدى الأمم المتحدة بنيويورك - وكان هانز بليكس قد تولى منصبه كمدير عام للوكالة، ولم يمر على وجوده في هذا المنصب أكثر من عام. وبالفعل وفقني الله في الحصول على هذا المنصب في نيويورك من ضمن ٤٠ مرشحا له.

تسلمت عملي في الوكالة في أغسطس ١٩٨٢، وانتقلت مباشرة لنيويورك لتولي مهام منصبي الجديد، وكانت من أسعد اللحظات وأثراها في علاقتي الطويلة الوثيقة بموضوع منع الانتشار النووي، ودور الوكالة الدولية في هذا الشأن، وحيث توثقت الصلة بيني وبين هانز بليكس خلال هذه الفترة.

لم تطل للأسف فترة وجودي بالوكالة، حيث نصحني د. بطرس غالي - وزير الدولة للشئون الخارجية حينذاك - وبعد حصولي على درجة السفير باستئناف عملي بوزارة الخارجية، وإنهاء إعارتي للوكالة على أن أتولى منصب المندوب المناوب لدى الأمم المتحدة اعتبارا من أول يناير ١٩٨٤، وقد جذبتني هذه الفرصة خاصة أنني كنت قد علمت أن مصر مرشحة لتولي عضوية مجلس الأمن خلال عامي ١٩٨٤، ١٩٨٥.

حاول هانز بليكس أن يغريني بالبقاء، باحتمال نقلي لفيينا، مقر الوكالة لتولي العلاقات الخارجية بعد موافقة مجلس محافظي الوكالة، ولكني كنت قد عقدت العزم على استئناف عملي بالخارجية كما وعدت بذلك الدكتور بطرس غالي، غير أنني كمصري غيور، شعرت أنه من واجبي أن أعمل على أن يشغل هذا المنصب الهام مصري آخر، وهو ما وعدت به هانز بليكس - وكان الدكتور محمد البرادعي وقتذاك معارا من وزارة الخارجية لمعهد الأمم المتحدة للبحوث والتدريب بنيويورك حيث أعرب عن رغبته في أن يحل محلي في هذا الموقع، وتم لقاؤه مع بليكس في مكتبي بالوكالة في نيويورك لأول مرة. ذكرت لبليكس أنه لن يجد افضل من د. البرادعي لهذا المنصب. وبالفعل - اختاره من بين عدد كبير من المرشحين الذين تقدموا لشغله. ومن هنا بدأت رحلة د. محمد البرادعي داخل الوكالة في مناصب مختلفة إلى أن تولى منصب مدير عام الوكالة منذ عام ١٩٩٧.

لم تنقطع صلتي فيما بعد بالوكالة على الإطلاق، فبعد تسلم عملي كمندوب مناوب لمصر لدى الأمم المتحدة، ونائب مندوب مصر في مجلس الأمن في الفترة من ١٩٨٤ - ١٩٨٥، رشحتني مصر لتولي رئاسة المؤتمر الثالث لمراجعة معاهدة منع انتشار الأسلحة النووية ١٩٨٥، وكان من المؤتمرات الناجحة للغاية، خاصة بسبب روح الفريق التي سادت قيادات المؤتمر، والتنسيق والتعاون الكامل فيما بينها، وكان المؤتمر السابق له في عام ١٩٨٠ قد فشل تماما في التوصل لوثيقة ختامية، كما فشل في نفس الأمر مؤتمر المراجعة لعام ١٩٩٠، كما أن مؤتمر مراجعة ١٩٩٥- وان كان قد نجح في مد أجل المعاهدة واتخاذ بعض القرارات الهامة - إلا أنه فشل أيضا في إصدار بيان ختامي، ولم ينجح في إصدار بيان ختامي إلا مؤتمر مراجعة عام ٢٠٠٠، وان كانت الدول الحائزة على الأسلحة النووية لم توف بتعهداتها بنزع هذه الأسلحة. كما أننا كلنا نعلم الفشل الذريع الذي وصل إليه مؤتمر المراجعة الأخير في عام ٢٠٠٥.

بعد ذلك، عينت سفيرا في النمسا، ومحافظا لمصر في مجلس محافظي الوكالة الدولية للطاقة الذرية من عام ١٩٨٦ - ١٩٨٨، انتخبت خلالها كذلك لرئاسة المؤتمر الدولي لتشجيع التعاون الدولي في مجال الاستخدامات السلمية للطاقة الذرية في جنيف (مارس ١٩٨٧).

وبعد انتقالي من فيينا إلى لندن لتولي منصبي كسفير لمصر لدى بريطانيا، لم تنقطع صلتي بعمل الوكالة الدولية للطاقة الذرية، أو بموضوعات منع الانتشار، وذلك بحضور عدد كبير من الندوات واللقاءات الدولية، كما اختارني د. بطرس غالي سكرتير عام الأمم المتحدة عضوا بالمجلس الاستشاري للسكرتير العام لشئون نزع السلاح من ١٩٩٣ حتى ١٩٩٨، وكنت رئيسا له عام ١٩٩٥، وقد أكد هذا الاختيار خليفته كوفي عنان.

وعندما خلا منصب مدير الوكالة الدولية للطاقة الذرية عام ١٩٩٧، رشحتني مصر لهذا المنصب المهم آملا وضع خبراتي الواسعة في النهوض بعمل الوكالة الدولية للطاقة الذرية والاستمرار في شحذ الجهود لمنع انتشار الأسلحة النووية - خاصة في ظل ما نعانيه في منطقتنا من وجود مخاطر نووية تهدد أمنها وسلامتها.

وضعت مصر كل إمكانياتها لتأييد حصولي على هذا المنصب، خاصة أنه كان هناك عدد كبير من المرشحين ولكنهم انسحبوا جميعا ما عدا عالم ذرة رشحته



ذكرت لبليكس أنه لن يجد افضل
من د. البرادعى لهذا المنصب. وبالفعل -
اختاره من بين عدد كبير من المرشحين الذين تقدموا لشغله. ومن هنا بدأت رحلة
د. محمد البرادعى داخل الوكالة فى مناصب مختلفة
إلى أن تولى منصب مدير عام الوكالة عام ١٩٩٧



سويسرا، وفى التصويت النهائى فى الجولة الأولى للترشيحات، حصلت على عدد من الأصوات أكبر من تلك التى حصل عليها المرشح السويسرى، ولكنها لم تكن كافية لحصولى على الأغلبية اللازمة لتولى هذا المنصب، ورأت القاهرة عدم السير فى استمرار تأييد ترشيحى فى الجولة الثانية. وكان زميلى د. محمد البرادعى فيما بعد أكثر حظا منى فى الجولة الجديدة كمرشح المجموعة الأفريقية فى الوكالة، وكان حائزا على تأييد الدول الرئيسية الأعضاء فى مجلس محافظى الوكالة، ثم فى المؤتمر العام للوكالة الدولية للطاقة الذرية الذى يقر نهائيا قرار مجلس المحافظين.

أطلت بعض الشىء فى هذه المقدمة، حتى أوضح مدى سعادتى بجائزة نوبل للسلام لكل من الوكالة ود. محمد البرادعى لأننى شعرت وأحسست بأننى عشت تجربة طويلة مع منع الانتشار، وعرفت الوكالة الدولية للطاقة الذرية من الداخل، والدور الهام الذى تقوم به للرقابة على الاستخدامات السلمية للطاقة الذرية، وتشجيعها لهذه الاستخدامات فى نفس الوقت تحت هذه الرقابة، ومن الطبيعى أن يحس كل من عمل أو يعمل حاليا فى الوكالة أو ارتبط بها من قريب أو بعيد أنه معنى بهذه الجائزة.

ويحضرنى فى هذه المناسبة، تساؤل أحد الدبلوماسيين القدامى بسذاجة - لماذا تقحم مصر نفسها فى السعى لمنصب مدير وكالة همها اليومى هو التدخل فى شئون الدول ورقابتها، فالأحرى بمصر أن تبتعد عن مثل هذه المناصب غير المحببة للرأى العام الدولى!؟.

وهو ما يسوقنى الآن للانتقال للحديث عن الدور الذى تقوم به الوكالة الدولية للطاقة الذرية، وتاريخ إنشائها، وان كنت أود أن أوضح أن جائزة نوبل للسلام منحت فى مجال نزع السلاح ومنع الانتشار بمشاركة أكثر من شخص أو منظمة أكثر من مرة، فقد حصل على هذه الجائزة عام ١٩٨٣ كل من السفير جارسيا روبلز من المكسيك والسفيرة الفا ميردال من السويد لدورهما وجهودهما نحو عالم منزوع السلاح؛ فالأول ساهم فى إنشاء أول منطقة خالية من الأسلحة النووية فى أمريكا اللاتينية، والثانية اضطلعت بدور هام فى مفاوضات نزع السلاح، وكذلك معاهدة منع انتشار الأسلحة النووية كممثلة لأجيال متعاقبة من الخبراء السويديين الذين كرسوا حياتهم للتخلص من الأسلحة النووية، وخلق عالم أكثر استقرارا وسلاما. وقد حصلت أيضا على جائزة نوبل للسلام منظمة باجواش، ورئيسها الفخرى الذى رحل عنا هذا العام جوزيف رود بلات البريطانى الجنسية من أصل بولندى وذلك عام ١٩٩٥ لدورهما الكبير فى العمل على التخلص من الأسلحة النووية ومنظمة باجواش أسسها علماء ذرة وغيرهم ممن ساهموا فى صنع القنبلة الذرية بطريق مباشر أو غير مباشر تكفيرا عن دورهم فى هذا الشأن، ولكن اتسعت العضوية بالمنظمة الآن لتشمل فئات أخرى عديدة مناهضة للسلاح النووى.

أنشئت الوكالة الدولية للطاقة الذرية عام ١٩٥٧، وكان بناء على اقتراح تقدم به رئيس الولايات المتحدة دوايت ايزنهاور عام ١٩٥٣ فى خطاب شهير عرف بـ «الذرة من اجل السلام»، وكانت فلسفة إنشاء هذه الوكالة تقوم أولا على أن التقنية النووية ستنتشر سواء أردنا أم لم نرد، وبالتالى لا مفر من توجيه انتشار التقنية النووية السلمية تحت رقابة دولية فعالة.

وبالفعل انحصرت مهام الوكالة منذ إنشائها فى تحقيق هدفين أساسيين أولهما تشجيع التعاون فى مجال الاستخدامات السلمية للطاقة النووية من اجل رفاهية ورخاء البشر، ومن ذلك استخدام الطاقة النووية فى مجال توليد الطاقة الكهربائية وفى مجال الزراعة، كالقضاء على ذبابة الفاكهة، وكذلك فى مجال الطب لمعالجة الأورام الخبيثة إلى غير ذلك من المجالات السلمية.

أما الهدف الثانى، أن تكون هذه الاستخدامات تحت رقابة دولية فعالة - وهو ما أود أن أركز عليه الأن - وقد لوحظ فى المراحل الأولى من حياة الوكالة أن بعض الدول تتعاون فى المجال النووى دون أن تطلب من الوكالة القيام بدورها كرقيب على هذا التعاون لضمان عدم إساءة استغلاله لأغراض غير سلمية وكانت الرقابة تترك للدولة التى أمدت بالتقنية النووية أو فى بعض الأحوال التعاون لم يكن خاضعا لأى نوع من الرقابة من جانب أى طرف، مثل حال مفاعل الأبحاث النووى الذى وفرته كندا للهند. ولتشجيع الالتجاء للوكالة قامت الأخيرة فى بداية عهدها بإعداد نموذج لتستعين وتهتدى به الدول الأعضاء بها فى توقيع اتفاقية ضمانات (تفتيش) مع الوكالة الدولية للطاقة الذرية، وقد أدخلت على هذا النموذج عدة تعديلات، ليتواكب مع مقتضيات حجم ونوعيات التعاون فى ضوء الخبرة المكتسبة فى هذا الشأن.

ومع توقع ازدياد حجم التعاون بين الدول فى مجال الاستخدامات السلمية للطاقة النووية بعد فتح باب التوقيع على معاهدة منع انتشار الأسلحة النووية فى أول يوليو ١٩٦٨، وهو ما تسمح به وتشجعه المادة الرابعة من المعاهدة، شرعت الوكالة الدولية للطاقة الذرية فى إعداد نموذج جديد للرقابة على الأنشطة النووية يأخذ فى الاعتبار زيادة معدلات التعاون فى المستقبل لتمتد الرقابة على كل الأنشطة النووية للدولة الطرف بالمعاهدة حيث كان النموذج السابق ينطبق عادة بالنسبة لمنشأة بذاتها، وكان على كل طرف فى المعاهدة بمجرد انضمامه للمعاهدة أن يبدأ مفاوضات مع الوكالة الدولية للطاقة الذرية فى فترة زمنية محدودة، من أجل عقد اتفاقية ضمانات تشمل كل أنشطته، - وهو ما قامت به مصر عندما انضمت لمعاهدة منع انتشار الأسلحة النووية عام ١٩٨١ حيث سارعت بالتفاوض والتوقيع على اتفاقية الضمانات مع الوكالة.

ولكن بعد حرب تحرير الكويت من الاحتلال العراقى، تكشف للوكالة الدولية للطاقة الذرية أن هناك أنشطة نووية لم تبلغها العراق للوكالة وفقا لالتزاماتها فى معاهدة منع انتشار الأسلحة النووية واتفاقية الضمانات الموقعة مع الوكالة. فالأخيرة كانت تعتمد أساسا على ما تعلنه الدول الأطراف من أنشطة وتضع ثقتها فى أن ما توفره من بيانات عن أنشطتها النووية هى بيانات كاملة. وقامت الوكالة الدولية بقيادة الدكتور محمد البرادعى وبالتعاون مع هانز بليكس رئيس هيئة التفتيش على العراق بجهد خارق لتفكيك ما لدى العراق من أنشطة نووية وغيرها من أسلحة الدمار الشامل.

نبهت قضية العراق الوكالة وأعضاءها إلى أن الوكالة فى حاجة إلى سلطات أوسع للتحقق من أن البيانات التى توفرها لها حكومات الدول الأعضاء فى المعاهدة عن أنشطتها النووية صحيحة وكاملة، وبالتالى عكفت الوكالة الدولية للطاقة الذرية على إعداد نظام جديد للضمانات انتهت من إعداده عام ١٩٩٧، يكفل لها حرية أكبر فى الحركة والتجول فى الدول الأطراف بالمعاهدة، للتأكد من صحة البيانات أو للبحث عن أنشطة غير معلنة إذا ما كانت هناك شكوك حول وجود مثل هذه الأنشطة. وهو ما تمخض عنه ما عرف بالبروتوكول الإضافى لـ «اتفاقية الضمانات» الموقعة بين كل طرف فى المعاهدة والوكالة الدولية للطاقة الذرية. وهذا البروتوكول الإضافى، لا يمكن فرضه على أطراف المعاهدة، فلابد من أن يوافق عليه الأعضاء بمحض



الـــوكـــالـــة والجـــائـــزة

اختيارهم، كالتزام جديد من جانبهم، ولكن بمجرد موافقة أى دولة على هذا البروتوكول يصبح ملزما لها مثل الوثيقة الرئيسية أى اتفاقية الضمانات التى وقعتها هذه الدولة مع الوكالة الدولية للطاقة الذرية وفقا لمعاهدة منع الانتشار.

وتتردد حاليا كثير من الدول فى الانضمام لهذا البروتوكول، لأنها ترى فيه تدخلا مغالى فيه فى شئونها الداخلية، ولكن بدأت بعض الدول الموردة للتقنية النووية تخطط وتردد بأنه لن يكون هناك تعاون دولى بينها وبين الدول المتلقية للتقنية بدون الانضمام لهذا البروتوكول الإضافى.

وأعتقد أنه من التحديات الكبيرة التى تواجه الوكالة الدولية للطاقة الذرية فى المرحلة القادمة، وبالذات بعد حصولها على جائزة نوبل للسلام هو العمل على إقناع الدول التى لم توقع بعد على هذا البروتوكول الإضافى، القيام بذلك قريبا.

أما عن التحديات الأخرى والتى نتابعها عن كثب، فهى خاصة بانتهاكات من جانب بعض الدول لالتزاماتها بمعاهدة منع انتشار الأسلحة النووية، وخاصة مشكلتى إيران وكوريا الشمالية.

وأعتقد أن لجنة نوبل بمنح جائزتها للسلام للوكالة والدكتور محمد البرادعى، لم تكن تقصد فقط مكافأتهما على دورهما فى معالجة هاتين الأزمتين حتى الآن(ودون أن ننسى العراق) ولكنها أيضا تتوقع منهما دورا أكبر فى إيجاد مخرج سلمى لهما.

وكما نعلم إيران لم تبلغ الوكالة بأنشطتها فى مجال إنتاج اليورانيوم المثرى، وبالتالى انتهكت التزاماتها بمعاهدة منع الانتشار. هذا وإن كانت قد كشفت الآن عن بعض هذه الأنشطة، إلا أنها لا تريد أن تتخلى عن حقها فى ممارسة هذه الأنشطة التى لا تحرمها معاهدة منع الانتشار. فإثراء اليورانيوم من الأنشطة التى تسمح بها المعاهدة إذا كانت للأغراض السلمية، ولكن بعض الدول المصدرة للتقنية النووية تود حظر هذه الأنشطة واحتكارها لنفسها خوفا من استخدام هذه التقنية فى إنتاج الأسلحة النووية، كما تحرم أيضا الاستثمار فى إنتاج البلوتونيوم، أو ما يسمى بإعادة معالجة الوقود المستنفد لاستخراج البلوتونيوم، كما أنها أضافت إلى قائمة الممنوعات تقنية تصنيع المياه الثقيلة التى تستخدم فى مفاعلات الأبحاث التى تعمل باليورانيوم العادى كوقود.

والقضية بين إيران والغرب ما زالت محل شد وجذب والجميع يتوقع من الوكالة ومديرها العام الحنكة السياسية والدبلوماسية لإيجاد مخرج سلمى لهذه الأزمة فى القريب العاجل.

أما عن قضية كوريا الشمالية، فهى - بدون الدخول فى تفاصيل عديدة - عبارة عن دولة طرف فى معاهدة منع الانتشار لم توقع اتفاقية الضمانات (التفتيش) مع الوكالة الدولية للطاقة الذرية خلال المهلة التى حددتها المعاهدة، واستمرت فى المماطلة والمراوغة مع الوكالة لفترة سنوات طويلة دون الكشف عن أنشطتها النووية التى ستخضع للتفتيش. وعندما ازداد ضغط الوكالة عليها بعد اكتشاف أنشطة خفية، وكذلك من جانب دول أخرى كالولايات المتحدة، قررت الانسحاب من المعاهدة عام ٢٠٠٣، على الرغم من الجهود التى بذلتها مجموعة سداسية تأسست خارج الوكالة هى (الولايات المتحدة ـ اليابان ـ الصين ـ روسيا ـ كوريا الشمالية ـ كوريا الجنوبية) لإيجاد مخرج للأزمة، وقد طالعتنا الأنباء خلال شهر سبتمبر الأخير باحتمالات لانفراج الأزمة بعودة كوريا الشمالية للانضمام لمعاهدة منع الانتشار كطرف بها، وبحصولها على مفاعلات نووية للاستخدامات السلمية كطلبها، بالإضافة إلى ضمانات أخرى ستوفرها الولايات المتحدة، ولكن ما زالت كل هذه الأمور معلقة، ولم تعد بعد كوريا الشمالية إلى حظيرة منع الانتشار. هنا أيضا فى تصورى تتوقع لجنة نوبل أن يكون للوكالة الدولية للطاقة الذرية دور ما فى إعادة كوريا الشمالية لهذه الحظيرة، ووضع جميع منشآتها النووية تحت الرقابة الدولية.

إن استقرار الأوضاع فى كل من إيران وكوريا الشمالية لاشك ستكون له آثاره الإيجابية على جنوب آسيا حيث بزغت قوى نووية جديدة، أى الهند والباكستان، وكذلك على منطقة الشرق الأوسط حيث إسرائيل وقدراتها النووية العسكرية التى تشكل تهديدا خطيرا لأمننا، بل وتحديا كبيرا للوكالة الدولية للطاقة الذرية ومديرها المصرى د. محمد البرادعى الذى يدعو الآن لعقد مؤتمر أمن إقليمى لتحقيق الأمن والاستقرار فى المنطقة، ويبحث فى إطاره الخطر النووى. ويتصل بهذا الشأن ما تعكف عليه جامعة الدول العربية منذ سبع سنوات أو أكثر من إعداد مشروع معاهدة لإنشاء منطقة خالية من أسلحة الدمار الشامل فى الشرق الأوسط لم يخرج بعد من أدراج الجامعة.

أعود مرة أخرى لمهمة الوكالة فى تشجيع الاستخدامات السلمية للطاقة الذرية تحت الرقابة الدولية الفعالة والتى أطلنا فى شرح مغزاها ومقوماتها، إذ تجد سكرتارية الوكالة الدولية للطاقة الذرية نفسها فى حرج بالنسبة للأزمة الإيرانية إذ أن تشجيع الاستخدامات السلمية لم يستثن أى جانب من جوانب المعرفة فى تطوير الإمكانات والتقنيات النووية للأغراض السلمية، ولكن فى قضية إيران اشترطت الولايات المتحدة والدول الأوروبية الثلاث التى تتفاوض معها (بريطانيا ـ ألمانيا ـ فرنسا) أن تجمد إيران تماما بل وتتخلى عن أنشطة إثراء اليورانيوم- خاصة أنها حاولت إخفاء هذه الأنشطة-، وهو ما ترفضه إيران الآن بعدما وعدت من قبل أن تجمدها.

وفى الحقيقة، إن المفاوضات الجارية مع إيران فى هذا الشأن تهمنا فى منطقتنا وتهم الوكالة من زاويتين.



الزاوية الأولى، أن أى اتفاق يتم التوصل إليه فى موضوع حق إيران من عدمه فى إثراء اليورانيوم، وكذلك بالنسبة للضمانات التى ستقدم لإيران لإغرائها بالتخلى عن هذا الحق مثل ضمانات الإمداد بالوقود النووى الذى تحتاجه إيران لمنشآتها النووية، لاشك سيكون لها تأثير مباشر على الدول الأخرى التى لا تتمتع بأى ضمان بالإمداد، حيث فشلت فى الماضى لجنة ضمان الإمداد بالوكالة الدولية للطاقة الذرية فى التوصل لمبادئ معينة تحكم ضمان الإمداد بالوقود النووى بسبب معارضة الدول المصدرة للتقنية لهذه المبادئ، بل فشل المؤتمر الدولى لتشجيع الاستخدامات السلمية للطاقة النووية عام ١٩٨٧ والذى أشرت إليه فى بداية المقال - فى التوصل إلى مثل هذه المبادئ بسبب معارضة الدول المصدرة للتقنية وخاصة الولايات المتحدة، وذلك لأنها لا تريد أن تلتزم بشىء يقيدها فيما بعد.

وبالتالى أقول أن أى اتفاقية تتوصل إليها إيران مع الدول المصدرة للتقنية هو موضوع يهم الجميع، بما فى ذلك دول منطقتنا ولابد أن يؤخذ رأى الجميع فى هذا الاتفاق ومن خلال الوكالة لتطمئن نفسها أن هذا الاتفاق لن يصادر على ما نطالب به من مبادئ ومعايير بل وقواعد تحكم موضوع الإمداد بالمواد النووية.

أما الزاوية الثانية، والتى تعنينا فى المقام الأول فى الشرق الأوسط والتى يمكن للوكالة أن تلعب فيها دورا هاما، فهى مقايضة تخلى إيران عن إثراء اليورانيوم - إذا ما استقر الأمر على ذلك - بتنازل إسرائيل عن نفس الشىء كقسط أول أو كدفعة أولى فى طريق لا نتوقع أن يكون قصيرا للتخلى عن برنامجها النووى العسكرى والانضمام لمعاهدة منع الانتشار وكذلك لمنطقة خالية من أسلحة الدمار الشامل فى منطقتنا. وقد طالبت الدول العربية أكثر من مرة فى إطار عمل الوكالة الدولية ومؤتمراتها بأن ترسم لنا الوكالة الطريق أيضا بالنسبة للجوانب الفنية والرقابية لإنشاء المنطقة الخالية وهو تحد آخر للوكالة فى المرحلة المقبلة.

فى النهاية، تحاول الوكالة أن توازن بين دورها فى تشجيع الاستخدامات السلمية للطاقة النووية بموارد محدودة تعتمد أساسا على ميزانية الوكالة، بالإضافة إلى مساهمات اختيارية من جانب الدول الأعضاء، وبين الإنفاق الكبير على نظم الرقابة على الأنشطة النووية للدول لضمان أنها لا يساء استخدامها فى غير الأغراض السلمية.

مرت الوكالة بسنوات عجاف، وبميزانية سنوية تنمو بمعدل نمو صفرى - ولكن الوكالة تعدت هذه المرحلة، وحققت نموا أكبر فى ميزانيتها، وكل ما نرجوه أنه فى ظل هذه الثقة الكبيرة فى دور الوكالة فى صنع السلام والمحافظة عليه، نرجو أن يوفر لها الأعضاء إمكانات مادية اكبر تزيد من ثقتنا فى قدراتها على الاستمرار فى مهامها وفى مواجهة التحديات الحالية والمستقبلية. وفى هذا الشأن، لابد أن نحيى ما بدر من الوكالة ومن د. محمد البرادعى من استعدادهما تخصيص الجائزة المالية التى منحتها لهما لجنة نوبل للارتقاء بالمساعدات والمعونة الفنية التى توفرها الوكالة لأعضائها ـ وبالذات الدول النامية ـ من أجل النمو والرخاء والسلام. ■

فهمى هويدى

رحلة إلى

■■ هذه بلاد التتر أخيراً، التى طالما أثارت فضولى كلما زرت روسيا، ذلك أننى ما لقيت فى موسكو ناشطاً مسلماً إلا واكتشفت بعد حين أنه من التتر، الأمر الذى بدا متناقضاً مع الصورة السلبية لهم الكامنة فى الذاكرة العربية والإسلامية. وهم الذين لم يذكرهم مؤرخونا القدامى بخير، حتى أن ابن الأثير ما أشار إلى اسمهم مرة إلا وألحقه بعبارة: قبحهم الله تعالى!

مرافقى إلى المطار قال إنه حين ذهب إلى العمرة عرف من حوله بأنه روسى، فجاءه السؤال مباشرة: شيشانى؟ (باعتبار أن العرب يظنون أن كل المسلمين فى روسيا شيشانيون، فى حين أن عددهم مليون فقط، ومسلمو روسيا ٢٤ مليوناً). وإذ أبلغ سائله بأنه تترى، فإنه رفع حاجبيه وتمتم قائلاً: أنتم من سلالة أصحاب المقتلة العظيمة فى بغداد.

القصة ذاتها سمعتها بروايات مختلفة من أكثر من واحد، بعد وصولى إلى «قازان» عاصمة جمهورية تترستان. وهو ما فسر لى حرص المرافقين على استعراض تاريخ التتر، فيما بدا أنه محاولة غير مباشرة لإعلان البراءة مما فعله هولاكو وجيشه ببغداد وأهلها قبل أكثر من سبعة قرون. وهو ما بدا لى مفاجئاً ومفيداً فى الوقت ذاته. ووجه المفاجأة فيه أننى لم أكن أعلم أن سكان البلاد ليسوا تتراً فى الأصل، ولكنهم ينحدرون من قبائل الأتراك والويغور الذين هاجروا منذ وقت مبكر إلى هذه الأرض، قادمين من أنحاء مختلفة من آسيا، واختلطوا بالسكان المحليين الذين ينتمون إلى القبائل الفنلندية، وأقاموا معهم مملكة البلغار. الأمر الذى يعنى أنهم فى حقيقة الأمر بلغار وليسوا تتراً.

لاحظ إلنور زاريبوف مدير مكتبة الجامعة الإسلامية علامات الاهتمام والدهشة على وجهى فتوقف لحظة ثم قال بلغة عربية سليمة تعلمها من دراسته فى ليبيا أن عاصمة تلك المملكة تقع على بعد ٥١٢٠ كيلو متراً من قازان واسمها بلغار أو بولغار، وإليها نسب النهر فأصبح اسمه فولجا. ولم يبق من آثار العاصمة القديمة سوى قلعة وبئر يتبرك العامة بها. ثم ضحك وهو يقول إن أحد المتعالمين أفتى يوماً ما بجواز الحج إلى مكان القلعة والبئر، بدلاً من تكبد مشقة السفر إلى مكة والمدينة للطواف والشرب من ماء زمزم!

أضاف أن المغول التتر استولوا على بلاد البلغار وأخضعوها لدولة القبيلة الذهبية التى أسسوها فى القرن الثالث عشر (الميلادى). فما كان من جيرانهم الروس إلا أن أطلقوا وصف التتر على كل الشعوب والقبائل التى اعتنقت الإسلام وخضعت لتلك الدولة. وكانت القوميات التركية التى سكنت البلاد ضحية ذلك التعتيم وعن الروس نقل الجميع، حتى لم يعد للبلغار ذكر إلا فى كتب التاريخ، وتعين على أهل البلاد أن يقبلوا بالخطأ الشائع، وأن يخاطبوا من حولهم بحسبانهم تتراً، رغم أنهم فى أعماقهم غير مقتنعين بصواب التسمية.

سألنى مدير مكتبة الجامعة عما إذا كانت هذه أول زيارة إلى «قازان»، وقبل أن أرد قال فاتنى أن أذكر أن الكلمة معناها «القدر» فى اللغة التركية، لأن المنطقة التى بنيت فيها المدينة كانت تشبه القدر. ومن الباحثين من يقول بأن الكلمة من جزءين هما «قاز» و«ان»، وفى البلغارية



منظر عام لقازان فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر، وقد هدمت المساجد وظهرت الكنائس

رنت كلمة «الجاهلية» فى أذنى حين سمعتها منه لأول مرة، وعندما سألته عن مدلولها قال إن سبعين عاماً على الأقل من محاولة محو العقائد والترويج للإلحاد لا يمكن أن توصف بأقل من ذلك



القديمة فإن كلمة «قاز» كانت تستعمل بمعنى «الحدود»، الأمر الذى يعنى أن قازان ربما أريد بها بداية الحدود. وهى كانت كذلك فعلاً لأنها اعتبرت ركيزة الحصون الشمالية لمملكة البلغار.

من الجاهلية إلى الإسلام

كانت زيارة الجامعة الإسلامية ومكتبتها أول فقرات برنامج الزيارة، وبعد جولة فى كليات الجامعة (الشريعة وعلوم الدين والقرآن)، قصدنا مكتب رئيسها الذى هو مفتى تترستان فى الوقت ذاته. وفاجأنى المفتى عثمان حضرت بقوله أن ثمة مناسبة مهمة خارج قازان يجب ألا يفوتنى حضورها. سألت عن المناسبة فقال إنه افتتاح لمسجد. أيضاً قبل أن أرد وجدته يقول: سنمر عليك بالفندق غداً فى السابعة صباحاً.

فى الموعد التقطتنى السيارة من أمام فندق «بلغاريا» الذى أقمت فيه. لم أميزها لأول وهلة، توقعتها «لادا» أو «فولجا» على أحسن الفروض، أو هكذا صورها لى وعيى الروسى التقليدى، لكن السائق حين لوح لى وجدتها «فولكس فاجن» من أحدث طراز، وقد جلس فى مقعدها الخلفى «عثمان حضرت» متحللاً من عمامته المهيبة وعباءة المفتى التى لا تفارقه.

ملحوظة: فى البداية لم أستسغ التسمية، لكنى وجدت الجميع ينادون الشيخ عثمان اسحاقوف على ذلك النحو، وفهمت أنها تعنى عثمان المحترم أو المبجل، وهو أقل ما يوصف به مفتى جمهورية تترستان، وبعد أيام قليلة من وصولى إلى قازان اعتدت على الأمر، وصرت أناديه بدورى: عثمان حضرت.

تحمست لحضور افتتاح مسجد أعيد بناؤه فى بلدة «بوا» (معناها السد) التى تبعد ١٥٠ كيلو متراً عن قازان، ليس فقط لأن حدثاً من ذلك القبيل فى روسيا الجديدة جدير بالمشاهدة، ولكن أيضاً لأن رحلة الساعتين إلى بوا تتيح لى فرصة الانفراد بالمفتى، الذى لا يكف عن الحركة والتنقل طول الوقت، وإذا كان ساكناً فإن الهاتف النقال الذى يحمله لا يكف عن الرنين. إذ ليس سهلاً أن يكون المرء مفتياً فى جمهورية تضم حوالى أربعة ملايين شخص (أكثر من نصفهم مسلمون والباقون من الروس) وللناس فيها مشاكل بلا حصر، خصوصاً الذين صاروا يعودون إلى دينهم أفواجاً، بعدما تجاوزوا رحلة «الجاهلية» وانتقلوا إلى رحلة الإسلام.

رنت كلمة «الجاهلية» فى أذنى حين سمعتها منه لأول مرة، وعندما سألته عن مدلولها قال إن سبعين عاماً على الأقل من محاولة محو العقائد والترويج للإلحاد لا يمكن أن توصف بأقل من ذلك. وما حدث فى العصر الإسلامى الأول حين كان يدخل فى الإسلام فرد من الأسرة - الزوج أو الزوجة مثلاً - بينما يبقى الآخرون على شركهم. هذه الصورة تتكرر بحذافيرها الآن. إذ أن كثيرين باتوا يلجأون إلينا سائلين ما العمل؟. ونحن ننصحهم دائماً بالصبر وعدم المسارعة إلى إيقاع الطلاق وتدمير البيوت. ونقول إن على الطرف الذى عاد إلى الإسلام ألا يفقد الأمل فى هداية الطرف الآخر، وقد يكون مثل الخلق المضروب إذا اعترف بحسن المعاشرة سبيلاً إلى تلك الهداية.

بلاد التتار







حتى عام ٩٢ كان فى كل جمهورية تترستان ١٩ مسجداً لا غير، أما الآن فلدينا ١٢٠٠ مسجد مسجل وفى قازان العاصمة الكبيرة لم يكن فيها سوى مسجد واحد، الآن بها ٣٩ مسجداً

تنبهت إلى أننى استسلمت للفضول بسرعة، الأمر الذى صرفنى عن ملاحظة المطر الذى ظل يهطل طول الوقت حتى أغرق نوافذ السيارة. وحجب عنى رؤية الحقول الممتدة والواسعة المزروعة قمحاً وذرة وخضراً، وإن ظلت شاخصة فى الأفق أشجار البلوط الشاهقة مثل طابور لا نهائى من العمالقة اصطف على الجانبين. فسرت وفرة الأشجار ظاهرة البيوت الخشبية التى ما برحت تتراءى لنا على الطريق بين الحين والآخر، وعلمت لاحقاً أنهم يفضلونها لأنها أبرد فى الصيف وأدفأ فى الشتاء.

حينما فقد المجتمع روحه

كنا فى يوم أحد، الذى هو عطلة رسمية فى روسيا. ولهذا يفضل المسلمون أن يفتتحوا مساجدهم فيه، كى يتيحوا لأكبر عدد ممكن من الناس أن يشاركوا فى الاحتفال بالمناسبة. دعك من المفارقة فى الموضوع. فيوم الجمعة لا يزال محتفظاً بمكانته الرفيعة، ولكن الاعتبارات العملية لا أكثر هى التى فرضت إعطاء الأولوية لافتتاح المساجد يوم الأحد. وبسبب ذلك الحرص فإن المفتى لم يعد يستمتع بأى عطلة، لسبب بسيط هو أنه منذ سقط النظام الشيوعى، وتنفس المتدينون الصعداء، فإن المسلمين دخلوا فى سباق مع الزمن لاستعادة هويتهم الدينية، التى كانت المساجد رمزاً لها، وبعدها المدارس الدينية، ثم المطاعم التى تقدم اللحم الحلال (ذلك كله كان محظوراً فى الماضى).

حتى عام ٩٢ كان فى كل جمهورية تترستان ١٩ مسجداً لا غير، أما الآن فلدينا ١٢٠٠ مسجد مسجل وفى قازان العاصمة الكبيرة لم يكن فيها سوى مسجد واحد، الآن بها ٣٩ مسجداً وهناك عشرة تحت البناء و٣٠٠ لم تسجل بعد. هكذا قال عثمان حضرت، ثم أضاف: المسجد هو «روح» المجتمع الإسلامى فى روسيا، وحين هدم القياصرة مساجدنا حيناً من الدهر، ثم جاء البلاشفة وواصلوا هدم المساجد وإلغاء وظيفتها. استشعر المسلمون أنهم أصبحوا بلا روح، ولذلك ما إن سقطت الشيوعية حتى سارعوا إلى استعادة مساجدهم. وهى مسألة لا ترتبط بالضرورة بارتفاع معدلات التدين، لأن نسبة الملتزمين تتراوح بين ٥ - ٧٪ فقط وهى نسبة قليلة حقاً، ولكنها مفهومة فى بلاد ظلت تلقن الناس الإلحاد وتحارب الأديان طول الوقت. ومع ذلك فإن غير الملتزمين يساهمون فى التبرع لبناء المساجد ويحتفلون بها لإدراكهم أن وجودهم يصبح له معنى وقيمة فى وجودها.

توقفت سيارتنا فجأة، بعدما اعترض طريقها بعض رجال الشرطة، الذين طلبوا من السائق فتح النافذة، وفى ثوان كانت أكثر من رأس تتفرس فى وجوهنا، ويبدو أن أحدهم لاحظ عمامة المفتى، فتراجع ثم هز رأسه محيياً، وأذن للسائق بمواصلة السير، من باب الفضول سألت: هل هى إجراءات أمن، أم تفتيش على الأوراق ورخص السير. فرد عثمان حضرت ضاحكاً: لا هذه ولا تلك، ولكنهم يريدون التأكد من أن السائق ومن معه ليسوا مخمورين، لأن حوادث السير بسبب الإفراط فى شرب الفودكا أصبحت تمثل ظاهرة خطرة، كانت موجودة حقاً منذ المرحلة الشيوعية، لكنها تفاقمت الآن بعدما حدث الانفتاح على العالم الغربى، الأمر الذى ضاعف من فرص الانحراف والضياع. ثم تنهد وقال: المشكلة تهدد المجتمع الروسى لا ريب، ولم يسلم المسلمون من آثارها. لأن أبناء المسلمين أكثرهم يهاجر من القرى بحثاً عن العمل فى المدن، وهناك يتعرضون لما يتعرض له غيرهم من غواية وتفلت. وذلك يحمل المشتغلين بالعمل الإسلامى مسئولية تحيرهم كثيراً، لأنهم يصبحون مطالبين بتحصين أولئك الشباب لإنقاذهم من الانحراف، بينما هم تائهون فى المدن الكبيرة بعيداً عنهم وعن أهلهم.

لاحظت تمكنه من الفصحى فسألته أين تعلمها، فقال: إن أباه تمنى له أن يصبح إماماً، فأرسله فى السبعينيات إلى المدرسة الدينية الوحيدة فى بخارى (كانت تحت الإشراف المباشر للمخابرات السوفيتية). وهناك تعلموا بعض مبادئ اللغة العربية وحفظوا بعض سور القرآن، دون أن يفقهوا شيئاً مما حفظوه. ضحك عثمان حضرت وهو يقول: كنا نردد: قلب يقلب انقلاباً، ثم نقرأ فى القرآن: إنا إلى ربنا منقلبون. ولم نكن نفهم منقلبون كيف؟!. وهو ما فهمه واستوعبه لاحقاً حين سافر للدراسة فى ليبيا، ضمن مجموعة توزعت وقتذاك على بعض دول المغرب العربى.

انتهزتها فرصة وسألته عما سمعته عن اعتقال بضع عشرات من الشباب التترى سافروا إلى السعودية فى بداية التسعينيات، وعادوا يرددون مقولات الفكر السلفى المتشدد، التى دعت إلى تكفير الآخرين. فى رده قال إن هؤلاء أساءوا التقدير إلى حد بعيد، ففى حين كان الناس بعد سقوط الشيوعية يعودون إلى الإسلام ويشهدون أن لا إله إلا الله، فإن هؤلاء جاءوا ليخرجوهم من الملة، وقد دخلوا لتوهم فيها أو هموا بذلك. وأسوأ من هؤلاء جماعة أخرى تبنت أفكار حزب التحرير الداعية إلى البدء بإقامة الخلافة. بعضهم درس فى الأردن والبعض الآخر نقل الأفكار التى روج لها بعض الفلسطينيين والأردنيين فى طشقند. ووجود هؤلاء وهؤلاء فى قازان وما حولها كان لابد أن يسبب إزعاجاً لسلطات الأمن، فاعتقلت أعداداً منهم (ما بين ٢٠ و ٣٠ شخصاً)، ثم أفرجت عنهم فى وقت لاحق.

مفت.. ورجل أمن أيضاً!

لاحظت أن السائق هدأ من السرعة فى حين استعاد المفتى عمامته ووضعها فوق رأسه، ثم توقفت السيارة على جانب من الطريق، ظهر فيه أحد الأئمة وإلى جواره ضابط شرطة كانا يحتميان من المطر بمظلة كبيرة.. حياهما حضرت عثمان ثم عاد إلى مقعده وهو يقول مستعيداً روحه المرحة: فى الماضى كان الإمام هو رجل الأمن، واختلفت الصورة الآن ليس فقط بانفصال الإمامة عن الأمن. ولكن بوقوف الاثنين تحت المطر لتحية المفتى على الطريق. وإذ استعاد ملامحه الجادة فإنه قال: فى تترستان بوجه أخص علاقتنا طيبة مع السلطة وممثليها، ورغم أن أغلب المسئولين الكبار تتريون من الشيوعيين السابقين (رئيس الجمهورية كان السكرتير الأول للحزب الشيوعى فى قازان)، إلا أنهم يتعاونون معنا فى كل مشروعاتنا. فى بناء الجامعة الإسلامية إلى بناء المساجد. وخروج ضابط الشرطة إلى جانب الإمام لاستقبالنا على الطريق فى الجو الممطر إشارة تعبر عن هذا المعنى.

بعد قليل كنا فى مكتب المحافظ أو الوالى، الذى كان بدوره تترياً مرحاً وشيوعياً سابقاً. أقام الرجل وليمة إفطار معنا ثم اصطحبنا إلى بلده بوا، ولم ينس أن يلتقط وهو خارج من مكتبه غطاء الرأس المصنوع من القطيفة السوداء، الذى هو جزء من الزى التترى التقليدى. اصطحبنا فى سيارته التى كانت يابانية (تويوتا) من ذوات الدفع الرباعى، مجهزة بهاتف وشاشة للتليفزيون. اخترقت السيارة طرقاً ضيقة غطتها الأوحال، حتى وصلت إلى مكان مرتفع. لاحت فوقه مئذنة المسجد وقبته الخضراء. همس فى أذنى عثمان حضرت قائلاً: المسجد عندنا يجب أن يقام فى أعلى مكان. لأن التتار يعتبرون أن بيت الله يعلو فوق بيوت البشر.

لم أفاجأ بالزحام الذى أحاط بالمسجد رغم المطر. لكننى فوجئت بأشياء أخرى كثيرة. فأغلب الموجودين كانوا من كبار السن والأطفال. الشباب كانوا قلة، وأبناء البلدة الذين يعملون خارجها توافدوا عليها فى يوم العطلة كى يشهدوا الحدث السعيد. كل واحد جاء بهدية إلى المسجد، وكذلك فعل الأهالى. أكثر من واحد حملوا معهم بسطا مختلفة الأحجام والألوان. واحد جاء معه بمروحة للسقف، آخر تأبط صورة كبيرة للكعبة، الثانى رفع فوق الرؤوس مصحفاً جاء به ملفوفاً فى قطعة من القماش الأخضر،



البرج إلى جوار الكنيسة التى بنيت فوق المسجد

الثالث احتضن أصيصات الزرع، الرابع لوح بساعة للحائط، الخامس حمل كيساً به بعض النعال التى يحتاجها رواد المسجد للوضوء.. إلخ. ومن لم يأت بهدية وزع على الجالسين ما تيسر من المال، من باب الصدقة. المحافظ جمع بين الحسنيين، فأهدى المسجد بساطاً كبيراً، ونفح الأئمة كل واحد ألف روبل، تعادل ٣٥ دولاراً. وقد ارتبكت حين دس فى يدى ورقة بتلك القيمة، احترت ماذا أفعل بها. ولكن المفتى لاحظ المفاجأة على وجهى، فتدارك الموقف، وهمس فى أذنى قائلاً: لا تقلق، فهذا تقليد شائع، والفلوس سنودعها خزينة المدرسة القرآنية فيما بعد.

لماذا فعلتموها.. أيها الأغبياء

ألقيت كلمات تقليدية من المفتى والمحافظ والإمام، لكن كلمات ثلاثة من المتحدثين هزتنى أكثر من أى شىء آخر. الأولى لرجل اسمه الشيخ علم الله، الذى قام بالدور الأساسى فى جمع التبرعات لبناء المسجد، الذى هدمه الشيوعيون، وقال فيها إنه ظل يحلم بإتمام البناء طيلة السنوات العشر الماضية، ولم يصدق عينيه حين وجد القبة اعتلته والمئذنة انتصبت فوقه. وغلبه البكاء وهو يتحدث فبللت وجهه وبياض لحيته. وقال لى المفتى إن الشيخ علم الله نذر نفسه بعدما دخل فى الإسلام لإعادة بناء المساجد المهدمة، وحتى الآن قام بالدور الرئيسى فى بناء عشرة مساجد (ألا يستحق الرجل جائزة الملك فيصل لخدمة الإسلام؟).

الثانى لم يلق كلمة، ولكنه طلب أن يقرأ على الحضور بعضاً من آيات القرآن الكريم، التى حفظها إياه أبوه نقلاً عن جده. وقيل لنا إن الرجل - اسمه رفعت - حفيد للشيخ جار الله، الذى كان آخر إمام للمسجد، قبل هدمه فى عام ٥٥. بصوت واهن ومرتعش وبقراءة بدت غريبة على الأسماع، تلا علينا الرجل ما تيسر من الآيات. وسط الصمت الذى ران على إيقاعه. وحين سكت كانت الدموع قد سبقت صوته، فكفكفها ولم يقم من مقعده.

المتحدث الثالث كان سيدة مسنة، غطت رأسها بخمار أبيض، وقدمت إلينا بحسبانها شاهدة عاشت مع زوجها لحظات هدم المئذنة. ألقت السيدة جولجهان بنت أحمد جان قصيدة من الشعر، وجهت كلماتها إلى الذين هدموا المسجد، وقالت فيها: لماذا فعلتموها أيها الأغبياء، فمنذ هدمت المئذنة أظلمت الدنيا فى بوا، فلم تطلع لها شمس، ولم تر فى سمائها نجمة مضيئة.

بعد انتهاء مراسم الافتتاح وزعت علينا المشروبات وتبادل الجميع التهانى، وحين أذن لصلاة الظهر استأذن المحافظ فى الانصراف، بعدما أدى واجبه إزاء الجامع. وبعد الصلاة حملتنا السيارة «الفولكس» إلى قازان مرة ثانية.

فى الطريق قال لى عثمان حضرت إن ما رأيناه فى «بوا» مشهد يتكرر كل أسبوع فى أنحاء روسيا كلها. فبناء المساجد كان أول ما اتجه المسلمون إلى استعادته بعد انهيار النظام الشيوعى. وما عبرت عنه السيدة جولجهان فى هذا الصدد - حين قالت إن الدنيا أظلمت بعدما هدمت مئذنة المسجد - يعكس بصدق شديد مشاعر كل المسلمين فى البلاد. إزاء ذلك فليس مستغرباً أن يصل عدد المساجد فى روسيا الاتحادية وحدها إلى ٧٢٠٠ مسجد (فى منتصف عام ٢٠٠٥)، فى حين أن عددها عام ١٩٩٠ فى كل الاتحاد السوفيتى - بما فى ذلك جمهوريات آسيا الوسطى - لم يكن يتجاوز ٩٨ مسجداً.

موضوع استعادة المسلمين لهويتهم الدينية فرض نفسه على مناقشة أجريتها مع مجموعة من أساتذة الجامعة الإسلامية (أنشئت فى عام ١٩٩٨م). أحدهم صاغ الموقف على نحو لم يعترض عليه أحد، كان كالتالى: ما جرى بمثابة نقلة هائلة فى تاريخ مسلمى الاتحاد السوفيتى بوجه عام، ومسلمى روسيا الاتحادية بوجه خاص، ومسلمى تترستان بوجه أخص، حين طلبت إيضاحاً لهذا المنطوق شرحه الدكتور سليمان زاريبوف وكيل الجامعة على الوجه التالى: سقوط الحكم الشيوعى وطى صفحته كان لابد أن يقابل بحفاوة شديدة من جانب كل المتدينين، المسلمين وغيرهم. ولذلك لا غرابة فى أن يعد منعطفاً تاريخياً فى حياة مسلمى روسيا وجمهوريات آسيا الوسطى. أما كونه يمثل أهمية خاصة بالنسبة للمسلمين الروس، فمرد ذلك إلى أن مجتمعات آسيا الوسطى ذات أغلبية مسلمة، ولذلك فالتجانس قائم بين شعوبها بدرجة أو أخرى. فضلاً عن أن سقوط الشيوعية أعاد إليها هويتها الدينية وهويتها القومية أيضاً. فالأوزبك أو الطاجيك أو التركمان أو الأذريون عادوا كما كانوا. أما بالنسبة للمسلمين الروس فوضعهم مختلف إلى حد ما. لأنهم أقلية فى مجتمع أغلبيته من الأرثوذوكس، ثم إن هويتهم القومية صارت مركبة منهم تتر وروس فى آن واحد. أو داغستانيون أو بشكيريون أو شيشانيون وأنجوش، وروس أيضاً. وهذا التداخل على المستويين الدينى والقومى يمثل حالة خاصة، ويواجه تحدياً فى صيغة التعايش، إذا تم تجاوزه بنجاح فإن النموذج المضروب يغدو حدثاً سياسياً وحضارياً له أهميته البالغة.

أما خصوصية وضع المسلمين التتار فنابعة من أن التتر يمثلون أكبر كتلة إسلامية فى روسيا (٩ ملايين من بين ٢٤ مليون مسلم يمثلون ١٨٪ من مجموع سكان روسيا البالغ عددهم ١٣٠ مليون شخص)، ثم إنهم فى العصور القديمة كانوا سادة تلك البلاد، وكانت لهم حواضرهم الغنية وثقافتهم الرفيعة التى دمرت مرتين، مرة على عهد القياصرة فى منتصف القرن السادس عشر ومرة ثانية فى ظل الشيوعية فى منتصف القرن العشرين. الأمر الذى أحدث جرحاً كبيراً وغائراً فى كبريائهم القومى. وفى عهودهم المتعاقبة ظلت خانية قازان لؤلؤة فى جبين التتارونداً قوياً للروس ظل يقارع حواضرهم ويتفوق عليها. وحتى فى المرحلة الشيوعية فإن ألق قازان لم يفقد فرادته.



تحقيق فى ميلاد قازان

قازان الراهنة ظل باهت لقازان التاريخية. لذلك فإذا أردت أن تعرف قدرها حقًا فينبغى أن تدخل إليها من باب التاريخ، وهو ما بذلنا جهدًا كبيرًا لتحقيقه. هكذا قال الدكتور سليمان زاريبوف. لم تكن المعلومة جديدة علىّ. فقد كنت أعلم أن النخب التترية شغلتها مسألة الهوية القومية منذ أوائل التسعينيات، بعد انهيار الاتحاد السوفيتى واستقلال جمهوريات آسيا الوسطى. وفى هذه الأجواء برزت فكرة توثيق تاريخ قازان، الذى اندثر جزء منه فى ظل الحكم القيصرى الروسى، وطمس واندثر جزء آخر فى ظل الشيوعية. هكذا، فإنه منذ نالت جمهورية تترستان استقلالها فى عام ١٩٩٢، فإن عمدة المدينة كامل اسحاقوف أراد أن يحتفل بتاريخها العريق، وخاطب فى ذلك منظمة اليونسكو، التى ردت قائلة إنها لا تسهم فى احتفالات من ذلك القبيل إلا للمدن التى مضى على تأسيسها ألف عام، وما لم يثبت ذلك فلن يكون للمنظمة الدولية دور فى الموضوع.

بسبب ذلك الرد، أرسل العمدة مجموعة من الباحثين نقبت فى مكتبات لندن وباريس وبرلين، بحثًا عن معلومات تسلط الضوء على تاريخ المدينة، لكنهم لم يجدوا من الشواهد إلا ما يدل على أنها كانت قائمة فى القرن الثالث عشر الميلادى، وكانت أهم خلاصة خرجوا بها هى أنهم يجب أن يركزوا بحثهم على ما تحتويه المكتبات العربية والفارسية والتركية. فاتجهت الأبصار صوب القاهرة، التى تضم جامعاتها باحثين على دراسة بما تحتويه تلك المكتبات. وقصدها فى عام ١٩٩٧ مبعوث وجد ضالته فى جامعة عين شمس، حيث اتفق مع أربعة من أساتذة التاريخ على القيام بالمهمة، وكان على رأسهم الدكتور محمد السعيد جمال الدين، أحد شيوخ هذا التخصص. بدأ الفريق عمله على الفور، فأجرى دراسة واسعة فى مختلف المكتبات ودور الوثائق والمخطوطات العربية والفارسية، خصوصًا التى تناولت عصر المماليك، الذين كانت لهم صلات قوية بالمناطق الشمالية، علمًا بأن بعضهم قد استجلب منها أصلاً. أجرى الباحثون دراساتهم فى مصر، وزاروا المواقع المختلفة فى قازان. وشاركوا فى ثلاثة مؤتمرات دولية دعت إليها إدارة المدينة لتحقيق تاريخ المنطقة وتحديد الزمن الذى ظهرت فيه المدينة. وفى مؤتمر دولى كبير عقد فى عام ١٩٩٩ ـ شارك فيه خبراء عشر دول إضافة إلى ممثلى جمهوريات آسيا الوسطى ـ عرض الدكتور جمال الدين نتائج أبحاث وخدمات وتحقيقات فريق العمل، وأصدر المؤتمر قرارًا يقضى بأن مدينة قازان أنشئت فى أوائل القرن العاشر وأوائل القرن الحادى عشر الميلادى، الأمر الذى يؤهلها للاحتفال بتاريخها الألفى مع بدايات الألفية الثالثة. (بالفعل رتب أمر الاحتفال بموافقة منظمة اليونسكو، وعقد فى شهر أغسطس ٢٠٠٥).

كان تقرير مجموعة الخبراء المصريين بين الأوراق التى حملتها معى إلى قازان. كما كانت معى رسالة ابن فضلان. مبعوث الخليفة العباسى المقتدر إلى ملك البلغار ـ التى تتضمن وصفًا لرحلته إلى بلاد البلغار. وهى أندر وأهم وثيقة وصفت الحياة فى تلك البقعة من الأرض قبل أكثر من ألف عام (٣٠٩هـ ـ ٩٢١م). وقد أصدر عنها الأمريكى مايكل كريتون قبل أكثر من عشرين عامًا قصة حققت أعلى معدلات للتوزيع، وترجمت إلى العربية تحت عنوان دال هو «أكلة الموتى».

باتفاق أهل الاختصاص، فإن رسالة ابن فضلان تعد الوثيقة الوحيدة التى عرفت العالم بأوضاع بلاد البلغار فى القرن العاشر الميلادى. وما عنوان «أكلة الموتى» سوى مجرد ضوء يكشف ما كانت عليه الأحوال فى تلك البلاد من تخلف مروع.

من ملك البلغار إلى المقتدر

كان ملك البلغار ـ ألماس خان ـ قد بعث برسالة إلى الخليفة المقتدر العباسى (سنة ٣٠٩هـ/ ٩٢١م) طلب فيها أن يرسل إليه من يفقهه فى الدين. ويبنى له مسجدًا، كما يبنى لمملكته حصنًا يحميه من جيرانه الطامعين. إذ كان الملك يخشى بأس «الخزر» الذين كانت مملكتهم تتاخم الحدود الجنوبية لدولته. وهؤلاء كانوا قد تحولوا إلى اليهودية فى عصر الخليفة العباسى المأمون ـ قبل حوالى ١٠٠ عام فى تنصيب المقتدر ـ ومنذ ذلك الحين أصبحوا يشكلون مصدر تهديد للبلغار.

استجاب الخليفة المقتدر، وأوفد إلى بلاد البلغار بعثة تلبى مطلب مليكهم. وكان الفقيه أحمد بن فضلان أحد أفراد تلك البعثة، الذى عاد وكتب رسالته الشهيرة.

لم يكن الحصن الذى كلفت بعثة الخليفة العباسى بالمساهمة فى بنائه، مجرد قلعة أو برج، لأن التحقيق التاريخى أثبت أن ما أقيم هو مجموعة تحصينات ساعدت على تقوية دفاعات مملكة البلغار، الأمر الذى أسهم فى تأمينها واستقرارها، ومن ثم نهوضها وتحولها بعد عشرين عامًا إلى قوة عسكرية يحسب حسابها فى المنطقة. وهو ما لاحظه المؤرخ الجغرافى العربى السعودى فى كتابه «التنبيه والإشراف»، حين تحدث عن العام ٩٤٤م مشيرًا إلى التطور الذى طرأ على دولة البلغار، حتى أصبحت لها الغلبة على ما حولها. وفى كتاب «حدود العالم» الذى ألف بالفارسية فى سنة ٩٨٥م، ذكر لقوة البلغار الذين كانوا يعيشون فى رغد من العيش ويلحقون بأعدائهم الهزيمة كلما حاربوهم. وفى سنة ١٠٥٣م حين ألف المؤرخ الفارسى الكرديزى كتابه «زين الأخبار» أدهشته الكمية الهائلة من السلاح التى يمتلكها البلغار، والتقدم التجارى الكبير الذى شهدته بلادهم. وبات معلومًا لدى المؤرخين أنه منذ القرن العاشر كان البلغاريون يسكون النقود من الفضة، ويكتبون عليها مفردات عربية، وكانت لهم صناعاتهم المزدهرة من الذهب والفضة والأحجار الثمينة والجلود والحديد.

المؤرخون الروس شهدوا بهذه الحقيقة، ومن أبرزهم المؤرخ سولوفيوف الذى أشاد بحضارة البلغار، وكتب قائلاً: «فى الأزمنة القديمة، حين كان الإنسان الروسى لم يعرف المسيحية ولم يبدأ بناء الكنائس، كان البلغارى يعبد الله فى مساجد قازان ويستمع إلى القرآن على شواطئ نهر الفولجا».

لم يدم مجد دولة البلغار، لأن جيوش التتار المغول اجتاحتها فى القرن الثالث عشر وضمتها إلى دولة القبيلة الذهبية كما أسلفنا، التى قسمت أقاليمها إلى إمارات أو خانيات، اتخذت إحداها قازان عاصمة لها، وعرفت فى المراجع التاريخية باسم «خانية قازان». وفيها استمرت تقاليد دولة البلغار قوميًا ولغويًا وثقافيًا، الأمر الذى وفر لها قدرة على الصمود والنهوض. وكان ذلك سببًا لإغراء الروس وسعيهم لاحتلالها، بعدما شاخت دولة القبيلة الذهبية.

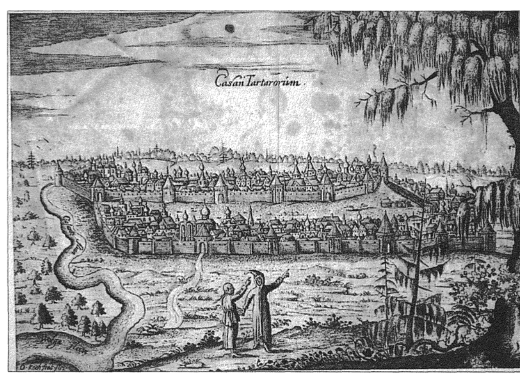
جحافل الروس فى قازان

بعد ٣٢ محاولة للاجتياح، وبعد حصار الروس للمدينة لمدة ثلاثة أشهر فى المرة الأخيرة، سقطت قازان أمام جيوش القيصر إيفان (الرهيب) فى منتصف القرن السادس عشر (عام ١٥٥٢). وكانت تلك بداية إلحاق خانية قازان بالإمبراطورية الروسية. وفى الوقت ذاته بدايات كابوس ثقيل الوطأة روع المسلمين لأكثر من مائتى عام. الأمر الذى أحدث فى بنيتهم الاجتماعية جروحًا عميقة لم تندمل، فى الذاكرة أو الواقع. وهو ما يسوغ لنا أن نقارن بين نكبة البلغار فى العام ١٥٥٢ وبين نكبة الفلسطينيين فى عام ١٩٤٨. إذ القاسم المشترك بينهما يتمثل فى أن قوى عاتية احتلت البلاد ودمرتها ثم استوطنتها، وشردت أهلها فى أنحاء العالم. وكما تركز الفلسطينيون فى بعض الدول العربية (الأردن وسوريا ولبنان)، فإن البلغار الذين جرى تشريدهم تمركزت كتلة منهم فى سيبيريا وكتلة أخرى فى منطقة القرم، بينما انتشرت أعداد منهم فى أنحاء مختلفة من آسيا وأوروبا.

كان الروس قد هدموا أكثر من مائة مسجد فى قازان، وأقاموا ٢٤ كنيسة كبيرة بها، إمعانًا فى إذلال المسلمين وقهرهم. الأمر الذى دفعهم إلى التعبير عن غضبهم فى انتفاضات وقعت بين عامى ١٧٧٣ و١٧٧٥، قادها واحد من زعمائهم اسمه يوغانشيوف. وللأسف فإننى لم أجد معلومات كافية عن تلك الانتفاضة، ولكننى وقعت على إشارة لها فى كتيب حول المسلمين فى روسيا، للدكتور مراد مرتضى مدير الجامعة الإسلامية فى موسكو، وقد وصفها بأنها «عصيان تذكارى». غير أن غضب المسلمين كان دافعًا للملكة كاترينا الثانية لكى تزور قازان التى أبهرتها،

خصوصية وضع المسلمين التتار نابعة من أن التتر يمثلون أكبر كتلة إسلامية فى روسيا (٩ ملايين من بين ٢٤ مليون مسلم يمثلون ١٨٪ من مجموع سكان روسيا البالغ عددهم ١٣٠ مليون شخص)





صورة لقازان تعود إلى ١٦٣٠م

وسمحت لمسلميها ببناء مسجد من الطوب يقيمون فيه صلواتهم، أطلق عليه آنذاك «مسجد أفندى»، وهو لا يزال قائماً إلى الآن، لكنه سمى لاحقاً باسم العالم التترى الكبير شهاب الدين المرجانى، الذى كان إماماً له. وبسبب هذا الموقف للملكة كاترينا ذات الأصول الألمانية فإن المسلمين التتر لا يزالون يكنون لها تقديراً خاصاً. وقد تجلى تسامحها فى ردها على قسس الكنائس التى أقيمت فى قازان، حين بعثوا إليها محتجين على أن المسلمين حين حصلوا على رخصة بناء المسجد، فإنهم أعلنوا عن أنفسهم ببناء مئذنة عالية. إذ قالت فى ردها إننى أعطيتهم حق البناء فوق الأرض التى لى سلطان عليها، أما السماء فليس لى عليها سلطان، فليفعلوا بها ما يشاءون.

بمضى الوقت هدأت بصورة نسبية خواطر أهالى قازان، وبدأ كثيرون منهم يعودون إليها من شتاتهم، كما بدأت المدينة تستعيد عافيتها، حتى برزت كأحد أهم منارات العلم ومعاقله. إذ انتشرت فيها المدارس والمساجد، وأنشئت بها جامعة حكومية فى عام ١٨٠٤ بالتوازى مع عدد من المعاهد والمؤسسات التعليمية فى مختلف التخصصات. ومن المثير للانتباه أن المصحف طبع لأول مرة هناك عام ١٨٠٣، وطبعته القازانية مازالت موجودة إلى الآن، وثمة إحصاء فى الجامعة الإسلامية يقول إن المصحف طبع فى قازان ٢٤٧ مرة، فى الفترة الممتدة من القرن التاسع عشر إلى بداية القرن العشرين. كما أنهم طبعوا كتاباً باسم «هفتيك شريف» تضمن سورة الفاتحة والآيات الخمس الأولى من سورة البقرة، وسورة ياسين وسورة الفتح وبعض قصار السور الأخرى، وهذا الكتاب طبع ٢٦٠ مرة.

وكان طالب المدرسة التترية يتعلم الأحرف العربية فى السنة الأولى، كما كان يتعلم ويحفظ سورة يس. وفى السنة الثانية عليه أن يحفظ كتاب «هفتيك شريف». وفى السنتين الثالثة والرابعة كان يحفظ القرآن كاملاً.

بشكل عام ازدهر تأليف وطباعة كتب الثقافة الإسلامية باللغة التترية، التى كانت تكتب بالحروف العربية (مثل التركية). وطبقاً للمعلومات المتوفرة فى دار الكتب والوثائق فإنه فى الفترة بين القرن التاسع عشر وبداية العشرين، فإن عدد الكتب الإسلامية التى عرفت عناوينها فى تلك الفترة عددها ٩٤ كتاباً، منها ١٩ مؤلفاً فى تفسير القرآن.

الشيوعية: كابوس آخر

عادت الغيوم تلبد سماء قازان مع قيام الثورة الشيوعية فى عام ١٩١٧، وقد كان قائدها فلاديمير لينين أحد الذين درسوا فى جامعتها. ذلك أن أحداث ما بعد الثورة أعادت إلى المسلمين مشاهد الترويع الذى عاشوه بعد احتلال الروس لبلادهم فى عصر القياصرة. إذ هبت عليهم مع الثورة الشيوعية رياح الاستئصال مستهدفة عقيدتهم مجدداً، لصالح الإطار هذه المرة وليس لصالح القيصر كما حدث فى المرة السابقة. وفى الحالتين كانت مساجدهم ومدارسهم وثقافتهم الإسلامية هى الضحية. ولذلك استشعر الجميع أن كابوس ثقيلاً قد انزاح من حياتهم مع سقوط الشيوعية، الأمر الذى جدد أملهم فى استرداد هويتهم الدينية، وكانت المسارعة إلى بناء المساجد والمدارس من تجليات السعى لتحقيق ذلك الأمل.

ماذا عن الهوية القومية؟. سألت أحد مثقفى التتر الدكتور مراد مرتضى رئيس الجامعة الإسلامية فى موسكو. فرد قائلاً: بعد استقلال جمهوريات آسيا الوسطى، ارتفعت أصوات بعض القوميين التتر داعية إلى الاستقلال أيضاً، ولكن هذه الأصوات تراجعت بمضى الوقت لأن النخبة التترية استجابت لنداء العقل والمصلحة، وانحازت إلى موقف البقاء فى إطار الاتحاد الروسى، مدفوعة فى ذلك بعوامل عدة، أولها، إدراكها بأنها شريكة فى ملكية الأرض الأمر الذى يقتضى البقاء فيها، طالما أنهم يتمتعون بالحكم الذاتى الذى حفظ لهم حرياتهم واستقلالهم الثقافى. يعزز ذلك أن التتر الذين يقيمون فى تترستان يشكلون ٢٠٪ فقط من المنتسبين إلى قوميتهم، والباقون منتشرون فى اتحاد روسيا، ولهم كثافتهم العالية فى سيبيريا والقرم وفى موسكو ذاتها. ناهيك عن أن بعضهم يعيش بأعداد معتبرة فى جمهوريات آسيا الوسطى (فى أوزبكستان وحدها ٤٥٠ ألف تترى).

العامل الثانى أن تترستان تقع فى قلب روسيا، الأمر الذى يجعل من استقلالها عنها بمثابة جراحة خطرة وباهظة التكلفة. وبسبب طول فترة التعايش الذى استمر على مدى ٤٥٠ عاماً، فإن التداخل بين القوميين صار قوياً بحيث يصعب فك الارتباط فيه. وذلك التداخل حاصل على مستوى العلاقات الاجتماعية والثقافية والمصالح الاقتصادية.

العامل الثالث أن التتر قد رأوا بأعينهم ما حل بالشيشان حين سعوا إلى الاستقلال فإن ذلك نبههم إلى أن مغامرة من ذلك القبيل ليست سهلة على الإطلاق، وأن موازين القوة ليست فى صالحهم، الأمر الذى يجعل من المطالبة بالاستقلال نوعاً من الانتحار. ولذلك فإنهم آثروا التروى والحذر، وتقلبت وجهة النظر الداعية إلى إعطاء الأولوية للعمل على تغير ميزان القوة، واعتبار هذه المهمة هى واجب الوقت.

لقد تسلم التتريون الرسالة التى أرادت أن توصلها موسكو إلى كل مسلمى روسيا الاتحادية، من خلال إصرارها على سحق الشيشانيين وإنزال أقسى الضربات بهم. ذلك أن القيادة الروسية أرادت بذلك أن تحقق هدفين فى ضربة واحدة، الأول تأديب الشيشانيين، والثانى توجيه إنذار إلى بقية المسلمين يدعوهم إلى التفكير مرتين وثلاثا قبل التفكير فى إعلان الاستقلال.

من واقع خبرتى المتواضعة بالطرفين، بوسعى أن أقول إن كل واحد منهما تصرف حسب طبيعته، الشيشانيون أصروا على التحدى والاشتباك، وهم الفدائيون والمقاتلون بالسليقة. أما التتر أبناء الثقافة الرفيعة، والأذكياء والمرحون، فإنهم اختاروا المدخل السياسى والدبلوماسى، الذى ينسج الحل بهدوء، ويتجنب الصدام قدر الإمكان.

للعلم: سمعت من بعض التتر أن القيادة الروسية حركت وحدات من جيشها رابطت على حدود جمهورية تترستان، بعدما دعا البعض فى قازان إلى الاستقلال أسوة بما فعله الشيشان. وقال لى هؤلاء إن الرئيس التترى منتيمير شاجير، الذى كان فى الماضى سكرتيراً للحزب الشيوعى، وتربطه علاقة خاصة مع الرئيس بوتن، قام بزيارة موسكو فى ذلك الوقت، وعالج الموقف بصورة دبلوماسية أدت إلى تهدئة الأجواء، وأسفرت عن سحب القوات التى رابطت على الحدود.

حين يهمسون فى أذنك

لم تتوقف مساعى القوميين، وإنما خفضوا كثيراً من سقف توقعاتهم كما خفضوا من لغتهم. وإذ كفوا عن حديث الاستقلال، فيما هو معلن على الأقل، فإنهم صرفوا جهودهم نحو استعادة الهوية الثقافية للتتر. إذ نصبوا أنفسهم للدفاع عن لغتهم التى كانت أقرب إلى التركية وتكتب بالعربية (٤٠٪ من مفردات اللغة التترية عربية الأصل)، ثم أصبحت تكتب بالحروف الروسية الكليرية. وبعد حصولهم على الحكم الذاتى فى عام ٩٢ لم تنجح محاولاتهم كتابة لغتهم بالأحرف اللاتينية



على غرار الحاصل فى تركيا. وإلى جانب اللغة فإنهم يدافعون عن كل ما هو رمز أو تقاليد للتتر ويطالبون بإحيائه.

ورغم أنهم يركزون على تلك المجالات الآن، إلا أن ذلك لا يمنع من أن يلقى نفر منهم ببعض التحفظات والاحتجاجات على موقف الحكومة المركزية فى موسكو. فقد اقترب منى أحدهم ذات مرة وقال إنهم فى موسكو ينسون أن ٧٠٪ من أراضى الدولة الروسية كانت داخلة ضمن دولة البلغار. وازداد اقترابًا منى ليقول بلادنا هذه لها مواردها الاقتصادية المهمة، فهى غنية بنفطها وبصناعاتها الحيوية، من طائرات الهليكوبتر إلى الشاحنات والإطارات والكيماويات. وفى أيام الشيوعية كانت موسكو تحصل على ٩٨٪ من عائدات النفط، وبعد سقوط الاتحاد السوفيتى ومحنة الرئيس يلتسين. وفى أجواء تنامى الشعور القوى وتردد دعوات الاستقلال - تمت الموافقة على أن يحصل التتر على ٧٠٪ من عائدات نفطهم، وينخفض نصيب موسكو إلى ٣٠٪. وحين جاء الرئيس بوتن تراجع عن هذا الاتفاق، مثلما تراجع عن وعود يلتسين بالنسبة للشيشانيين. وقرر أن تقسم العائدات مناصفة بين التتر وموسكو، بحيث يحصل كل طرف على ٥٠٪، وهو ما نعتبره إجحافًا بحقنا.

غير أن مثل هذه الانطباعات تكاد تكون محصورة فى دوائر النخبة، لأننى لم ألمس - للدقة لم يتح لى أن ألمس - حساسيات من ذلك القبيل لدى المواطن التترى العادى، الذى يعيش مع الحقيقة الروسية منذ حوالى ٤٥٠ عامًا. تم خلالها التداخل بين الطرفين إلى درجة كبيرة، والتزاوج، رغم محدوديته التى لا تتجاوز ٩٪، أحد مظاهر ذلك التداخل، وقد تراجعت تلك النسبة بشكل ملحوظ بعد عام ٩٠ أى بعد سقوط الشيوعية. كما زادت نسبة الطلاق بين الزيجات المشتركة، وهى الملاحظة التى سمعتها من المفتى حضرت عثمان، الذى أضاف أن التتر المتدينين يعزفون من الأساس عن التزاوج مع الروس، بسبب أكلهم للحم الخنزير وإدمانهم على «الفودكا»، التى يتعاطونها كما يشربون المياه.

حين زرت قازان كانت فى أبهى حللها، إذ جاءت زيارتى مباشرة فى أعقاب احتفالات الألفية التى تجملت فيها المدينة. وأبرز كل ما تتمتع به من فتنة وجمال. وهى المناسبة التى أبهجت التتر الذين جاءت وفودهم من مختلف أنحاء العالم، إضافة إلى الوفود الدولية التى شاركت فى الاحتفال، وأثار الانتباه بين الضيوف وفد جاء ممثلاً لقرية تترية فى الصين باسم «أينش»، ليس فقط للمشاركة فى المناسبة، ولكن لكى يعلن عن رغبة أهالى القرية الذين غادر أجدادهم البلاد بعد الثورة الشيوعية وترهيبها للمسلمين، فى العودة مرة أخرى إلى تترستان.

كان التجمل واضحًا فى الشوارع التى نظفت والمبانى التى طليت والمشروعات العمرانية الجديدة التى افتتحت، والزهور فاقعة الألوان التى نثرت فى الميادين وعلى جوانب الطرق الرئيسية.

لكن الحدث الأبرز فى المناسبة كان افتتاح مسجد «قول شريف» بقبته الضخمة الزرقاء ومآذنه الأربع الشاهقة تعلوها الأهلة المذهبة، الذى أقيم فى أعلى وأجمل موقع بمدخل المدينة المطل على نهر الفولجا. وهو المسجد الذى كان الروس فى القرن السادس عشر قد هدموه على رؤوس المسلمين الذين احتشدوا فيه بقيادة الإمام، أثناء مقاومة هجمات جيش القيصر إيفان. ثم أقاموا مكانه كنيسة ضخمة مازالت قائمة إلى الآن. ولأن الكنيسة كانت رمزًا لقهر التتر، فإن ممثليهم فى قازان ألحوا بعد سنة ٩٠ على إعادة بناء المسجد، لأن وجوده صار رمزًا ليس فقط لاستردادهم هويتهم الدينية، وإنما لاستردادهم هويتهم القومية أيضًا.

كان من الصعب بل المتعذر أن تهدم الكنيسة ليقوم المسجد مكانها، وبعد دراسات ومداولات قرر رئيس الجمهورية منتيمير شايمير إقامة المسجد فى مكان قريب من الكنيسة، على ذات الربوة العالية المطلة على النهر. ومن الواضح أنه وفر له اعتمادات باذخة، جعلته يبنى فى نهاية المطاف على هيئة بالغة الضخامة والمهابة، حولت المبنى إلى مزار سياحى، فضلاً عن كونه مصدرًا لاعتزاز المسلمين واعتدادهم.

أصبح المسجد رمزًا لجمهورية تترستان، منافسًا فى ذلك مئذنة مقامة منذ القرن السادس عشر بالطوب الأحمر بارتفاع ٦٠ مترًا فوق الأرض، اشتهرت باسم سيوم بيكيه، ولها قصة مثيرة متداولة على ألسنة الناس، لا أعرف مدى دقتها التاريخية. خلاصتها أن سيوم اسم لفتاة كانت ابنة سلطان قازان، وبعد احتلال الروس للخانية فإن إيفان الرهيب أراد إكراهها على الزواج من أحد الأمراء التابعين له، ولما كانت عاجزة عن الرفض، فإنها اشترطت لإتمام الزواج بناء المئذنة خلال أسبوع، وتمت الموافقة على الشرط، لذلك سارعوا إلى بناء طابق فى المئذنة فى كل يوم، وفى اليوم السابع كانت قد انتصبت فى سبعة طوابق، وبسبب السرعة فإنها جاءت مائلة بعض الشىء. وحين أبلغت سيوم بتمام البناء، طلبت أن تتفقده، وبالفعل دخلت إليه وصعدت طوابقه واحدًا تلو الآخر، إلى أن وصلت إلى الطابق السابع، الذى ما أن بلغته حتى وقفت عنده وألقت بنفسها من فوقه، مفضلة الموت على الزواج الذى أكرهت عليه.

إلى جانب مسجد قول شريف والمئذنة هناك بعض المبانى الحكومية العتيقة، وفى المقدمة منها قصر الرئاسة، الذى به مكتب الرئيس منتيمير (الكلمة فى اللغة التترية معناها «الرجل الفولاذى»، والمتداول بين الناس أن أسرة الرئيس كانت تنجب أطفالاً يموتون وهم صغار، وعندما ولد هو أطلق عليه هذا الاسم، عسى أن يطول عمره، وقد كان!).

قمت مع آخرين بجولة فى أبنية المنطقة، ولاحظت أن العرسان الجدد يجيئون مع ضيوفهم للاحتفال بالمناسبة بجوار المسجد والتقاط الصور، التى تظهر فيها أبهة المسجد وجماله. وقد رأيت بعضهم يتبادلون كؤوس الشمبانيا ويتضاحكون أثناء التقاط صور المناسبة السعيدة. لكن أكثر ما أدهشنى أن مجموعتنا ارتقت الدرج كى تزور الكنيسة، ولكن حارس الباب منع أحد علماء لبنان المعممين من الدخول، قائلاً إنه غير مسموح بدخول العمائم إليها. حينئذ قال الرجل ببساطة: أخلعها. واستبدلها بطاقية أخرجها من جيبه. لكن الحارس قال: إن الطواقى ممنوعة بدورها. ولم يكن أمامنا سوى أن ندير ظهورنا له وننصرف.

لولا المآذن التى باتت تتزاحم فى الأفق لبدت قازان مدينة روسية عادية تنتشر فى شوارعها المبانى الضخمة ذات الواجهات الكالحة، وينتصب وسط أكبر ميادينها تمثال برونزى للينين. ولا غرابة فى ذلك، فالرئيس منتيمير كان سكرتيرًا أول للحزب الشيوعى فى عام ٩٠. ولما أن سقطت الشيوعية ومنحت تترستان حكمًا ذاتيًا حتى صار رئيسًا للجمهورية، وتقدمت تتريته على شيوعيته. لا يخلو الأمر من ظهور بنايات جديدة ذات مظهر جذاب وغير مألوف، سيقال لك إنها عمارات حديثة بناها الأتراك الذين بدءوا ينشطون فى المنطقة، ليس فقط لأنهم أهل نسب ولكن لأنهم أيضًا أهل صنعة، تفوقوا بمهاراتهم على العمال الروس الذين أصابتهم الفودكا بالخدر والكسل.

إذا ذهبت إلى مدى أبعد فى عمق المدينة، وتفرست جيدًا فى وجوهها، فستلحظ قسماتها التترية فى المساجد والمدارس الدينية المجاورة لها، وسيدلك المرافقون على المساجد العتيقة التى كان أحدها مخزنًا تابعًا لأحد المستشفيات، وكان الثانى معملاً للإنتاج السينمائى، تحول محرابه إلى دورة للمياه. وصار الثالث حظيرة للحيوانات، وتحول الرابع إلى خرابة مهجورة ترتع فيها القطط والكلاب الضالة إلى جانب المشردين والمخمورين.. إلخ. هذه المساجد كلها تظهر الآن وتجدد، ويتفانى كبار السن والعمال فى استعادة رونقها وجلالها القديم. ستلحظ تلك القسمات التترية فى وجوه المحجبات التى باتت تظهر بوضوح فى شوارع المدينة وفى ظهور مطاعم اللحم الحلال التى كانت محظورة فى الماضى، وقد تأسس منها أربعة إلى الآن، اثنان أقامهما الأتراك والآخران فتحهما الأوزبك. وفى انتشار المكتبات التى باتت تبيع المصاحف والكتب الإسلامية والآيات القرآنية المزخرفة.

وإلى جانب هذه الملامح، لن تغيب عن عينيك قسمات المجتمع الروسى وآثار الأمة التى خلت. إذ سيلفت انتباهك كثرة محلات الخمور التى تحتل الفودكا الصدارة منها. وستلاحظ انتشار بيوت الدعارة التى لا يحظرها القانون. وبشكل مواز تلمح أصداء التغريب ابتداء من محلات «الماكدونالدز» والمخازن الكبرى التى تشبع نهم الاستهلاك وتغذيه، ومرورًا بالإعلان عن أحدث موضات الأزياء والعطور والساعات والسيارات، وانتهاء بصالات القمار و«الكازينوهات»، التى لا يخلو منها فندق.

وهذه القسمات المتباينة تعكس عمليات التجاذب الشديدة التى يتعرض لها المجتمع التترى، والتى كثيرًا ما توسع الهوة بين أجياله المتعاقبة، التى تعيش فى مكان واحد، فى حين أن لكل وجهة هو موليها، الأمر الذى يصعب معه إلى حد كبير الإجابة عن أى من أسئلة مستقبل التتر■



تسلم التتريون الرسالة التى أرادت أن توصلها موسكو إلى كل مسلمى روسيا الاتحادية، من خلال إصرارها على سحق الشيشانيين وانزال أقسى الضربات بهم



عراق واحد..



تحول كتاب بطاطو إلى ما يشبه «الإنجيل» لدارسى العراق خلال ربع القرن الأخير، بحيث يصعب أن تجد عملاً واحداً كتب خلال هذه الفترة بدون أن يستلهمه أو يقع تحت تأثيره، سواء فى شكل واع أو غير واع، وبقصد أو بدون قصد

تمهيد

راج خلال العقدين الأخيرين من القرن العشرين تصور مفاده أن الشعب العراقى هو خليط من الشعوب والطوائف المنقسمة على نفسها، وأن العراق هو كيان ولد بقوة الإمبراطورية البريطانية ولا يمكن الحفاظ عليه إلا بالعنف والقهر. الأنموذج الأكثر شيوعاً للعراق أنه ليس أكثر من ثلاثة كيانات متنافرة: شمال كردى، وسط عربى - سنى، وجنوب عربى - شيعى، تخالطه عناصر شيعية إيرانية، حكمتها طوال القرن العشرين أقلية عربية سنية من خلال مجموعة من المصالح، وأداة الجيش، وأجهزة الأمن، وشبكة من المعتقلات والسجون. وقد أعطى هذا النموذج قدراً كبيراً من التسويغ عشية الغزو الأمريكى للعراق واحتلاله وإسقاط نظام حكمه، لاسيما بعدما أعلنت الإدارة الأمريكية للعراق المحتل عن التوصل إلى اتفاق مع قطاع من القوى السياسية العراقية لإقامة مجلس حكم انتقالى، وزعت مقاعده على أساس انقسام العراقيين إلى عرب وأكراد وشيعة وسنة.

إن النص المؤسس للعراق المنقسم على ذاته فى الحقل الأكاديمى هو بامتياز كتاب حنا بطاطو «الطبقات الاجتماعية القديمة والحركات الثورية فى العراق» لم يكن هدف بطاطو هو بحث مسألة الهويات فى العراق أو التكوين العرقى والطائفى للشعب العراقى، بل قراءة البنية الاجتماعية والسياسية من خلال دراسة الطبقات والقوى الرئيسة التى صنعت تاريخ العراق السياسى بعد إقامة الدولة الحديثة فى ١٩٢١، لاسيما الحزب الشيوعى العراقى. ولكن مقاربة بطاطو وقعت تحت تأثير تقارير الإدارة البريطانية فى العراق وكتابات الرجال الرئيسيين لتلك الإدارة (التى شكلت جزءاً كبيراً من مصادره)، خاصة أولئك الذين وجدوا أنفسهم فى مواجهة ثورة العشرين. من ناحية أخرى، فإن المنهج الذى اتبعه بطاطو فى بناء أطروحته قد استعار الكثير من منهج التحليل الماركسى؛ وقد بدا لبطاطو أن مجتمع الجنوب الشيعى يقدم أدلة قوية على سلامة التحليل. أراد بطاطو عبر كتابه كله أن يؤسس لدور الصراع الطبقى فى صناعة السياسة العراقية وفى فهم العراق الحديث. وقد وجد بطاطو التباين الطبقى فى أكثر مستوياته حدة فى جنوب العراق، وفى التجمعات الجنوبية المهاجرة إلى العاصمة بغداد. كان عمل بطاطو، الذى استغرق سنوات طويلة من البحث، واحداً من أهم الدراسات التاريخية التى نشرت حول العراق الحديث، وربما حول أى بلد آخر فى المشرق، خلال النصف الثانى للقرن العشرين. ولم تكن أهمية الكتاب فى حجمه فحسب، بل أيضاً فى عنايته بالكثير من جوانب الاجتماع والسياسة فى العراق الحديث، وتداخل هذه الجوانب وتفاعلها. وبالرغم من تحيزه المنهجى الماركسى، فقد تحول كتاب بطاطو إلى ما يشبه «الإنجيل» لدارسى العراق خلال ربع القرن الأخير، بحيث يصعب أن تجد عملاً واحداً كتب خلال هذه الفترة بدون أن يستلهمه أو يقع تحت تأثيره، سواء فى شكل واع أو غير واع، وبقصد أو بدون قصد.

بيد أن ما عالجه بطاطو فى كتابه باعتباره ظواهر مشروطة، وبالتالى مجالاً للنظر والتحقيق، تحول فى كتابات لاحقة إلى أيديولوجية مصمتة، بمعتقدات ومسلمات وتاريخ وأساطير. قدمت ريفا سايمون فى دراستها لتاريخ العراق السياسى فى حقبة ما بين الحربين صورة لوطن ومجتمع ممزقين، تتصارع داخلهما فكرة قومية عربية مصطنعة مع عوامل طرد مركزى سرعان ما ستؤدى إلى انهيار بنيانه الهش، أما حسن العلوى وفرهاد إبراهيم وعلى باباخان، فقد أنشأوا، وبدرجات متفاوتة، عراقاً مختلفاً قليلاً، أسس على قواعد من اضطهاد الأقلية السنية للأكثرية الشيعية، ليس فقط فى ظل نظام البعث، بل منذ أقدم العصور، وفى الوقت الذى تحولت فيه المسألة الكردية فى العراق إلى حقل كامل للدراسة، أنجزت على أرضه عملية بناء أمة كردية وقدمت من خلال نصوصه مسوغات انفصال الأكراد عن العراق، فقد تزايد الاهتمام بدراسة شيعة العراق باعتبارهم جالية، أو حتى أمة مستقلة عن باقى مكونات العراق البشرية، بل وفى حالة صراع مع سنته.

إن الهدف الرئيس للصفحات التالية هو محاولة قراءة التكوين العربى - الإسلامى لشعب العراق وعلاقته بمسألة الهوية. موضوع هذه الدراسة هو العراق كوطن، والعراق العربى على وجه الخصوص، بعناصره البشرية وعشائره، توزع هذه العشائر داخل الجغرافية العراقية وتفرعاتها، والأثر الذى لعبته موجات الهجرات العشائرية فى تأسيس عروبة العراق والحفاظ عليها. كما ستدرس هذه الصفحات جذور التنوع الإسلامى الطائفى فى العراق، وتاريخ العلاقة بين السنة والشيعة. وستحاول إلقاء بعض الضوء على وضع الطائفة فى المجال الإسلامى العراقى، ورؤية المسلمين السنة والشيعة لبعضهما البعض، وعلى حقيقة التصور السائد لعراق منقسم بين جنوب شيعى ووسط وشمال سنى.

كان الاعتقاد السائد خلال النصف الأول من القرن العشرين أن الهويات هى جواهر قديمة وأصيلة ومطلقة، وأنها قد تغيب فترة من الزمن ولكنها سرعان ما تستدعى من جديد ويعاد إحياؤها. ولكننا اليوم، وبفضل عدد كبير من الدراسات التى قدمت فى حقلى التاريخ والعلوم الاجتماعية، ندرك أن الهويات ليست جوهرية ولا أبدية، وأنها نتاج عملية إنشاء تتم فى سياق ظروف تاريخية محددة. لا يعنى هذا بالضرورة أن كل عناصر الهوية مصطنعة أو متخيلة، بل يعنى ان هذه العناصر ذات منشأ تاريخى، وأن الوعى الجمعى بهوية ما، وتحول هذه الهوية إلى أداة حشد وتحرك سياسى، هو منجز تاريخى يتم فى ظل ظروف معينة وفى سياقات معينة. كما يعنى بالتأكيد أن إنشاء الهوية وتحولها إلى إطار مرجعى للسلوك السياسى هى عملية تتضافر فيها الحقائق والأساطير، استدعاء التاريخ وإعادة قراءته وتفسيره؛ ويتضافر فيها الواقع والمتخيل، وجد العرب، مثلاً، منذ أكثر من ألفى عام؛ ولكن ولادة وعى عربى جمعى بهوية عربية مميزة عن غير العرب، ما يعنيه ان تكون عربياً، وتطور العروبة إلى هوية قومية وحركة سياسية، هى عملية إنشائية تاريخية. وهو ما ينطبق على الهوية الطائفية، الهوية الشيعية أو السنية، كذلك. فقد أخذت هاتان المدرستان الإسلاميتان فى التشكل منذ القرنين الثالث والرابع الهجريين على التوالى؛ وإذ خضع محتواهما الفكرى لعملية بناء تاريخية، فإن رؤيتهما الذاتية ولعلاقاتهما ببعضهما البعض لابد ان تقرأ من خلال السياقات التاريخية المختلفة. وهذا الكتاب هو قراءة فى هذا التاريخ، تاريخ تكون الهويات موضوع الجدل فى عراق مطلع القرن الحادى والعشرين، وفى السياقات التاريخية التى ولدت قوى الوحدة والانقسام فى تاريخ العراق.

ولا يعنى هذا بالتأكيد الافتراض بأن العراق، باعتباره دولة حديثة بحدود دولية معينة، قد عرف منذ قديم العصور. فالعراق الحالى ولد بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، وهى اللحظة التى تقف عندها هذه الدراسة. ولكن تصوراً ما للعراق كوطن غير محدد بمقاييس الشرائع الدولية الحديثة، وكمزاج وثقافة ونزوع سياسى ونمط حياة، قد وجد منذ بداية العهد الإسلامى على الأقل. وهذا العراق، بساحته البشرية والفكرية والسياسية، بدوله وعشائره، بدوره فى تدافعات المنطقة وصراعاتها، بقيادته واستهدافه، بمخزونه الرمزى ووقائعه، هو موضوع هذا الكتاب.

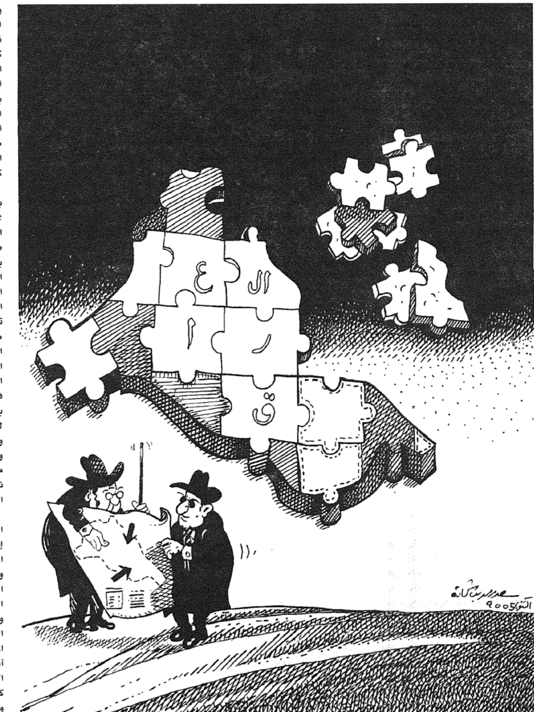
العراق.. ماذا يعنى؟

كما كل الوحدات الجغرافية المشرقية، صنعت تاريخ العراق ومكوناته عوامل وقوى وحدة وانقسام، تجمع وتشظى، التفاف حول المركز وطرد مركزى. كان الفتح الإسلامى وانتشار الإسلام، وتحول العراق إلى مركز قيادة لدولة إسلامية كبرى، أو انضمامه إلى كيان إمبراطورى قوى، كما الهجرات العربية الكثيفة والمتصلة منذ ما قبل الإسلام وحتى القرن الثامن عشر، كلها قوى توحيد. وكان تأسيس بغداد، وبروزها عاصمة حكم وسياسة وثقافة واقتصاد، عامل وحدة بالغ التأثير، عززت منه الاعتبارات الاستراتيجية لجغرافية العراق كون معظم أراضيه تقع ضمن سهل نهرى تحده الجبال والصحراء. وليس بغداد فحسب، بل إن المدن العراقية الرئيسة الأخرى، مثل الكوفة وواسط

من كتاب يصدر قريبا لكاتب المقال عن دار الشروق

أم أكثر من عراق؟!

بشير نافع

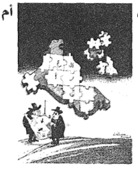


والموصل والبصرة، والمدن الأصغر الأخرى، التى بدأ دورها فى البروز فى نهاية القرن التاسع عشر، لعبت دوراً كبيراً فى انصهار العناصر البشرية المختلفة، أو فى اجتماعها فى إطار من الوحدة والتعاون مع الاحتفاظ بخصوصياتها العرقية أو الدينية. وكان الانقسام الطائفى، والصراعات السياسية، والغزو الخارجى، الذى حركته طموحات السيطرة أو دوافع طائفية، كما الصراع بين القوى العشائرية والمركز، كلها عوامل وقوى انقسام.

بيد أن العراق لم يعرف الدولة بمفهومها الحديث، الدولة - الأمة (the nation-state)، حيث يفترض أن تنصهر الجماعات فى إطار هوية وطنية/ قومية ضمن فضاء جغرافى محدد دولياً، وحيث يتماهى الشعب ودولته، إلا فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ووقوع أغلب بلاد المشرق العربى تحت السيطرة الإمبريالية. وظلت هذه الدولة تعيش توترات متفاوتة مع طموحات وحدة أوسع، طموحات الوحدة العربية، أو الطموحات الانفصالية الكردية. ولكن بروز الدولة القومية باعتبارها مآل الشعوب والوحدة الأساسية للنظام الدولى هو تطور حديث فى التاريخ العالمى على أية حال. تعود بداية هذا التطور إلى الترسيم الأولى للحدود الأوروبية الداخلية فى معاهدة وستفاليا فى منتصف القرن السابع عشر؛ ولكنه لم يستقر بالفعل ويكتسب ملامح محددة إلا منذ صعود الفكرة القومية فى نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر.

وقد ظلت حدود الدولة القومية الحديثة فى أوروبا محل نزاع وحروب؛ بل إن حدود الدولة والأمة كانت أحد الأسباب المفجرة للحربين العالميتين الأولى والثانية، وللانقسام الأوروبى الكبير خلال الحرب الباردة. وكما أن حدود الدولة الحديثة فى أوروبا لا تعنى بالضرورة وجود أحادية إثنية أو دينية فى شعب هذه الدولة، فإن بروز نظام الدولة الحديثة فى المنطقتين العربية والإسلامية، وفى عموم آسيا وأفريقيا، لم يرتكز إلى مثل هذه الأحادية. تكونت بريطانيا، مثلاً، من عدة كتل عرقية: الإسكتلنديون والإنجليز والويلزيون والإيرلنديون، ومن بروتستانت وكاثوليك.

عـــراق واحــــد أم أكـــثـــــر



وقد ازداد هذا التركيب تنوعاً بفعل موجات الهجرة فى النصف الثانى من القرن العشرين. وحتى فى فرنسا، التى تعتبر مثال الدولة القومية الحديثة، لم تكن اللغة الفرنسية هى اللغة الأولى لأغلب طلاب المدارس حتى الربع الأخير من القرن التاسع عشر. وقد لعبت الدولة المركزية، عبر مؤسسات التعليم والجيش والبيروقراطية، دوراً فعالاً فى «فرنسة» فئات الشعب الفرنسى خلال العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر والقرن العشرين. وتتشكل كل من أسبانيا وسويسرا وبلجيكا جميعاً من مجموعات إثنية وثقافية مختلفة، تتحدث لغات مختلفة. إن التاريخ لم يصدر حكمه بعد على نظام الدولة القومية الحديثة؛ ويشهد العالم اليوم محاولات شتى للخروج من حدود وقيود هذه الدولة إلى فضاءات سياسية وثقافية أوسع.

ولا يعتبر التنوع الاثنى والدينى فى العراق الحديث بالتالى استثناء، لا بالمقاييس الأوروبية ولا بالقياس إلى دول جواره العربية والإسلامية. صحيح أنه لا الشعب العراقى ولا شعوب الجوار الأخرى قد استشيرت عندما قامت القوى الإمبريالية المسيطرة فى أعقاب الحرب العالمية الأولى برسم حدود دول المنطقة. ولكن أحداً لا يمكنه الجدال فى وجود العراق، كوطن ووحدة جغرافية بسمات طبيعية وبشرية - اجتماعية مشتركة، منذ الفتح الإسلامى على الأقل. وقد اختلف المؤرخون والجغرافيون العرب فى تحديد ما يعنيه العراق؛ ولكنهم لم يختلفوا فى انه يضم كل وادى الرافدين، يضاف إليه ما عرف بعراق العجم الواقع خلف سلسلة الجبال والمستنقعات الفاصلة بين الوادى ذى الأغلبية العربية ومنطقة فارس، التى غلب عليها النطق بالفارسية منذ نهايات العصر العباسى. شهد العراق حالة من عدم الاستقرار خلال الفترة الفاصلة بين الغزو المغولى والعهد العثمانى، اتسمت بضعف سيطرة المركز البغدادى على باقى المجال العراقى. وبالرغم من ان هيكل الإدارة العثمانية فى العراق قام على تقسيم العراق الجغرافى إلى ثلاث ولايات، فإن هذا التقسيم الإدارى لم يكن ثابتاً، وظلت بغداد تشكل مركز القوة والوحدة للولايات الثلاث. وما أن أتيح للحكم المملوكى هامش للاستقلال الإدارى النسبى عن اسطمبول حتى عادت قوى التاريخ والضرورات الاستراتيجية لتعيد للولايات الثلاث وحدتها تحت الإشراف المباشر او غير المباشر لبغداد.

ولم يعرف العراق، منذ الفتنة الكبرى، الحرب الأهلية بدلالاتها الحديثة. وربما بسبب الفتنة الكبرى وترسباتها المؤلمة، قدمت الجماعة المسلمة مسألة الوحدة على كل المسائل الأخرى. لا الصراع على بغداد بين الأمين والمأمون، ولا الصراع بين البويهيين والسلاجقة، بين الصفويين والعثمانيين، بين الدولة العباسية والخوارج أو القرامطة، أو الحملات التى شنتها حكومة ولاية بغداد العثمانية ضد العشائر، أو تلك التى قامت بها الدولة الحديثة ضد العشائر المتمردة والأشوريين والأكراد، تطورت إلى حروب أهلية بالمعنى الحديث للحرب الأهلية. مثلت هذه الحروب صراعاً على الحكم بين قوى الطبقة الحاكمة، أو محاولة الدولة المركزية تعزيز قوتها فى مواجهة تمرد مجموعات دينية أو عشائرية أو إثنية. وكانت فترات الانقسام نتاج ظروف سياسية معينة وليس نتاج مكونات أصيلة أو موروثة فى الاجتماع العربى - الإسلامى فى العراق، بالرغم من الأهوال التى تعرض لها العراق خلال تاريخه، وأنه كان دائماً من أكثر المناطق العربية - الإسلامية تنوعاً.

ولادة الطائفية

وليس من الصحيح رؤية الوجود السنى - الشيعى الحالى، أو المسألة العربية - الكردية، باعتبارها ثابتاً إسلامياً وقومياً قديم الجذور، وأنها كانت دائماً عامل انقسام طائفى وإثنى فى العراق. لم يكن الحكم الإسلامى الراشد، ولا الحكم الأموى أو العباسى المبكر، سنياً أو شيعياً؛ كان حكماً إسلامياً فحسب، بغض النظر عن عدل حكامه أو ظلمهم. وقد مر قرنان على ظهور الإسلام قبل أن يتبلور توجه سنى، وثلاثة على الأقل قبل أن يتبلور خطاب شيعى اثنا عشرى. كان التبلور الطائفى الاثنا عشرى عملية تدريجية؛ وقد ولدت الطائفة الشيعية الاثنا عشرية ونمت داخل الفضاء السنى وليس بمعزل عنه. كما أن السنة نظروا لأنفسهم كحاضنة عريضة للإسلام لا كطائفة، ولم يظهر السنة شعوراً طائفياً دفاعياً إلا عندما داهمهم الخطر والاعتداء. لذلك كله، لم تشهد العلاقات السنية - الشيعية الاثنا عشرية صراعاً كذلك الذى شهدته علاقة السنة بالخوارج مثلاً، أو الكاثوليك بالبروتستانت فى أوروبا الحديثة. وساعد على توكيد العلاقة العادية بين السنة والشيعة الإثنى عشرية أن كلاً من الفقه السنى والشيعى انتهى عملياً إلى رفض الخروج بالسيف على الحاكم المسلم: السنة لأنهم باتوا يخشون الفتنة والانقسام الداخلى، والشيعة لأنهم عقدوا تأسيس الدولة وشرعيتها على ظهور الإمام. وظلت التوجهات الشيعية تزور مؤسسة الخلافة، حتى فى العصر العباسى المتأخر وبعد انتصار ما سماه هدجسون «العالمية السنية»، فى منتصف القرن الخامس الهجرى. وبالرغم من أن العلماء الشيعة الاثنى عشرية تكلموا منذ القرن الرابع الهجرى فى شرعية دولة لا يقودها الإمام الثانى عشر (الغائب فى المعتقد الاثنى عشرى)، فإن وجهاء الطائفة وكبار رجالاتها انضووا تحت ظل مؤسسة الخلافة واحتلوا مناصب عدة فيها، بما فى ذلك منصب الوزارة. ولم يأخذ الفاصل الطائفى فى التجلى والتكرس بين الجهتين إلا فى العصر المغولى؛ ثم تطور إلى حالة من حرب الدول، التى اختلطت فيها التوجهات الطائفية بمصالح الدولة التوسعية فى العهد الصفوى - العثمانى.

وبينما يبدو من الضرورى رؤية الآثار العميقة التى تركها العهد الصفوى على بنية التشيع والعلاقات السنية - الشيعية، فمن الضرورى عدم المبالغة فى توجه الدولة العثمانية والتزامها السنى. فقد ولدت الدولة العثمانية فى بيئة ثقافية صوفية حملت عناصر تأثير شيعى، ولم تبدأ فى التوكيد على سنيتها إلا فى القرن العاشر الهجرى/ السادس عشر الميلادى، عندما اندلع الصراع الصفوى - العثمانى. وحتى بعد ذلك، فإن انتشار التشيع وسط العشائر العربية فى جنوب العراق تم تحت سمع وبصر رجال الدولة العثمانية، وبموافقتهم ورضاهم فى معظم الأحيان. ومن الضرورى كذلك عدم الخلط بين المواقف المناهضة لمراسم العزاء الشيعى وطقوسه، التى اتخذها الحكام المسلمون فى العراق (وخارج العراق)، من جهة، والموقف الطائفى التمييزى من الشيعة الإثنى عشرية، من جهة أخرى. لاسيما أن أغلب السنة، إلى جانب عدد من العلماء الشيعة، اعتبروا هذه الطقوس منافية للشرائع الإسلامية؛ كما أن هذه الطقوس ارتبطت فى العهد العثمانى بالنفوذ الصفوى/ القاجارى فى العراق، النفوذ الحقيقى أو المتخيل.

شهدت العقود الأخيرة من العهد العثمانى تطورات بالغة الأهمية على صعيد العلاقة بين السنة والشيعة، وإمكانية كسر الجدار الطائفى الذى باعد بينهما منذ الغزو المغولى. فقد لجأ السلطان عبد الحميد الثانى إلى سياسة الجامعة الإسلامية لمواجهة الأطماع الغربية فى بلاد السلطنة، وهو ما كان يستدعى حشد الأمة العثمانية بسنتها وشيعتها خلف لواء الدولة. وفى ذات الاتجاه، تمت بالفعل مصالحة جادة بين الدولة العثمانية وإيران القاجارية. وقد أسس انتصار المدرسة الأصولية الشيعية على المدرسة الأخبارية لبروز مؤسسة علمائية شيعية أكثر تحرراً وقدرة على الاستجابة لمتغيرات العصر. ولكن المشكلة التى واجهت التقارب بين الطرفين تمثلت فى عدم تطور المدرسة الأصولية (لأسباب عديدة) إلى حركة مراجعة نقدية جذرية للميراث الشيعى الطائفى، وانقسام السلفية السنية الحديثة إلى تيارين رئيسيين: تيار إصلاحى مثله عبده ورضا وآخرون، وتيار محافظ مثلته المدرسة الوهابية. هذا إضافة إلى أن العصور الحديثة لم تترك للمسلمين حرية التصرف فى شأنهم الداخلى، بعد أن أصبحت بلادهم مسرحاً للتدخلات الإمبريالية وتدافع القوى الأجنبية.



من جهة أخرى، فإن عروبة العراق، التى بدأت بالوجود العربى قبل الإسلام فى حوض الفرات وتأكدت بمرور القرون التالية، لا يجب أن ينظر إليها من المنظار العرقى الحصرى لثقافة القرن العشرين القومية. كانت عروبة العراق جزءاً لا يتجزأ من المرجعية الإسلامية السائدة، التى كانت عربية الثقافة والمناخ، بالرغم من أن العراق أصبح حاضنة لأعراق متعددة، مسلمة وغير مسلمة، من حكام وعلماء وجند ورجال دولة، بل وعشائر راحلة ومستوطنة. وبالرغم من أن البحث فى أصل من يعرفون اليوم بالأكراد هو مسألة شائكة بلا شك، فإن الفضاء العراقى كان ساحة رئيسة لتعرب الأكراد

العراق الحالي ولد بعد نهاية الحرب العالمية الأولى،
ولكن تصوراً ما للعراق كوطن، وكمزاج وثقافة ونزوع سياسي ونمط حياة،
قد وجد منذ بداية العهد الإسلامي على الأقل



والتركمان والفرس والشركس. بدأت الهويات القومية، التركية والعربية والكردية والفارسية، في التبلور منذ نهاية القرن التاسع عشر؛ ولم يكن مستغرباً، لا في مطلع تحول العروبة إلى حركة قومية سياسية في الحرب العالمية الأولى، ولا في ظل الدولة العراقية الحديثة في عهدها الملكي، أن تنشط في الأوساط القومية العربية عناصر كردية أو تركمانية، تعربت منذ جيل واحد أو جيلين على الأكثر. ولم تأخذ الحركة القومية العربية والكردية والفارسية في التعبير عن نفسها بتعبيرات عرقية حصرية إلا بعد الحرب العالمية الثانية. وعندها، ربما، توقفت حركة التعرب في العراق، وتحولت المسألة الكردية إلى مسألة قومية مستعصية. ولعل ما ساهم في تفاقم المسألة الكردية، كان تورط القوى القومية الكردية في الصراعات الإقليمية والدولية.

المسألة الكردية

وليس من الصعب رؤية التلازم بين الوحدة والاستقرار والرخاء، من ناحية، والانقسام وانهيار الحكم المركزي وغياب الأمن وتقويض سبل المعاش، من ناحية أخرى. ولأن موقع العراق الجيوبوليتيكي، حتى بعد ولادة الدولة الحديثة ورسم حدودها الدولية، ربط بين مصيره ومصير جواره العربي والإسلامي، فإن استقرار العراق ورخاءه مؤشر على استقرار المنطقة ورخائها، كما أن انقسام العراق وانحطاطه مؤشر على انقسام المنطقة وانحطاطها. وإن كان نظام الدولة الحديثة، والسلطة الهائلة التي استحوذت عليها، فتح الباب في كافة أنحاء العالم لمقاييس الأكثريات والأقليات، فإن العراق يجب ان يكون الاستثناء الذي لا يمكن النظر إلى عناصره البشرية بمقاييس الأكثرية والأقلية. يرتبط الشيعة العراقيون، وغير العراقيين، ارتباطاً رمزياً وثيقاً بالعراق؛ فيما يرى السنة أنهم صنعوا تاريخ العراق الإسلامي ومجده، وأن ليس هناك من بلد خارج الحجاز أعطى ميراثهم ملامحه كالعراق. وبينما أصبحت إسلامية العراق وعروبته سمة تاريخية راسخة، يعززها محيطه العربي - الإسلامي، فإن الوجود المسيحي في العراق (كما هو في مصر وبلاد الشام) وجود أصيل يعود إلى مطلع المسيحية ذاتها. ومهما كان إلحاح المسألة الكردية، فإن وضع أكراد العراق لا يمكن ان يحل حلاً حاسماً بمعزل عن الوضع الكردي في عموم المنطقة. إن توجهات الهيمنة القسرية، القائمة على تجاهل المواريث التاريخية، لن تؤدي إلا إلى تقويض استقرار العراق وتقويض استقرار جواره على السواء.

وهذا، ربما، ما يستدعي إضافة بعض من الملاحظات السريعة والمشروطة حول حقبة الدولة العراقية الحديثة، التي بدأت بتنصيب فيصل الأول ملكاً في ١٩٢١ وانتهت بالغزو الأمريكي للعراق والإطاحة بالدولة العراقية في ٢٠٠٣. وهي ملاحظات مشروطة لأنها لا يجب أن تؤخذ بدرجة من اليقين قبل ظهور عدد كاف من الدراسات الموثقة لهذه الفترة، تسمح بمقارنة النتائج والتحقق من مصداقية الأرقام واتجاهات القوى. وليس هناك من شك في وجود حساسية بالغة تتعلق بقراءة بنية الدولة العراقية الحديثة وتوجهاتها؛ فقد انتهى العهد الملكي في العراق بمذبحة، وانتهى زعيم أول نظام جمهوري مقتولاً، بينما يقبع آخر رئيس للجمهورية في سجن أمريكي ينتظر المحاكمة. كما أن العراق شهد منذ ١٩٢١ عدداً من الحروب، وسلسلة من الانقلابات؛ بل إن أول انقلاب عسكري في العالم العربي كان انقلاب بكر صدقي في ١٩٣٦. وسجل الدولة الحديثة هو فوق ذلك سجل لم يجف حبره بعد، ولم يزل يمس حياة الكثير من العراقيين المعاصرين ويؤثر تأثيراً مباشراً على ذاكرتهم ووعيهم. ولاعتبارات واضحة، أصبح ميراث الدولة الحديثة أكثر مواريث العراق تسييساً وعرضة للتوظيف الأيديولوجي. بالرغم من ذلك كله، فإن طرح عدد من الملاحظات ذات العلاقة قد يساعد على فتح أبواب من النقاش:

أولاً. لجأ البريطانيون تحت وطأة خسائرهم في ثورة العشرين إلى منح العراق إدارة ذاتية، تحت إشراف بريطاني ثقيل الوطأة، وحكماً وطنياً منقوص السيادة. ولأن البريطانيين لم يكن لديهم تصور للدولة سوى التصور الحديث لها، فقد أرادوا تسليم مقاليد الدولة لعراقيين تدربوا في مؤسسة الدولة الحديثة وطرقها ووسائلها. ولم يكن هناك من عراقيين من هذا الصنف إلا أولئك الذين درسوا في المدارس العثمانية الحديثة، وخدموا في بيروقراطية وجيش الدولة العثمانية الحديثة. وكان هؤلاء في أغلبهم من السنة، بعضهم عرب والبعض الآخر من أصول كردية أو تركمانية. إذ بالرغم من التقارب السني - الشيعي في نهاية العهد العثماني، فقد ظل الشيعة محجمين عن الانضواء في جهاز الدولة العثمانية، حتى عندما فتحت الدولة أبواب وظائفها للعراقيين وعموم فئات الرعية (ولم تعد مقصورة على الأتراك) في حقبة التحديث العثماني. ولعل ما ساعد رجال الدولة العثمانية السابقين على تسلم مقاليد الدولة العراقية الحديثة إن عدداً منهم، وليس كلهم على أية حال، كان قد انضم إلى الثورة العربية وإلى قوات الأمير فيصل الثائرة على حكم الاتحاد والترقي في إسطمبول. ولم يكن مستغرباً بالتالي أن يخسر السيد الكيلاني، رئيس وزراء الفترة الانتقالية، الشخصية التقليدية وأحد وجهاء بغداد الكبار، الذي عرف بولائه للعهد العثماني المنتهي، منصبه سريعاً، وأن يصعد إلى رئاسة الوزارة الموظفون والضباط العثمانيون السابقون أمثال عبد المحسن السعدون، ياسين الهاشمي، ناجي السويدي، ونوري السعيد، الذين عرفوا بخلفيتهم التعليمية الحديثة، أو كانوا من الموالين للهاشميين. كانت سيطرة العناصر السنية على مقاليد الدولة نتاج ظرف تاريخي خاص وليس مؤامرة طائفية للاستحواذ على الحكم.

بين الملكية والجمهورية

ثانياً. بالرغم من التوجه القومي العربي للعهد الملكي والسيطرة السنية على جهاز الدولة الوليدة وضعف التمثيل الشيعي في الوزارة والجيش وصفوف كبار موظفي الإدارة، فإن من الصعب وصف الدولة الملكية بأنها كانت قومية حصرية أو طائفية النزعة. تواجد الأكراد بقوة في صفوف طبقة ضباط الجيش، وعرف بكر صدقي، رئيس الأركان الذي قاد انقلاب ١٩٣٦، ليس فقط بأصوله الكردية بل أيضاً بعواطفه الكردية. وقد أصبح الكثير من الأكراد وزراء، كما رأس الوزارة كردي واحد على الأقل من آل بابان. أما الوزراء ورؤساء الوزراء الذين انحدروا من أصول كردية وتركمانية، وعرفوا في الوقت نفسه بتوجهاتهم العروبية، فكثر. هذا بالرغم من انطلاق حركة التمرد الكردي القومي منذ منتصف الثلاثينيات. وقد ارتفع التمثيل الشيعي في سلك الوزارة وفي الجيش ودوائر الدولة تدريجياً، كما ازداد عدد المدارس الحديثة في المناطق الشيعية في شكل مطرد، وتدفق العراقيون الشيعة على المعاهد العليا وبعثات الدولة الخارجية. ومنذ نهاية الحرب الثانية، أصبح اختيار شيعي لرئاسة الوزراء أمراً معتاداً تماماً. كما لعب الشيعة دوراً متزايداً في الحياة الثقافية - السياسية في العراق الملكي. كان فاضل الجمالي ومهدي كبه من مؤسسي نادي المثنى بن حارثة الشيباني في ١٩٣٣، وهو المنتدى الذي تحول إلى حاضنة للفكرة القومية العربية في العراق الحديث. وبينما ساهم ساطع الحصري، السني من حلب، مساهمة بارزة في نمو الفكرة القومية العربية، كان العروبي الشيعي من بعلبك، رستم حيدر (وحتى مقتله في حادث جنائي) أحد أقرب المقربين من الملك فيصل الأول ومن الأسرة المالكة. للدولة العنصرية أو الطائفية، مهما بلغت من تسامح، سقف لا تخترقه، سقف يحدد طائفيتها أو نزعتها التمييزية؛ ولكن مثل هذا السقف العرقي أو الطائفي لم يوجد في العهد الملكي.

ثالثاً. ليس ثمة من اتهامات طائفية توجه عادة لنظام حكم عبد الكريم قاسم، النظام الجمهوري الأول. ولد قاسم لأب سني وأم شيعية، وقد احتل حتى الانقلاب عليه منصب رئيس الوزراء، أما مجلس رئاسة الدولة فقد ضم عربياً سنياً، وآخر شيعياً، وثالثاً كردياً. والمدهش أن التقييم غير الطائفي لنظام قاسم لا يأخذ في الاعتبار أن أغلب وزراء حكوماته كانوا من السنة، وأن عبد السلام عارف، رفيق قاسم الحميم، الذي لعب الدور الأهم في الانقلاب على الحكم الملكي، كان سنياً. وبالرغم من شعبية قاسم الواسعة في أوساط عموم الشيعة، فقد كان عهده خطراً كبيراً على التقاليد الإسلامية الشيعية. في عهد قاسم، تجرأت الدولة على التشريعات الإسلامية المتبقية في مجال الأحوال الشخصية، ونشط الحزب الشيوعي العراقي نشاطاً كبيراً، لا سيما في أوساط المتعلمين والعمال العراقيين الشيعة.



ديوان الطرب

سلامة حجازى

أيها القمرى غرد

أيها القمرى غرد ... حيث قد طاب الزمان
واطرب النفس وجدد ... آنسنا فى كل آن
يا مجيداً فى النشيد
طاب وقتى قم وبادر ... واشكر المولى المجيد
من حوى كل المفاخر ... صاحب الرأى السديد
غوثنا عبد الحميد
من له أسمى المزايا ... والمعالى والكرم
فضله عم البرايا ... وبه الكون اطمأن
من له الملك المعين
وأدم رب المكارم ... من حكى البدر التمام
من غدا والدهر باسم ... خير عباس يرام
فله الشكر المزيد
واحفظ السادات أهل الكرم ... من إذا ما حضروا الأنس حضر
رب واشملهم بوافى النعم ... ما شدا طير وما لاح قمر
فهموا أنجم ذا العصر السعيد

ولم يكن مستغرباً أن يدفع هذا المناخ عدداً من المثقفين والعلماء الشيعة الشبان إلى تأسيس «حزب الدعوة»، أولى المنظمات الإسلامية السياسية الشيعية فى العراق الحديث.

أما عبد السلام عارف فقد عرف بتوجهاته القومية العربية والإسلامية. حافظ عارف خلال عهده على علاقات حسنة بالمرجعية الشيعية، التى شهدت فى ظل حكمه وحكم شقيقه، عبد الرحمن عارف، أكثر فتراتها قوة وتأثيراً. وحكم العارفين هو الذى فتح أبواب العراق لآية الله الخمينى بعد نفيه من إيران، بالرغم من رفض عدد من علماء النجف استقباله. ولم تتوتر علاقة عبد السلام عارف بمرجعية النجف إلا عندما كانت تتكشف لديه الصلات السرية بين بعض علماء المرجعية فى النجف ونظام الشاه فى إيران، الذى نظر إليه فى بغداد باعتباره مصدر تهديد للعراق. ولعل التباين بين موقف الحكم فى بغداد وموقف مرجعية النجف من استقرار آية الله الخمينى فى العراق يرجع إلى تباين موقفى الطرفين من نظام الشاه. وليس ثمة من مؤشر على أن الاعتبارات الطائفية كان لها أى دور يذكر فى الصداقة الوثيقة بين عارف وقاسم، فى اختلافهما بعد ذلك، وفى سجن الأخير للأول، أو فى مشاركة عارف فى الانقلاب على قاسم. والمفارقة أن التمثيل العربى السنى والعربى الشيعى فى حكومة عارف أصبح متساوياً، بالرغم من أن اختيار الوزراء من الجانبين لم يتم على أساس طائفى بل عكس الانضواء الشيعى المتزايد فى الدولة والحياة السياسية. وقد اتسم عهد عارف القصير، وعهد شقيقه الانتقالى الأكثر انفتاحاً، بقدر كبير من الاضطراب والتدافع بين القوميين العرب والشيوعيين، وبين القوميين من غير البعثيين والقوميين البعثيين، كما بين هؤلاء جميعاً والإسلاميين السنة والشيعة على السواء.

عنف البعث

رابعاً - بدأ العهد الجمهورى الأخير، عهد أحمد حسن البكر وصدام حسين، بانقلاب ١٩٦٨ ومن ثم سيطرة حزب البعث على السلطة. كان العدد الأكبر من قيادة النظام الجديد من ضباط الجيش، ومن الشبان البعثيين العرب السنة العلمانيين، المنحدرين من أسر وعشائر غير بغدادية. ولكن البعث كان دائماً وثيق الصلة بالعرب الشيعة، الذين لم تنتشر بينهم فى الخمسينيات والستينيات التيارات اليسارية فحسب، بل والتيارات القومية العربية الأيديولوجية كذلك. إن القادة الثلاثة الأول لحزب البعث فى العراق كانوا من العرب الشيعة؛ ولم تظهر أغلبية سنية فى قيادة الحزب إلا بعد استيلاء اللجنة العسكرية على القيادة إثر الفوضى التى تسبب فيها الحرس القومى التابع للقيادة المدنية فى ١٩٦٣، ومن ثم نجاح عارف بموافقة اللجنة العسكرية لحزب البعث فى طرد شركائه البعثيين وحرسهم القومى. كان أغلب أعضاء اللجنة العسكرية من الضباط السنة، بل ومن أصول عشائرية تكريتية، وهو ما سيسهم فى صعود التكريتيين إلى السلطة بعد أن أخذت دائرة الحكم تضيق وأخذ الرفاق فى الانقلاب على بعضهم البعض وتصفية الواحد منهم للآخر. ولكن تصوير نظام البعث على انه نظام حكم عربى - سنى، انتهج سياسة اضطهاد منظم للشيعة وللأكراد، باعتبارهم شيعة وأكراداً، هو تصوير تنقصه الأدلة حتى الآن.

كل أنظمة المشرق، حيث الدولة الحديثة وجماعاتها الوطنية لم تستقرا بعد، تواجه خصومها بقدر كبير من العنف، لاسيما عندما يلجأ خصومها أنفسهم إلى استخدام وسائل العنف. العنف الذى وظفه النظام ضد المناطق الكردية المتمردة على السلطة المركزية، وذلك الذى واجه به انتفاضة المحافظات الجنوبية فى ١٩٩١، لا يختلف كثيراً عن العنف الذى تعاملت به الدولة التركية أو الإيرانية مع حالات التمرد الكردى، أو الذى تعاملت به الدولة الجزائرية أو السورية أو المصرية مع تمرد القوى الإسلامية المسلحة. ولا يختلف بالتأكيد عن العنف الذى تواجه به دولة ما بعد احتلال ٢٠٠٣ خصومها المسلحين. كان نظام البعث، خاصة منذ نهاية عهد البكر، نظاماً انفرادياً، حاول تأسيس الاستقرار بقوة الأجهزة الأمنية ووسائل القمع والعنف. ولكن عنف النظام فى مواجهة خصومه فى المناطق الكردية والشيعية ليس دليلاً على طائفيته، لاسيما أن نظام البعث لم يتورع عن استخدام عنف مشابه (وإن بدرجة أقل) ضد منطقة عربية سنية كالرمادى، عندما استشعر بوادر تمردها فى منتصف التسعينيات. ثمة عدد من الأسئلة لابد أن يجاب عليها قبل محاولة حسم الجدل حول طائفية النظام وتمييزه العرقى: إلى أى حد، مثلاً، كانت سياسات النظام التعليمية والتنموية سياسات تمييزية، ماذا عن عدد الجامعات وتوزيعها الجغرافى، عن عدد الطلاب

الجامعيين وتوزيعهم الطائفى والعرقى، ماذا عن سياسات التوظيف الحكومى والارتقاء فى مناصب الدولة، ماذا عن الأصول الطائفية لكوادر الحزب الحاكم وقياداته، وماذا عن دوائر الحكم والمقاعد الوزارية؟



خامساً . إن معظم تداعيات الوضع العراقى الحالى تعود إلى الحرب العراقية - الإيرانية وسنواتها المدمرة والدموية الطوال. ولا يجب أن يكون هناك شك فى أن نظام صدام حسين، مدعوماً بعدد من القوى الإقليمية والدولية، يتحمل مسئولية إشعال الحرب. فى سنوات الحرب تلك ولدت أوهام الدور المضخم لدى النظام، وفيها ولدت بذور الانقسام الطائفى، وفيها ولدت أزمة العراق المالية - الاقتصادية. الأزمة المالية - الاقتصادية هى التى أدت إلى أزمة الكويت وحرب الخليج الأولى، ومن ثم إلى حصار العراق الطويل، وتصدره قائمة الأهداف الأمريكية فى الشرق الأوسط. وما أن صنعت أحداث الحادى عشر من سبتمبر/ أيلول سياقاً عالمياً جديداً حتى بدأ العد العكسى لغزو العراق واحتلاله.

بيد أن الحرب العراقية - الإيرانية كانت أيضاً حاضنة المناخ الطائفى المرير الذى أخذ فى اجتياح العراق منذ بداية الاحتلال. كان هدف العراق الرئيس من شن الحرب على إيران فى ١٩٨٠ السيطرة على إقليم عربستان/ خوزستان الجنوبى ذى الأكثرية العربية، وهو ما كان يعنى العبث فى التركيب القومى الإيرانى ودفع إيران إلى التفكك والانهيار. وقد ردت إيران الصاع صاعين عندما مدت يد العون للقوى الكردية القومية فى شمال العراق، وللعناصر والتنظيمات الإسلامية الشيعية السياسية، بل وعملت على تكوين تنظيمات جديدة. ونظراً لأن إيران دولة يحكمها نظام إسلامى شيعى، ونظراً للموروث التاريخى الثقيل للعلاقة بين إيران الصفوية/ القاجارية والعراق، فقد ولدت سنوات الحرب الطويلة خطاباً طائفياً، انتشر فى أنحاء المشرق والعالم الإسلامى. وعندما انتهت الحرب بدون سقوط النظام فى العراق، بدا أن أغلب التنظيمات العراقية المعارضة فى الخارج، لاسيما الشيعية التى ازدهرت خلال سنوات الحرب، فقدت مسوغ وجودها. وهذا بالذات ما أدى ببعض هذه التنظيمات إلى البحث عن مسوغ استمرار فى الخطاب الطائفى. ثم جاءت هزيمة العراق فى حرب الخليج الأولى عام ١٩٩١ وما تبعها من توظيف بغداد الواسع للعنف لاستعادة السيطرة على المدن الجنوبية، ذات الأكثريات الشيعية. وليس هناك من شك فى أن أحداث ١٩٩١ وفرت مادة غير مسبوقة للخطاب الطائفى.

أخيراً . شكل نظام الدولة الحديثة، فى العراق وغيره من الدول العربية والإسلامية، معضلة كبرى للفكر والوعى الجماعى العربى والإسلامى. وقد فاقم من هذه المعضلة فشل أنظمة هذه الدولة المتفاوت فى عملية التنمية، والحفاظ على الاستقلال، ولجوؤها المتكرر إلى العنف السافر لتعويض أزمة الشرعية. وربما سيحتاج العرب والمسلمون سنوات طويلة أخرى لحل إشكالية الدولة. وليس من الصعب اتهام الدولة العراقية الحديثة، سواء فى حقبتها الملكية أو الجمهورية، بكثير من الاتهامات. ولكن وصم هذه الدولة بالطائفية يستدعى إعادة النظر فى المنطق الذى قامت عليه، كما يعرفه دارسوها العرب وغير العرب. ومثل هذه المقاربة للعراق الحديث لا تؤيدها الشواهد التاريخية المتاحة. هذا لا يعنى، بالطبع، إن عراق ما بعد الغزو ليس مهدداً بالانقسام الداخلى، الطائفى أو العرقى؛ فالهويات تلد، أو تكتسب نزعتها للتمركز حول الذات ونفى الآخر، فى ظروف انتقالية أو انقلابية، أو فى فترات الحروب والصراعات العاصفة. ولدت القوميتان العربية والكردية فى العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر، عندما كانت رياح التحديث تعصف بالبلاد والشعوب العثمانية، واكتسبت توجهاتها السياسية خلال سنوات الحرب العالمية الأولى، بكل ما تعنيه سنوات الحرب من خوف وعدم استقرار وعنف. وكانت نتائج الحرب والسيطرة الاستعمارية الانتدابية هى التى أعطت العراق الحديث حدوده الديمغرافية والجغرافية.

بيد أن العراق لم يشهد فى تاريخه الحديث سياقاً تواطأت فيه قوى أجنبية وأخرى وطنية، بوعى أو بدون وعى، على تبنى سياسة تدفع شعبه إلى حافة الانقسام الطائفى، كما الفترة التالية لاحتلال ٢٠٠٣. عبر تاريخه كله، كان لكل خيار من خيارات الهوية السابقة آثاره وعواقبه على أصحابه ومن هم فى جوارهم، وعلى العراق ككل. ويقف عراقيو مطلع القرن الحادى والعشرين أمام خيار جديد: أن يروا أنفسهم من منظار الانتماء الطائفى أو الاثنى الذى ولدوا به، بكل ما فى ذلك من آثار وعواقب، أو أن يحافظوا على وحدة العراق وبقائه. ■



ديـوان الطــرب

ســـــلامة حجـــازى

شـــبـان الأزبكيـــــة

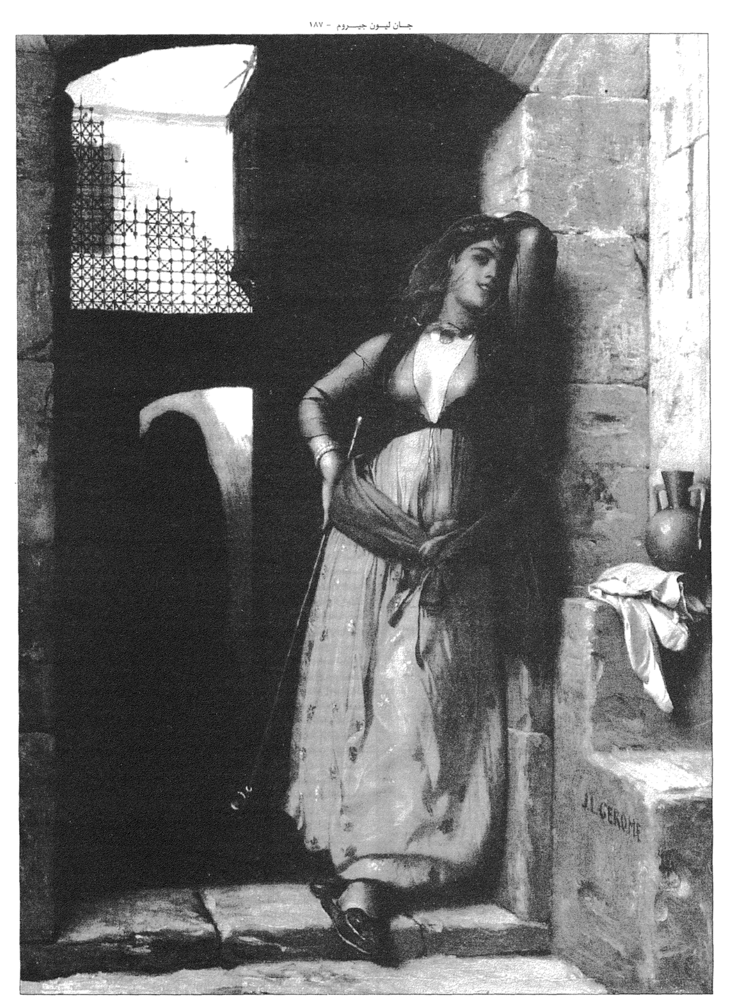
شبان مصر إلام اللهو والكسل ... ومصر فى عهدكم تتنابها العلل؟
أنــتـم دواء لأدواء تــبــرحــهــا ... إذا نهضتم، فهل فيكم لها أمل؟
ماذا نؤمل فى حسن الوجوه وفى ... حسن الكلام إذا لم يحسن العمل؟
أما رأيتم خلايا النحل كيف بها ... الكل يعمل لا لهو ولا ملل!!
مصر الخلية والمرعى الخصيب بها ... والنحل أنتم وإدراك المنى العسل

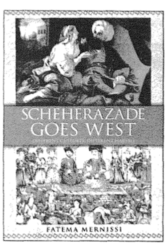
فتـــى العصــــر

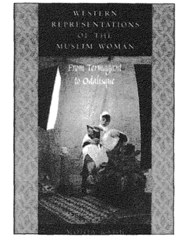
ماضر لو شابهت من عقلوا ... وبعدت عن ذا المسلك الوعر
فالعقل يرفع قدر صاحبه ... سيان فى عسر وفى يسر
تسعى لجذب الفاتنات وقد ... نفرتهن وأنت لا تدرى
فوداعة الحملان تفضلها ... عند النساء شراسة النمر
ومحاسن الطاووس تفضلها ... لو كنت تعلم صولة النسر
هذا حديث كالثمار به ... حلو اللباب وتافه القشر
أودعته نصح الحكيم ولو ... إنى خلطت الجد بالهزر
لا أبتغى والله منه سوى ... إصلاح حالك يا فتى العصر



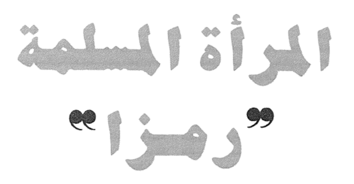
جان ليون جيروم - ١٨٧







أيقونة الصراع والسياسة والحرب.. والجنس



أميمة أبو بكر

عندما صدر كتاب (الاستشراق) المشهور للراحل إدوارد سعيد (١٩٧٨) . الكتاب الذى كان له الفضل فى بدء حركة نقدية ثقافية واسعة المدى والتداعيات بالنسبة لدراسة آليات التمثيل الثقافى وتحليل الخطاب وعلاقة ذلك بسياسات الاستشراق وتأسيس صورة «للآخر/ الشرق» تكون مقدمة معرفية وتبريراً لمهمة الاستعمار . تعلّمنا منذ ذلك الحين أن الاستشراق هو فى الأساس عملية إنتاج واحتكار للمعرفة عن شعب أو جماعة، وتتمحور هذه المعرفة فى حالتنا تلك حول تكريس التنميط السلبى والدونية ولذا كان من نتائج الاستشراق بناء «رؤية تمثيلية» معينة لهذه الشعوب وثقافتها . ولأن إدوارد سعيد كان مهتماً بفترة الاستعمار والحقبة الحديثة فقد ركز على القرنين التاسع عشر والعشرين، ولم يرجع بعدسته التحليلية إلى العصور الوسطى والعلاقة بين أوروبا والعالم الإسلامى فى ذلك الوقت، كما أنه لم يركز . إلا سريعاً فى معرض التحليلات . على صورة المرأة فى الشرق وبالتحديد المرأة المسلمة فى هذه المجتمعات . لم يشكّل ذلك انتقاصاً من المشروع الفكرى الهائل الذى أرسى دعائمه سعيد، بل العكس، مثل كل المشاريع الرائدة للمفكرين المبدعين هناك دائماً مساحة للاستفادة مما تم إنجازه وبناء عليه المزيد من البحث فى طرائق أخرى متشعبة لخلق التراكم المعرفى والعلمى المنشود .

الكتابان اللذان يتم عرضهما هنا استفادا بلا شك من مشروع تحليل «رؤية» الغرب التاريخية للشرق العربى والإسلامى وإنتاج «الصور التمثيلية» له، ولكن تم إفراد وتخصيص الدراسة فى كل منهما لصورة المرأة بالذات فى عيون الغرب، وكذلك العودة إلى الجذور المبكرة فى القرون المتوسطة لتحليل أكثر من مرحلة والوقوف على تطورات الرحلة التاريخية الطويلة .

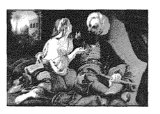
■■ أصبح معروفاً الآن أن صورة الحريم . وهى تمثل منطقة المحظور والحسى . كانت دائماً شكلاً من أشكال الخيال الذكورى الاستشراقى الذى عن طريقه استطاع الغربيون أن يصوغوا نظريات حول اعتبار المرأة فى الثقافة الإسلامية الرمز المجسم لكل ما هو متخلف وهمجى وحسى فى هذه المجتمعات.

ومن الصعب أن نورد هنا الكم الهائل من الدراسات النقدية والتاريخية . معظمها بالإنجليزية . التى تناولت صورة الحريم الإسلامى فى الوعى الغربى الاستشراقى خاصة فى الفترة العثمانية، ولكن نشير إلى أهمها مثل: (حريم الإمبريالية). Imperial Harem: Women & Sovereignty in the Ottoman Empire للكاتبة لسلى بيرس (١٩٩٣)، و (العنصرية والجندر والجنس فى سياق الكولونيالية). Imperial Leather: Race, Gender, Sexuality in the Colonial Context للكاتبة آن ماكلينتوك (١٩٩٥) ؛ ثم نتوقف عند الكتاب البارز لمالك علولة (الحريم الكولونيالى ١٩٨٦) وهو عبارة عن تجميع للصور الفوتوجرافية التى أخذها الفرنسيون فى أوائل القرن العشرين لنساء مسلمات جزائريات ومغربيات بلا اسم، تمت تعريتهن جزئياً وتحويل هذه الصور إلى «كروت بوستال» لإرسالها إلى ذويهم فى فرنسا دون أظرف، وهو التجسيد الأمثل للرغبة الاستشراقية فى استباحة وتعرية المرأة المسلمة وجعلها هدفاً للنظرة المختلسة المتلصصة (voyeurism)، إضافة إلى اعتبارها رمزاً للإسلام نفسه وجعله متاحاً مستسلماً.

والجديد فى كتاب (التصورات الغربية للمرأة المسلمة ١٩٩٩) لكاتبته مهجة قحف (Western Representations of the Muslim Woman) هو الأطروحة الأساسية أن هذه الصورة النمطية الاستعمارية فى العصر الحديث للمرأة المسلمة داخل الحريم قد سبقتها صور أخرى مختلفة تماماً مبنية أيضاً على رؤية وتجربة مغايرة . تتبنى الكاتبة الأمريكية / السورية الأصل . الأستاذة المساعدة بقسم الأدب الإنجليزى وبرنامج دراسات الشرق الأوسط بجامعة أركنسا فى الولايات المتحدة . منهجاً تاريخياً نقدياً فى تتبع صورة المرأة المسلمة فى الخيال الأدبى الأوروبى، وتقسّم تشكل

Scheherazade
Goes West: Different cultures,
Different Harems
شهرزاد ترتحل غربا
Fatema Mernissi
Washington Square Press, 228PP,
2001

Western Representations of the
Muslim Woman from Termagant to
Odalisque
التصورات الغربية للمرأة المسلمة
Mohja Kahf
University of Texas Press, 1999,
207PP



هذه الصورة إلى فترات تاريخية / أدبية مثل: العصور الوسطى، وعصر النهضة، وعصر التنوير، والأدب الرومانسي، وصولاً إلى القرن التاسع عشر الإمبريالي. تتعرض الكاتبة بادئ ذي بدء إلى إشكالية المصطلح «المرأة المسلمة» الذي تستخدمه مدركة أن المسمى له غموضه وهو غير واضح أو محدد من ناحية سياق تاريخي واجتماعي معين، فهل المقصود المرأة في تركيا أم في الهند أم في البلاد العربية مثلاً ؟ تقول الكاتبة أن منهج الكتاب ليس العلوم الاجتماعية أو السياسية التي تتعامل مع مجتمعات أو جماعات محددة من النساء والرجال داخل سياقاتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية، فكتابها يتناول «المرأة المسلمة» كموضوع «للتمثيل» (representation) في الأدبيات الغربية، كصورة تم تصنيعها وتشكيلها في الوجدان الأوروبي، ولذلك فالمصطلح الجامع يجعلنا نرصد أنماطاً واحدة للمرأة العثمانية / التركية أو الآسيوية أو العربية على السواء بسبب انتمائهن جميعاً للدين الإسلامي، وذلك على مدى فترات أدبية متعددة.

من الغريب أن الصورة التي تقابلنا للمرأة المسلمة في نصوص القرون الوسطى الأوروبية (مثل الملاحم الفرنسية التي تناولت الحروب الصليبية) هي الأنثى القوية العنيفة المحاربة حتى ينعكس ذلك على بنيتها الجسمانية الضخمة : لا يوجد ذكر لأي حجاب أو غطاء أو عزلة أو حريم في التصورات القروسطية للمرأة المسلمة، بل النموذج هو المرأة الجامحة التي تمتلئ حيوية وجراة ولذا تمثل تهديداً للأنوثة الهادئة الخاضعة للمرأة الأوروبية المسيحية المثالية في ذلك الوقت. وعادةً ما تدور حبكة القصة في هذا النص (the romance) وهي قصة خيالية شعرية في الأغلب أو نثرية أحياناً مبنية على المغامرات والفروسية والحب العذري في العصور الوسطى. حول هذا النمط السردي: تقع امرأة من طبقة الأشراف المسلمين (أميرة مثلاً) في حب محارب أسير مسيحي لدى جيش والدها أو أخيها، فتساعده على الهرب وتعينه في مواجهاته الأخرى مع الجيش الإسلامي حتى تتحول إلى المسيحية وتتزوجه، وتتحول كذلك إلى شخصية أنثوية مسالمة سلبية وتصبح جزءاً من المعسكر الغربي. ولا يعنينا كثيراً التحول في العقيدة فهو مجرد رمز لتحول الشخصية من القوة والجراة و«الاسترجال» . من وجهة نظر السرد . إلى الضعف والاستكانة وهي الصورة الأمثل للأنثى حسب المنظومة الثقافية المسيحية في ذلك الوقت. الملاحظ أن الشخصية النسائية المسلمة تنتمي غالباً لطبقة اجتماعية أعلى من القائد البطل المسيحي، أي أن قوة تأثير الحكاية تعتمد على دخول هذه الشخصية النسائية بنية السرد من باب أنها على قدم المساواة أو حتى أكثر تفوقاً من البطل الغربي المسيحي وليست أدنى منه بأي حال من الأحوال.

استحوذت فكرة الحريم على الخيال الأوربي منذ القرن السابع عشر. والسؤال: ما هي دلالة ظهور الحريم في الخطاب الغربي حول الإسلام منذ ذلك الوقت بالتحديد؟



تضرب مهجة قحف أمثلة كثيرة لهذا النمط الأدبي خاصة في الملحمة الفرنسية الشهيرة (La Chancon de Roland) (ق ١٢) التي تحكي جانباً من المواجهات الصليبية العسكرية في القرن الثامن الميلادي وموت «رولاند» ابن أخ الملك «شارلمان» على يد الملك العربي المسلم (the saracen) « مارسيل» في أسبانيا، وشخصية «براميموند» هي زوجة هذا الملك، وهي من أولى الشخصيات النسائية المسلمة التي تدلف إلى الخيال الغربي في الفترة بين ١١٠٠ م و ١٤٠٠ م حيث انتشر العنصر الإسلامي في الملاحم والشعر و(الرومانسيات) والأدب الشعبي انعكاساً للاحتكاك بين الثقافتين أو الحضارتين على أكثر من مستوى. تتصرف «براميموند» بعدوانية وتتحدث وتقاطع بصوت عال: هي إذا الصورة النمطية للمرأة المزعجة سليطة اللسان، والمقابل لها شخصية «أود» النموذجية المسيحية الخاضعة والمضحية. «براميموند» في عدوانيتها وشهوانيتها تمثل الصورة المعكوسة على مستويين: الآخر الديني الوثني، وكذلك المرأة المجاوزة لحدودها الفطرية السليمة: «فالمرأة الفاضلة بحق هي المرأة السلبية»، كما تشرح لنا الكاتبة هذه النقطة. وتقضي التقاليد الأدبية لهذا النوع أن تتحول «براميموند» إلى المسيحية في آخر الملحمة وإلى الطابع الغربي المسيحي للأنوثة بمعايير ذلك الوقت. أي أنه يجب أن يتم «تأنيثها» بالكامل وليس فقط تنصيرها حتى تنتهي الحكاية.

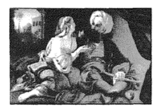
تعد «براميموند» النموذج الأول (prototype) للمرأة المتمردة المتوحشة (termagant)، وهو الاسم الذي أطلقه كتّاب الرومانسيات في القرون الوسطى على أحد الآلهة الوثنية العربية الذي تصوروا أنه يُعبد من قبل المسلمين، وكان هذا الإله في ذلك التصور حينئذ يتصف بالعنف والشراسة، ثم تطور المصطلح حتى اكتسب في منتصف القرن السابع عشر في أوروبا معنى المرأة المشاكسة المتوحشة سليطة اللسان، وتعلق الكاتبة أن تطور مدلول واستخدام الكلمة له مغزى خاص بالنسبة لصورة المرأة المسلمة في الخيال الأوروبي في مرحلته الأولى: حيث تزامن ذلك تاريخياً من القرن الثامن إلى حوالي القرن الخامس عشر مع حقيقة أن الحضارة الإسلامية كانت لها اليد العليا سياسياً واستراتيجياً واقتصادياً وثقافياً. ولم تكن الهجمة الصليبية. رغم بعض الانتصارات المؤقتة . مشروعاً استعمارياً متكاملاً وكاسحاً كما كان الحال في القرن التاسع عشر، بل ظلت الحملات العسكرية الأوروبية مهددة ومحاصرة وفي موقع ضعف وعرضة للهجوم المضاد والطرد في معظم الأوقات.

لذا فالصورة وتطورها يعكسان نقطتين: أولاً، علاقة الغرب بالآخر المسلم منذ بداية الغزو العسكري لأراضيه واختلاف موازين القوى معه وكيفية التعامل معه من منطلق المصالح والأطماع. ثانياً، إسقاطات المجتمعات الغربية على تشكيلها لصورة المرأة المسلمة، بمعنى أن الإشكاليات الداخلية الخاصة بهذه المجتمعات تجاه رؤيتها للمرأة الأوروبية نفسها والبناء الثقافي لشخصيتها وطبيعة العلاقة بين الجنسين تحكمت على مر العصور في تدعيم التصورات النمطية للمرأة في الإسلام. من هذا المنطلق هناك مرحلتان لهذه التصورات: مرحلة العصور الوسطى حيث الآخر المسلم هو الأقوى الذي يشكل تهديداً عسكرياً وسياسياً وثقافياً (عقائدياً)، فتصبح المرأة في بربريتها وتوحشها واسترجالها رمزاً لهذا الآخر ؛ ولأن أوروبا في ذلك الوقت لديها مشكلة مع شخصية المرأة في الأسرة والمجتمع والمؤسسة الدينية وهناك الرغبة في تكريس نمط الأنثى النقية الهادئة المستكينة كنموذج مثالي داخل الثقافة المسيحية، فإن هذه الرغبة تنعكس، أدبياً، على استئناس الوحش الإسلامي في صورته «الأنثوية» (termagant) وإظهار المرأة المسلمة عنيفة ومنفّرة خارج إطار الأنوثة النموذجية الخاضعة.

وهكذا تتابع الكاتبة تطور وتغير هذه الصورة بفعل هذين العنصرين، أحدهما خارجي يمس علاقة الغرب بالآخر المسلم والثاني داخلي يمس علاقته بالآخر المؤنث، وكيف يتم تداخل أو تشابك للجانبين فتصبح المرأة لدى الثقافة الأوروبية هي «الآخر من الداخل» (the Other within). وعندما تتساءل الكاتبة ما الذي أدى إلى تدهور «التواجد الأدبي النصي» للمرأة المسلمة من المرأة القوية التي لا يستهان بها إلى المرأة السلبية الصامتة المحتجزة في حيز الحريم تجد الإجابة مرة أخرى في تقاطع نوعين من الخطاب في التاريخ الثقافي الغربي: الخطاب حول الإسلام والخطاب حول (الجندر) أو علاقات النوع.

يتكرر إذاً نموذج «براميموند» الجامحة في كثير من نصوص القرون الوسطى، مع إضافة بُعد الشهوانية والإغراء في شكل عدوانية جنسية. والمثير أن هؤلاء البطلات المسلمات كثيراً ما يتم في تصويرهن إظهار براعتهن في العلوم الطبية أو الكيميائية أو السحر، فيتم ربط جراتهن الجنسية بتفوق في العلوم والمعرفة. المهم في هذه النقطة. حتى نفرق بين هذه المرحلة وما سوف يتبعها . أن الجانب الجنسي عندهن مباشر ونشط ويملكن المبادرة فيه، ولسن هدفاً سلبياً صامتاً «للنظرة الفاحصة المستبيحة»، أو المقتحمة من الخارج (أي فكرة الحريم). أما عن الشخصية الجنسية العدوانية فهي في ذلك الوقت علامة على تحرر مقيت وحِسية بدائية غير متحضرة لأنهن جزء من منظومة التسيب وعدم التهذيب التي رسمتها المؤسسة الكنسية الغربية القروسطية للدين الإسلامي. وهكذا تقابلنا المرأة المسلمة الدموية العنيفة في شراسة أعتى رجال القادة المسيحيين وهي ليست بالعدو السهل بل رمزاً للتهديد الذي تمثله القوة العظمى الإسلامية، وهي كما قلنا إما تُقتل وتُدمر ويُمثّل بها أو تتحول إلى المسيحية وتتغير شخصيتها في انتقالها من ثقافة إلى أخرى لتصبح الأنثى المثالية في ضعفها وسلبيتها وصمتها.

الغريب إذا . وعلى عكس ما سيحدث في القرن التاسع عشر من «تأنيث للشرق»



عند عبور شهرزاد إلى ضفة العالم الغربى (فى شكل أول ترجمة فرنسية عام ١٧٠٤م) فى الفن والأدب تفقد سماتها الفكرية والعقلية وذكاءها ونبوغها الأدبى والفنى الذى ميز شهرزاد الأصلية



أو تقديمه فى صورة «الخُنثى» (ص ٥٣). تصنع تلك النصوص من النساء «رجالاً»، فليس الهدف البلاغى إظهار ضعف الآخر وإبعاده عن الذات بل رفع قدره (على الأقل فى البداية) لجعله على نفس مستوى الاقتدار فهو عدو لا يستهان به وجدير بالمحاربة، فإذا تم سحقه فى نهايات القصص كان لهذا أثر درامى قوى وله انعكاسه الإيجابى على بطولة الذات. صورة الثقافة الإسلامية فى هذه المرحلة ثقافة على درجة واحدة من القوة وإن كانت منحرفة وشريرة، والمرأة المسلمة القوية عندما تتحول إلى المسيحية ترمز إلى ذوبان هذه الثقافة أو الهوية وجعلها فعلاً مثيلة للذات الغربية فى كل شىء، ومن ثم تفقد اختلافها تماماً.

وعندما تنتقل الكاتبة إلى تحليل نصوص المرحلة التالية وهو عصر النهضة بدءاً من القرن الخامس عشر حتى نهاية السابع عشر ورغم عدم وجود نمط موحد واضح بل تعددية فى الأنماط والأشكال، إلا أنها تلاحظ بصفة عامة وجود فترة انتقالية وجيزة فى التاريخ الأدبى الغربى، حيث يظهر خطاب الحركة الإنسانية (Humanism) فى مقاربته للمرأة المسلمة من منطلقات مبادئ النهضة التى غيرت من النظرة إلى الإنسان (وعلاقته بالكون والمجتمع والتاريخ) ليس من خلال انتمائه لأى جماعة محددة ولكن من خلال فلسفة الفردية المطلقة، مما أدى إلى ظهور نوع من أنواع الفضول الحيادى تجاه المسلمين، خاصة من المنظور الإيطالى. المختلف عن نظيره الفرنسى أو الأسبانى أو الإنجليزى. بسبب العلاقات التجارية النشطة بين إيطاليا وبلاد الشرق فى حوض البحر المتوسط مما جعل سكان المدن الإيطالية حلفاء اقتصاديين للعثمانيين فقد اعتمد رخاؤهم الاقتصادى على المعاملات التجارية مع الولايات العثمانية. أدى هذا العامل التاريخى المهم إلى حدوث ما تطلق عليه الكاتبة انحساراً مؤقتاً للغة الآخر المتعصبة أو تواجد «هضبة مستوية» حيادية بين مرحلتين فى العلاقات بين الشرق المسلم والغرب المسيحى، وانعكس ذلك على تصوير الشخصيات النسائية التى كانت تظهر فى الأعمال الأدبية ذلك الوقت. وهى تضرب مثالاً لعمل «بوكاشيو» المشهور: حكايات الـ Decameron) حيث نجد فى الحكاية السابعة «ألاتيل» الابنة الجميلة لسلطان بابل، وهناك حكاية أو مغامرة أخرى بطلتها «إليسا» بنت ملك تونس التى تقع فى حب الأمير المسيحى الصقلى «جربينو»... إلى آخر الحكاية المأساوية عن المحبين. الأهم أنه لا أحد يتحول عن دينه ولا توجد جدالات حول العقيدة أو شتائم أو إهانات موجهة إلى آلهة أى دين آخر. صحيح أن هؤلاء الأميرات المسلمات لسن بقوة وفاعلية البطلات فى العهد السابق، ولكنهن على أية حال يشتركن مع الشخصيات النسائية الأخرى غير المسلمة فى قلة حيلتهن الراجعة إلى الثقافة الذكورية العامة التى يخضع لها الجميع مسلمات ومسيحيات. لا تركز السرديات إلا على اختلاف «جنس» الشخصية (sexual difference). أى شخصية الأنثى. وليس على الاختلاف الدينى كذلك، أى أن المرأة المسلمة هنا تشترك مع قرينتها الأوروبية فى كونهما «الآخر» بالنسبة إلى تغلب القيم الذكورية على منطق الحكايات. تزعم الكاتبة أن هذا انعكاس لتقبل الواقع. وإن لم يكن إقبالاً أو تفهماً أو حباً: أى التعامل مع الولايات العثمانية المسلمة على قدر من التوازن الاقتصادى وعلى أساس المشاعر الحيادية، ليست خوفاً أو كرهاً أو حباً.

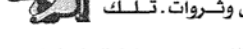


تمضى الكاتبة مهجة قحف من خلال مزيد من التحليل الأدبى فى رصد تصوير الشخصيات ودلالتها فى أكثر من عمل أوروبى سواء كان أسبانيًا أو فرنسيًا أو إنجليزياً مع تسليط الضوء دائماً على الخلفية التاريخية لميزان العلاقات السياسية والاقتصادية والثقافية الذى يحدد غالباً إنتاج هذه الصور. مثلاً يلفت نظرنا توقفها عند بزوغ قضية عنصرية اللون واقتران المرأة المسلمة حينئذ بالمرأة الأفريقية «السوداء» فى بعض أعمال شكسبير، بسبب ظهور شخصية (the moor) من شمال أفريقيا، وكيف أن ذلك راجع لرواج تجارة العبيد فى القرن السابع عشر، حيث تلحظ أن النصوص الإنجليزية فى هذا القرن تذكر الأفريقيين السود. أى ذوى اللون الأسود. على أنهم (black moors) أى يقترنون بالسكان المسلمين فى شمال أفريقيا.

ولكن المرحلة الأهم فى هذه الرحلة التصويرية الطويلة تتحدد عند بدء استحواذ فكرة الحريم على الخيال الغربى أو الأوروبى منذ القرن السابع عشر، والكاتبة تطرح التساؤل: لماذا ظهور الحريم ودلالته فى الخطاب الغربى حول الإسلام منذ ذلك الوقت بالتحديد ؟ كما أشرنا فى البداية تعتمد أطروحة الكتاب الأساسية على تحديد عاملين رئيسيين أثرا على تطور صورة المرأة المسلمة أحدهما داخلى يخص أزمة المجتمعات الغربية نفسها مع المرأة أو «الآخر المؤنث»: يتزامن هذا العصر مع نشوء التطور المجتمعى للتقسيم الحاد فى الأدوار بين النساء والرجال، بسبب التحول من المجتمعات الزراعية أو الإقطاعية إلى مجتمعات صناعية وإلى اقتصاد تجارى مدينى مما أبعد النساء عن الحيز العام إلى الخاص / المنزل لإفساح المجال فى السوق والمصنع لليد العاملة الذكورية. وصاحب كل ذلك نشأة الطبقة المتوسطة البرجوازية بمعاييرها الأخلاقية المتزمتة وأذواقها المادية واهتمامها بالكسب ونظرتها الضيقة إلى الأمور، مما خلق أيديولوجية اجتماعية معينة فى الثقافة الأوروبية حول ضعف وخضوع المرأة للهيمنة الأبوية وانتمائها الأصيل إلى الحيز الخاص المنعزل للمنزل وخدمته والقيام على شأنه والتركيز فقط على وظائفها الرعائية البعيدة عن أى عمل إنتاجى ربحى فى المجتمع الخارجى، أى أنه هكذا بدأ الغرب نفسه بسبب ظروف تاريخية واقتصادية خاصة بتطور مجتمعاته يتشكل فى نظرته إلى المرأة وتكونت لديه فكرة «الفصل التراتبى الحاسم بين عالمى الرجال والنساء وانغلاق النساء فى حيز / مجال خاص مثالى ونقى، وبعيد عن قيم السوق والعمل والتجارة والكسب (ص ٩٧).

عند هذه النقطة التاريخية بالتحديد يدخل مفهوم دائرة الحريم المغلقة المحرمة السرديات الغربية حول الإسلام وتتعدد مظاهره وأشكاله بسبب هذا التشابه مع النموذج الأمثل داخل الوجدان الأوروبى لطبيعة وأدوار الجنسين فى الحياة. أصبح الحريم إذاً يمثل التجسيد المجازى (وإن كان لا يزال أجنبياً) للتنظيم الأسرى المنشود ولصورة الأنثى المثالية كما صنعها وتمناها الوعى الأوروبى حينئذ. وترد كلمة حريم (harem) أول مرة بالإنجليزية فى ١٦٣٤ حسب قاموس أكسفورد للإنجليزية (OED)، وفى القرن الثامن عشر تتكون أفكار الاحتجاز والسجن والقهر وبؤس نساء الحريم، وكون المرأة ضعيفة لا حيلة لها ومن ثم فى حاجة إلى ثورة لفك أسرها وتحريرها. كما يتغير البعد الجنسى للمسألة عما سبق، فتصبح المرأة فى هذه البيئة مصدراً سلبياً للإغراء. وليس الإغواء. أى كما أشرنا من قبل تصير مستهدفة للعين الفاحصة من الخارج التى تستمتع بكشف واستباحة المستور وانتهاك انغلاقه (voyeurism)، أى فى تلك الصورة المثيرة للخيال والرغبة مناشدة للنظرة الذكورية الخالصة التى تمثل أيضاً الوجدان الأوروبى الذكورى فى علاقته الملتبسة مع الأنثى. يريدها خاضعة ومبْعَدة حتى يسهل السيطرة عليها ولإذكاء الرغبة فى نفس الوقت. وهكذا باتت المرأة المسلمة وحجابها تحتل مكاناً مركزياً فى الخطاب الغربى حول الإسلام حيث جعلها الغربيون رمزاً لعجز هذا الدين وتخلفه ودونية ثقافته. أى «تأنيث الشرق الإسلامى» (ص ١١٣). ليتلاءم ذلك مع الإحساس بالتفوق والهيمنة والاقتحام الإمبريالى.

تنقل لنا الكاتبة مهجة قحف تحليل الباحثة «نانسى ارمسترونج» عن نشأة نمط المرأة المستكينة الغربية فى العصر الحديث التى ترصدها فى انتشار نوعية كتب الإرشاد والسلوكيات (conduct books) المخصصة للمرأة، والتى أرست هنا النموذج النسائى على عكس النموذج السابق للمرأة الأرستقراطية المثقفة التى كانت تلعب دوراً مهماً إيجابياً فى حفظ المنزلة الاجتماعية والسياسية للعائلة عن طريق تحالفات متشابكة مع مراكز قوى أخرى ولذلك لها وجودها الطاغى فى شبكة هذه العلاقات الاجتماعية السياسية. أو حتى نموذج المرأة المحاربة أو تاجرة السوق التى لم يُعتبر أنهن تجاوزن فطرتهن أو مجالهن الطبيعى. أما بعد الثورة الصناعية الرأسمالية فعلى المرأة أن تختفى لتفسح المجال لرجال الطبقة المتوسطة ليركزوا كل طاقاتهم على الإنتاج وتحقيق معدلات ربح عالية ورأس مال وثروات. تلك





تنزلق المرنيسى كثيراً فى تناقض مع نفسها وأطروحاتها حين تلقى بعبارات وآراء تهاجم فيها بعضاً من مظاهر الثقافة الإسلامية فى تعميم وتحامل يقترب من الاستشراقية الغربية التى تزعم أنها تنتقدها



المكاسب المادية التى أتاحت لأوروبا وأغرتها بالتوجه إلى استعمار واستغلال مصادر الثروة الأصلية فى بلاد الشرق وأفريقيا. وهكذا تكتمل صورة العالم الإسلامى لدى الغرب الاستعمارى بدءاً من منتصف القرن الثامن عشر: مجتمع تم إخصاؤه. مجازياً. وتحويله إلى «خنثى» أو امرأة ضعيفة مقهورة فيسهل بالطبع السيطرة عليه بعد أن استعصى على التملك منذ العصور الوسطى.

واستمراراً لصورة المرأة المسلمة السجينة التى تنتظر التحرر والإنقاذ أو بمعنى أصح هيمنة الرجل الأبيض، تركز الكاتبة فى الأدب الرومانسى الإنجليزى (ق ١٩) على الشاعر «بيرون» الذى اشتهر بأعماله الشعرية التى سجلت مغامرات شخصية «دون جوان» فى الحريم التركى (١٨٢١ - ١٨٢٣)، إلا أن إنقاذ البطل الرومانسى الهمام للمرأة فى الحريم وإخراجها منه لا يعنى جعلها مساوية له تماماً فى تحررها العقلى أو فى مستوى ذكائه هو ؛ يجب أن يظل بها بعض من هذا الخضوع والاستسلام الذى يجعلها مرغوبة من وجهة نظر الرجل الأوروبى والذى فيه دعوة للسيطرة. يستطيع «بيرون» فى أعماله الشعرية أن يطمس صوت المرأة / الحريم بسهولة لا يستطيعها تجاه المرأة فى أوروبا فى ذلك الوقت عندما ارتفعت أصوات بعض النساء الناشطات المعترضات على القهر «الفكتورى» لهن وللمطالبة بالحقوق الليبرالية الفردية للمرأة. ومع ذلك بمقدوره دائماً أن يلقى اللوم على الرجل المسلم فى قهره وحبسه للمرأة.

تتوقف قحف فى دراستها عند بداية أو منتصف القرن العشرين عندما تتسلم الآلة الاستعمارية / الرأسمالية للغرب هذه الصورة النمطية الأخيرة وتعكف على إعادة إنتاجها مرات ومرات، وتظل تتضاعف طوال القرنين التاسع عشر والعشرين حتى الفترة المعاصرة، حيث يأتى علينا الدور لنتساءل: وماذا عن الآن ؟ ماذا عن بداية القرن الواحد والعشرين؟ هل يستمر هذا النمط الأخير أو هل تبدل وتغير ؟

عقدة الحريم

قبل أن نحاول الرد على هذه التساؤلات ننتقل إلى كتاب فاطمة المرنيسى الكاتبة والباحثة الأنثروبولوجية المغربية المعروفة، والتى بنت شهرتها منذ الثمانينيات على دراسات حول التاريخ الإسلامى وموقع المرأة فيه وطغيان «الأبوية» على الثقافة الإسلامية لتشكيل النظرة إلى النساء. أى أن المرنيسى ظهرت على الساحة قبل مهجة قحف بكثير ولها تاريخ طويل ومثير للجدل فى نقدها الحاد والجرئ (الذى كان على حساب بعض الثوابت أحياناً). ورغم إقرارنا باقتحام المرنيسى لمنهجيات جديدة فى التحليل وطرح أسئلة محيرة حول مكانة المرأة فى الثقافة الإسلامية، إلا أننا لا نستطيع أن نتجاهل وقوعها أحياناً فى فخ التناقض وتطور النقد الذاتى المشروع إلى جلد الذات وإلى الحنق والتحامل على الثقافة برمتها والتاريخ والهوية، أى تبنى النظرة الدونية نفسها التى تميز الميراث العتيد للاستشراق.

كتاب فاطمة المرنيسى (شهرزاد ترتحل غرباً . ٢٠٠١) ليس من كتبها المؤسسة الأولى حيث كانت معنية دائماً بتحليل الجذور التاريخية والنفسية للرجل الشرقى المسلم فى تعصبه ضد المرأة، إلا أنها هنا تنحو منحى مختلفاً بعض الشىء يقترب من إنجاز مهجة قحف فى دراستها التى حولت فيها الاتجاه إلى التحليل النفسى لأزمات وعقد الأوروبيين تجاه المرأة. بدلاً من العرب أو الشرقيين المسلمين هذه المرة. قد يختلف كتاب المرنيسى عن قحف فى درجة البحث العلمى والتحليل الأدبى وفى النبرة ثم فى الشكل والإطار العام للعرض، فقد اختارت المرنيسى شكلاً من الأشكال الرائجة الآن فى الكتابة وهو أشبه بالسردية أو المرويات الشخصية (personal narrative) التى تقدم الموضوع فى شكل وأسلوب الرحلة الذاتية للكاتبة نفسها ثم التأملات والخواطر والمذكرات المقترنة بهذه الرحلة، فينكشف للقارئ رويداً أبعاد وأجزاء الموضوع توازياً مع اكتشاف الكاتبة نفسها له.

الفكرة العامة للكتاب هى أيضاً صورة المرأة المسلمة فى الثقافة الغربية ولكن يقتصر العرض على القرنين التاسع عشر والعشرين، ويرتكز على مفهوم الحريم كمحور رئيسى للتحليلات، كما تركز الكاتبة على الصورة أكثر منها على الكلمة، أى التصوير الفنى فى اللوحات الزيتية الكلاسيكية الشهيرة لرسامى الغرب، ثم تضيف بعداً مقارناً عندما تحلل صورة المرأة فى الثقافة الإسلامية المتزامنة. ماذا يعنى الحريم عند الرجل الغربى ثم ماذا يعنى عند الرجل الشرقى المسلم؟ هذه هى الإشكالية الأولية التى تطرحها المرنيسى مع بداية رحلتها إلى باريس. كما تروى لنا. كجزء من جولة أوروبية بالترتيب مع الناشر تزور فيها عدة عواصم بهدف الترويج لكتابها (أحلام وحكايات بنت فى الحريم. ١٩٩٤)، وهو سيرة ذاتية عن طفولتها وصباها بالمغرب وسط عائلتها ومذكراتها الشخصية والاجتماعية عن هذه الفترة. فى مقابلاتها مع العديد من الصحفيين والمثقفين الأوروبيين المهتمين بعملها تكشف أن تفكير معظمهم عن «الحريم الإسلامى» لا يزال يدور حول الصورة النمطية الغربية التى تجسدت فى أعمال فنية تصويرية عدة للحريم كمكان للشهوة والمتعة الجنسية المتاحة بلا حدود والمرأة المستسلمة... إلخ

أما عندما تتفكر فى التراث الإسلامى نفسه (سواء فى الخيال الأدبى أو فن المنمنمات فى المخطوطات القديمة) تجد أن الكاتب أو الفنان المسلم يصور المرأة كفاعلة جريئة تمتطى الجياد وتتسلح أحياناً بالأسهم والنبال والسيف، ثم كشريكة فى العلاقات الغرامية لا يسهل السيطرة عليها، وليس كما بدت فى الخيال الفنى الغربى (مثلاً الرسامين ماتيس وبيكاسو...) عارية ومطيعة ومستسلمة لسطوة الرجل تماماً. ومن هنا تستخلص أنه بينما يشعر الرجل الغربى فى الحريم بالأمان والقوة والثقة بالنفس، يستشعر الرجل المسلم النقص فى ثقة النفس والخوف الدفين من المرأة عندما تنفلت من سياج السيطرة الأبوية.

وهى تعطى أمثلة من تصويرات فنية فارسية وتركية وآسيوية مغولية لقصة زليخة والنبى يوسف (عليه السلام) ومن الملاحم الشعرية للشعراء الفرس «فردوس» و«جامى» (ق ١١ - ق ١٥ م): كيف تم تصوير زليخة كمثال لامرأة قوية شهوانية، وتعلق المرنيسى إن هذا هو الخوف الأعظم لدى الرجل المسلم عندما يفقد السيطرة على المرأة وأن هذا يشكل «عنصراً واضحاً جداً فى الثقافة الإسلامية سواء فى الواقع التاريخى أو الخيال الأدبى والفنى».

والجملة السابقة فى رأيى مثال على مشكلة أساسية فى منهجية الكتاب عندما تخلط الكاتبة باستمرار بين التاريخ من ناحية والتصوير التخيلى/ أو التمثيل (representation) من ناحية أخرى دون تحديد للمجال الذى ستركز عليه فى التحليل، ثم بين الانطباعات الشخصية من ناحية والأدلة النصية والتاريخية المفصلة من ناحية أخرى. كما أنها تتجاهل العامل الزمنى. والتى تعاملت معه قحف بدقة. فتقدم خلاصات لا تربطها بتغيرات وتطورات تاريخية أو حتى سياقات سياسية واقتصادية واجتماعية محددة. فهى مثلاً عندما تستنتج خوف المسلم من عدم انصياع المرأة ومن خروجها عن السيطرة تلجأ إلى تعميم غير دقيق: «إن الإسلام كمنظومة قانونية وثقافية مفعم بفكرة المؤنث كقوة تخرج عن السيطرة. أى الآخر المجهول...» أو «.... الغريب داخل الأمة» (ص٢١)، ودليلها التاريخى الوحيد على ذلك قرار الخمينى للنساء فى إيران بارتداء الحجاب عقب الثورة، ثم أزمة الدكتور نصر حامد أبو زيد بجامعة القاهرة كمثال على النفور الإسلامى من التعددية الفكرية والديمقراطية والاجتهاد. (لاحظ استخدامها الفضفاض غير المحكم لكلمات «الإسلام» و«إسلامى»). وهكذا فإن «عدم المساواة بين الجنسين متجذرة فى الشريعة» (ص ٢٣)، أما فى «الحريم الغربى» فالأنثى لا تشكل تهديداً. أى بدلاً من أن تصل إلى استنتاجات إيجابية بناء على هذا الاختلاف فى درجة تصوير تمكين وجراة المرأة المسلمة بين الشرق الإسلامى والغرب واستنتاجات تأخذ فى الحسبان التغير الزمنى وقضية النية المبيتة للاستشراق الإمبريالى أو حتى الأزمات الداخلية فى الثقافة الغربية. بدلاً من ذلك تقلب الكاتبة الاعتبارات ليظهر الغرب كأنه خالى من العقد تجاه النساء مقارنة بالشرق. ناهيك عن أن الفترة التاريخية التى تعنيها (ق ١١ - ١٥ق) فى أمثلة الأعمال الفارسية والتركية الإسلامية لا تتزامن مع تواجد صورة الحريم فى الثقافة الغربية، ليس بعد.

تعلن الكاتبة فى الفصول

روبـرت بنـي - ١٩١٩





إنهـا الأزمــة الأوروبيــة التاريخيـــة مــع الآخـــر المختـــلف دينيـاً وثقافيـاً المقــاوم للدمــج والطمــس فـى عــالم عــولى شـمولى



التالية عزمها على تتبع هذه الإشكالية واستكشافها، وتروى رحلتها فى برلين بألمانيا تجوب مكتبات بيع الكتب و«الكافيهات» والعروض المسرحية والمتاحف يرافقها صحفى ألمانى فى جولتها بالمدينة، محاولة، من خلال حواراتها معه، أن تربط بين ما تستشفه من آراء له وبين انطباعاتها حتى الآن عن فكرة الحريم فى الثقافة الغربية. والعرض كما قلنا يأخذ فى أجزاء كثيرة منه شكل السرد أو المذكرات الشخصية عن شخصيات ولقاءات وحوارات. ثم تقرر الكاتبة أن تناقش شخصية «شهرزاد» كتجسيد للحريم فى الوجدان الغربى مقارنة مع الإسلامى، ولماذا عدم الخوف من المرأة فى الغرب ؟ تبدأ بتحليلها للقصة الإطار فى «ألف ليلة وليلة»، والصراع بين شهرزاد وشهريار كنموذج لصراعات كثيرة داخل الثقافة الإسلامية وتلاحظ أن عند عبور شهرزاد إلى ضفة العالم الغربى (فى شكل أول ترجمة فرنسية عام ١٧٠٤م) فى الفن والأدب تفقد سماتها الفكرية والعقلية وذكاءها ونبوغها الأدبى والفنى الذى ميز شهرزاد الأصلية. وتزامناً مع سفر المرنيسى نفسها داخل سرد الكتاب من برلين إلى باريس ومقابلاتها مع الصحفيين هناك، تحكى لنا فى الفصل السادس المعنون «الذكاء فى مقابل الجمال» عن قراءتها لأول مرة لـ «إيمانويل كانط» الفيلسوف الألمانى التنويرى وعن فلسفته الرئيسية التى تعتمد على اقتران الرجل بالعقل والتفكير واقتران المرأة بالجمال والمشاعر، أما إذا خاضت المرأة مجال العلم فهى تقوض الأساس الذى يقوم عليه جنسها وتصبح قبيحة. هذا هو النموذج التنويرى الذى يقدمه «كانط»: الانقسام البشرى بين الذكاء والجمال اللذين لا يجتمعان فى جنس واحد.

وهنا تذكرنا المرنيسى فى ملحوظة بارعة بمثال الجارية «تودد» فى ألف ليلة وليلة المعروفة بعلمها وذكائها ومعرفتها للعلوم والآداب، ثم هارون الرشيد الذى عرف بتفضيله للجوارى المتعلمات المثقفات وليس الجميلات فقط بدون عقل، على عكس المرأة المثالية عند «كانط»: جميلة وبلا صوت أو علم أو عقل. وهذه ملاحظة من الكاتبة فى محلها وإن لم تفسدها تعميمات وتشبيهات لا مبرر لها، فتقارن بين الاختيار الصعب الذى يطرحه كانط بين الجمال والذكاء من ناحية، و«الأصوليين» (ص ٩٠) من ناحية أخرى الذين يطرحون للنساء الاختيار بين إما الحجاب والأمان أو عدم الحجاب والهجوم عليهن، ثم تشبيه أسلوب كانط التعسفى بأسلوب «أى إمام جامع مسلم» (ص٩١).

فى الفصل التالى تأخذنا فى جولة فى اللوفر مستعرضة اللوحات الشهيرة للحريم والحمامات التركية... إلخ والتى تؤكد لها نظرية الحريم الأوروبى: جمال مكشوف عارى ولكن صامت بلا صوت أو مقاومة. وعند منتصف الكتاب تقريباً يجد القارئ نفسه تائهاً وسط فصول قصيرة متتالية من التجوال العشوائى داخل كتب التاريخ والتراث مثل تاريخ هارون الرشيد وحكاياته مع الحريم ثم حكايات الأصفهانى فى (الأغانى) وأخبار عن مجالس الخلفاء والجوارى واللهو والشراب وقصص العشق والغرام... إلخ (مرة أخرى فى خلط بين التاريخ والتراث الشعبى والأدبى)، ثم قصة حياة الفنان «انجرس» صاحب معظم هذه اللوحات وعلاقته بزوجته، والتطورات الحاصلة فى الإمبراطورية العثمانية بدءاً من منتصف القرن التاسع عشر وحتى وصول كمال أتاتورك...



وهكذا بدون هدف واضح غير تكرار كل حين النقطة التى أثبتتها من قبل حول سلبية نساء الحريم فى الخيال الفنى الأوروبى فى مقابل المرأة ذات الشخصية القوية والذكية ذات العلم والثقافة فى الأدب والخيال الفنى الإسلامى. فيمضى العرض فى شكل تداعى أفكار وانطباعات شخصية حول قصيدة ما للشاعر اللاتينى «أوفيد» أو قصة قصيرة «للكاتب الأمريكى إدجار آلن بو» أو أغنية قديمة لعبد الوهاب...، ثم قصة الحب الأسطورية الفارسية بين «خسراو» و «شيرين» للشاعر «نظامى» (ق ١١ م) والتى كانت موضوعاً للفن الفارسى والتركى والآسيوى، وكيف أن الأميرة شيرين المغامرة كانت تصور دائماً على فرس وسط الغابات تبحث عن حبيبها. ثم حكايات عن ابن عربى (ق ١١ م) فى الأندلس، وأخيراً حكاية الأميرة «نورهان» التى تزوجت الإمبراطور «جاهانجير» (١٦١١م) فى الهند والتى كانت هوايتها الرياضية صيد النمور وقد تم تصويرهما فى لوحة موجودة بمعهد «السميثونيان» (Smithsonian) بواشنطن. وتتوقف الكاتبة عند هذه اللوحة وتحلل تفاصيلها التى تبين الموقع الرئيسى الذى تحتله «نورهان» بالبلاط الملكى وظهورها الواضح بالمجال السياسى العام فهى ليست جزءاً من أى حريم متوارى عن العيون.

فى آخر فصل من الكتاب تأخذنا المرنيسى معها إلى محل للملابس فى نيويورك لتشترى ثوباً لها، وتجد فى هذه الواقعة مناسبة لمزيد من التحليل «للخيال الذكورى الغربى» حول النساء والحريم والجمال: تفشل الكاتبة فى العثور على ثوب بالمقياس الذى يناسبها حيث إن الموجود هو المقياس الصغير أو الضيق جداً (رقم ٦) وهو المقاس الذى قررت البائعة لها أنه الحجم النموذجى المعيارى (the norm) وأنها أكبر من ذلك فهى إذاً خارج هذا الإطار، وتعلق الكاتبة أن هذا هو المعيار الجمالى الأمثل أو النموذج الذى تقرره صناعة ضخمة كاملة من بيوت الأزياء والمصانع والإعلانات والصور والمجلات والسينما.... إلخ، وهو شكل أو مقياس غير واقعى بالمرة ومفروض فرضاً على النساء الغربيات وتعتبره المرنيسى ربما أشد عنفاً من «الحجاب الإسلامى» (ص ٢١٣)، وفى الغرب تمثل هذه الظواهر التطور الطبيعى لأفكار «كانط» فى القرن التاسع عشر حول الجمال الأنثوى حيث أن الثقافة الغربية حالياً قد قررت أن المرأة لكى تكون جميلة يجب أن تتجمد فى شكلها ومقاييسها عند سن وجسد صبية فى عمر ١٤ ربيعاً مثلاً، أما المرأة الناضجة التى قد يكبر جسدها وتتغير ملامحها فعليها أن تتوارى أو تختفى لأنها أصبحت قبيحة، وهنا يستخدم الرجل الغربى عامل «الزمن» ضد المرأة لإقصائها بينما يستخدم الرجل المسلم عامل «المكان» عندما يقصيها من أماكن ومجالات كثيرة فى الحياة العامة أو عندما يخفيها ويغطيها بالحجاب. فى «الحريم الغربى» تقل قيمة المرأة كلما كبرت فى العمر والشكل ويتم تمجيد الشباب لأن ما بعده هو القبح بعينه، ولذا على النساء فى الغرب أن يعانين ويتعذبن ويتعرضن للجوع والمرض للوصول إلى النحافة المثالية ويتشكلن حسب العين الذكورية الفاحصة، وهكذا تتحول المرأة الغربية المتعلمة الأنيقة فى العصر الحديث إلى مجرد جارية فى حريم رأسمالى خفى (ص٢١٧). وهذه هى نهاية رحلة المرنيسى الفعلية فى بعض البلاد الأوروبية ورحلتها الاستكشافية فى نفس الوقت لصورة المرأة المسلمة فى الوجدان الغربى وفكرة الحريم ودلالاته ثم كيفية تصنيعه وتحوله إلى «حريم غربى» بحق، فيكتسب عنوان الكتاب (شهرزاد ترتحل غربا) معنى جديداً، ألا وهو انتقال مفهوم الحريم واستعباد المرأة إلى الغرب الحديث.

ورغم بعض الأفكار الجيدة التى ترد بالكتاب مثل انتقاد الكاتبة للخيال الغربى حول «الحريم» فى الإسلام، وفى لفت الانتباه إلى عالم التصوير الفنى فى الثقافات الإسلامية غير العربية وما تكشفه لنا حول تمثيل المرأة المسلمة القوية المتمكنة فى الحياة العامة، ثم أخيراً الخلاصة حيث تم استدراج القارئ (الغربى) إلى الإقرار بتشكيل وإيجاد «حريم» فى شكل حديث داخل ثقافته. رغم كل هذا يؤخذ على الكتاب شيئان:

(١) من حيث الشكل والمنهجية وطريقة العرض غير التقليدية التى أشرنا إليها، تعتمد الكاتبة على فكرة السرد الشخصى لتداعى أفكار أو لرحلة أفكار، فتنتقل من موضوع إلى آخر دون ترتيب أو تسلسل مريح ومع كثير من التكرار المرهق.

(٢) من حيث المضمون تنزلق المرنيسى كثيراً فى تناقض مع نفسها وأطروحاتها حين تلقى بعبارات وآراء تهاجم فيها بعضاً من مظاهر الثقافة الإسلامية فى تعميم وتحامل يقترب من الاستشراقية الغربية التى تزعم أنها تنتقدها.

وجدير بالذكر فى هذا المضمار كتاب للناقد المغربى الأصل أنور مجيد (إماطة اللثام عن الموروث: Unveiling Traditions). (٢٠٠٠) فى نقده لمشروع فاطمة المرنيسى ككل، فهو ينبهنا إلى إشكالية التناقض هذه فى أغلب كتاباتها حيث تقر بالقيم الإيجابية للإسلام وفاعليته الاجتماعية كدافع مقاوم للقهر والظلم وبحثاً عن العدل والإنصاف، ثم تعود وتقبل ضمنياً بالنموذج الغربى البرجوازى للديمقراطية والليبرالية الفردية المطلقة وتطالب بمجتمعات



جون فريدريك لويس - ١٨٤٩

عربية علمانية على ذلك المنوال، رافضة تفعيل الموروث الإسلامى حقيقةً فى هذه المجتمعات. كما أن نقدها لطبقة علماء الدين بسبب موالاتهم لأنظمة ذكورية قاهرة لابد أن ينسحب كذلك فى رأى مجيد على السياسات والإدارات الأمريكية والغربية الأخرى فى هيمنتها وتدخلها لبناء حكومات محلية تابعة ونخب من المثقفين والمفكرين والمهنيين موالية للنموذج والذوق الغربى.

المرأة المسلمة اليوم

فى ١٢ مارس ٢٠٠٤ استضاف كل من الرئيس الأمريكى بوش وقرينته لورا بوش مجموعة مكونة من ٢٥٠ سيدة يمثلن القيادات النسائية الناشطة فى مختلف بلاد العالم فى لقاء احتفالى بالبيت الأبيض بمناسبة يوم المرأة العالمى (٨ مارس). وقد ألقى كل من السيدة لورا ثم الرئيس الأمريكى كلمة ارتكزت حول دور الولايات المتحدة «التحريرى» فى حالة المرأة الأفغانية ثم العراقية (بلدين تم ضربهما وتقتيل شعوبهما وتخريبهما ثم احتلالهما عسكرياً). كما تكرر فى حديث كل منهما عشرات المرات كلمات «الحرية»، و«التحرر» و«الديمقراطية»، وهى القيم التى ستلقنها وتنشرها الولايات المتحدة فى بلاد «الشرق الأوسط الكبير» خاصة، لأن حقوق المرأة «ستتحقق فقط فى إطار الحرية والديمقراطية» كما يقصدها بوش أو التفكير الأمريكى. ففى تعليق له حول أن الديمقراطية لا تتعارض مع التعاليم الإسلامية، يطرح تفسيراً أكثر تحديداً لرؤيته عن الدين والحياة السياسية العامة كما يجب أن تكون: «هذا ما نؤمن به هنا فى أمريكا: دين يعتمد على المسئولية الأخلاقية الفردية ويرى أن التقاء الفرد بربه يتسق مع حقوق وواجبات الحكم الذاتى». كما تحدثت لورا بوش عن التقدم الهائل الذى أحرزته كل من المرأة الأفغانية والعراقية بعد حضور الأمريكيين ومهمتهم التحريرية.

فى ٥ ديسمبر ٢٠٠٣ وأثناء أزمة الجدل حول ارتداء طالبات المدارس الفرنسية الحجاب، أدلى الرئيس الفرنسى جاك شيراك بتصريح أثناء زيارته لمدرسة فرنسية فى تونس: «إن ارتداء الحجاب يُعد نوعاً من العدوان صعب علينا أن نقبله» (عن صحيفة الجارديان البريطانية) وفى تصريح آخر نقلاً عن رويترز «لا نستطيع أن نسمح بإشارات للدعوة الدينية لافتة للنظر».

وفى تحليلنا لهذين المثلين نجد ملامح من المنظور الغربى اليوم خلال خطابين يبدوان متناقضين ولكنهما فى الحقيقة متداخلان: أولاً إعادة تدوير أو استنساخ الخطاب المعتاد حول تحرير المرأة المسلمة المقهورة (الأفغانية والعراقية) الذى هو جزء من خطة التحرير الأكبر التى لا تتم إلا بالتدخل والغزو والهيمنة السياسية والاقتصادية.... إلى آخره والأهم بتغيير النموذج الحياتى والفهم للإسلام ؛ يجب أن يتحول الدين إلى تجربة شخصية شديدة الفردية والخصوصية، يتحول إلى مجموعة من الأخلاق الحميدة وليس هوية ثقافية جماعية أو عاملاً فعالاً فى الحياة العامة وشئون الجماعات.

ثانيا: ومشكلة الهوية الجماعية الظاهرة هى جزء أساسى من الإحساس «بعدوانية» الحجاب على رأس المرأة المسلمة فى أوروبا (رغم أن شيراك أدلى بتصريحه إثر مشاهدته للمحجبات فى تونس الدولة المسلمة !). وكلمته «عدوانية» تذكّرنا بأطروحة مهجة قحف فى كتابها عن خوف وإحساس الأوروبيين فى القرون الوسيطة بعنف الآخر المسلم المتفوق والمتمثل فى المرأة المسلمة القوية المحاربة. المفارقة الهائلة أن هذا «التصوير» فى الماضى فى اختلاطه مع المرحلة التالية المعكوسة التى قدّمت المرأة المقهورة فى الحريم قد أفرزا فى عالم اليوم: إحساس بالتهديد من الرمز الأزلى لخضوع المرأة المسلمة واحتجابها (غطاء الرأس)، فهو الآن يمثل ليس فقط مرئية هؤلاء النساء فى الحياة العامة ولكن أيضاً مرئية الهوية المسلمة الظاهرة. إنها الأزمة الأوروبية التاريخية مع الآخر المختلف دينياً وثقافياً المقاوم للدمج والطمس فى عالم عولى شمولى. وللكاتب والمحلل السياسى الفرنسى فرانسوا بورجا رأى حول أن المسلم المعاصر أصبح تجسيداً حياً للأزمات والمخاوف الدفينة فى الوجدان الأوروبى، ولذلك كثرت دعاوى الاندماج الذى هو فى الواقع «اختفاء أو تحلّل»، لأن «المسلم الجيد (المقبول) هو الذى لا يكون مسلماً، فى حقيقة الأمر. (من كتاب «تحديث الإسلام» ٢٠٠٣ - Modernizing Islam).

يستطيع الغرب أن يتعامل مع فكرة المرأة المسلمة المحجبة. معزولةً وجاهلةً ومظلومةً. ولكنه يرتبك حينما تظهر فى الحياة العامة تشارك فى أنشطتها وتكسر نمطية صورة الحريم الإسلامى ومنظومة القهر والتخلف المفترضة. أو ربما تكون فى مظهرها وحراكها تذكيراً مزعجًا للمجتمعات الأوروبية بالهوية الدينية بصفة عامة التى حاربوها طويلاً فى تاريخهم حتى نجحوا فى نزعها، وبتعبير فرانسوا بورجا «de-Christianized» لتصبح هذه المجتمعات «معادية عداء سافراً للدين وليست فقط علمانية» حقيقية بمعنى محايدة كما يزعمون. وينتقد بشدة طلال أسد. أحد علماء الأنثربولوجيا البارزين فى العصر الحديث. الموقف الأوروبى تجاه الأقليات المسلمة، خاصة التيار الليبرالى العلمانى ويكشف ازدواج المعايير لديهم، ثم يصف السياسات الأمريكية الحالية فى فرض إرادتها وثقافتها على الشعوب وفى «عولمة» مفاهيم الحرية الدينية وحقوق الإنسان بأنه «المشروع الأمريكى للخلاص العلمانى»، بمعنى تحرير «الإيمان الدينى» للشعوب من أى قواعد أو ثوابت قانونية أو تشريعية كما تتحرر السلعة والملكية الخاصة ويمكن التفاوض بشأنها وبيعها وشرائها واستبدالها وتغييرها حسب المصلحة الفردية. (من كتاب «أشكال من العلمانية:المسيحية والإسلام والحداثة»، ٢٠٠٣ . Formations of the Secular).

يبدو أنه قد كُتب على المرأة المسلمة. بل والمرأة العربية. أن تحمل على كتفيها عبء «الرمزية»؛ أن يتم «تشييؤها» وتُنزع انسانيتها وتفردها لتتحول إلى مجرد رمز أو أيقونة تشير إلى شبكة متداخلة من العُقد التاريخية والأزمات النفسية والاجتماعية للشعوب. أما فيما يتعلق بكيف يرى المسلمون أنفسهم المرأة المسلمة ورمزيتها فى منظومة الهوية، فتلك قصة أخرى... ■


www.maccarpet.com
متواجد في مراكز بيع بواقي التصدير المنتشرة في كل ارجاء مصر



الأرض كروية



جـون جـراى

الاعتقاد بأن عملية العولمة المستمرة سوف تؤدى إلى تغيير أساسى فى الأحوال البشرية ليس أمرا جديدا فقد سبق أن عبر ماركس وانجلز عن ذلك عام ١٨٤٨ فى النص المعروف باسم المانفستو الشيوعى:

«كل ما هو جامد يذوب فى الهواء وكل ما هو مقدس يدنس والإنسان يجبر أخيرا على مواجهة ظروفه الحياتية الواقعية وعلاقاته بنوعه بحواسه الواعية.

إن البرجوازية تحتاج إلى سوق تتوسع باستمرار فى أنحاء العالم لتحتوى بضائعها، لابد لها من أسواق فى كل مكان وعلاقات فى كل مكان. ومن خلال استغلالها للسوق العالمية أكسبت البرجوازية الإنتاج والاستهلاك صفة كوزموبوليتانية فى كل بلد. إنها تجبر الشعوب ـ تحت تهديد الانقراض ـ على تبنى الأسلوب البرجوازى للإنتاج وتجبرهم على إدخال ما تسميه حضارة إلى مجتمعاتهم أى أن يصبحوا هم أيضا برجوازيين. بتعبير آخر: تخلق عالما على شاكلتها».

لم يكن يراود ماركس وانجلز شك فى أنهما يشهدان بزوغ السوق الكونية - نظام عالمى للإنتاج والاستهلاك يتعدى الحدود الوطنية والثقافية. وكان هذا التطور موضع ترحيبهما ليس فقط بسبب الثروة التى يمكن أن تتولد عنه ولكن أيضا لأنهما اعتقدا أنه يمكّن البشرية من التغلب على نزاعات الماضى. ففى السوق الكونية ينتهى مصير القومية والدين إلى التلاشى وسيكون هناك الكثير من الاختلاجات - الحروب الثورات والثورات المضادة - قبل أن يتأسس النظام الشيوعى. ولكن حين تتم العولمة عملها سوف يبدأ عصر جديد من حياة البشرية.

لقد زالت تقريبا معظم النظم الاقتصادية المركزية التى بنيت على رؤية ماركس للشيوعية وانتهت الحركات السياسية الجماهيرية التى ألهمتها الماركسية ومع ذلك فإن نظرة ماركس للعولمة مازالت تعيش وبأشد ما تكون فى كتابات توماس فريدمان.

مثل ماركس، يؤمن فريدمان بأن العولمة فى النهاية تنسجم مع نظام اقتصادى واحد، ومثل ماركس يؤمن بأن هذا النظام سيمكن البشرية من نبذ الحروب والطغيان والفقر.

ويحسب لفريدمان أنه يقر بتوازى نظرته مع نظرة ماركس ويشير إلى محادثة كاشفة فى هارفارد حيث نبهه المنظر السياسى مايكل ساندل على حقيقة أن عملية (التسطيح) الكونى التى يناقشها فى كتابه الجديد كان قد

The World is Flat: A Brief History of the Twenty-First Century
العالم مسطح
Thomas Friedman
Farrar, Straus and Giroux, 2005, 488pp., $27.50

عن مجلة:
Newyork review of Books

ترجمة: بثينة الناصرى

أوردها ماركس لأول مرة واقتبس نصوصا مطولة من المانفستو الشيوعى ـ بضمنها الفقرة المشار إليها أعلاه - ومدح ماركس لبصيرته. ونحن نرحب بهذا الإقرار بالتوازى بين نظرته للعولمة ونظرية ماركس فى التاريخ ونعتبره مفيدا.

اشتهر فريدمان بأنه أقوى داعية معاصر لأفكار الليبرالية الجديدة. إن الليبراليين الجدد لهم وجهات نظر مختلفة ومتعددة فى القضايا السياسية والاجتماعية تتراوح بين مواقف شديدة المحافظة يمثلها فريدريتش هايك إلى مواقف شديدة التحرر يمثلها ملتون فريدمان. ولكنها تتفق جميعا على اعتبار السوق الحرة هى مصدر الحرية الإنسانية. ورغم انه فى بعض كتاباته يظهر قلقا من ضحايا السوق ولكن توماس فريدمان داعية متحمس لمذهب الليبرالية الجديدة. ففى رأيه أن السوق الحرة هى التى تؤدى إلى إقامة المجتمع الإنسانى الحر وقد روج لهذا بدون هوادة فى كتبه وأعمدته فى نيويورك تايمز.

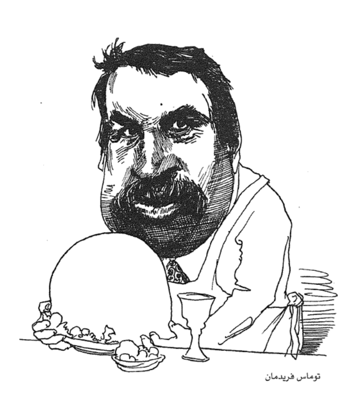
لقد كانت آراء فريدمان شديدة التأثير دوما وهى تشكل أفكار الرؤساء والسياسة الأمريكية فى عدد من القضايا وربما يكون من المفيد أن نلاحظ القضايا التى يلتقى فيها بأفكار ماركس. ولأن الليبرالية الجديدة والماركسية كانا على طرفى نقيض فى الحرب الباردة فقد كان الافتراض دائما أنهما أنظمة أفكار معادية لبعضها البعض. وفى الواقع هما ينتميان أساسا إلى نفس أسلوب التفكير ويشتركان فى نفس المحددات المعوقة.

بالنسبة للماركسيين والليبراليين الجدد، فإن التقدم التكنولوجى هو الذى يغذى التطور الاقتصادى والقوى الاقتصادية التى تشكل المجتمع. أما السياسة والثقافة فهى ظواهر ثانوية قادرة أحيانا على إعاقة التقدم الإنسانى ولكنها فى النهاية لا تستطيع الوقوف ضد التكنولوجيا المتطورة والإنتاجية النامية.

يعاضد فريدمان بدون لبس هذه الفلسفة ويكتب إن العديد من الأشخاص يسألونه فى أحيان كثيرة ما إذا كان يعتنق الحتمية التكنولوجية (المذهب الذى يؤمن بأن التكنولوجيا هى القادرة على تغيير المجتمعات)، وبالحماسة الصافية التى تعتبر ميزة فى أسلوبه النثرى يقول: «هذا سؤال شرعى. لذلك دعونى أجب عليه مباشرة: أنا حتمى تكنولوجى. اقر بالذنب».

قد تتضمن الحتمية التكنولوجية جوهر الحقيقة ولكنها توحى بأنها فكرة مبسطة عن التاريخ وقد تكون مضللة. هذا ما يوضحه فريدمان فى حديثه عن مأساة الاتحاد السوفيتى ومع الإقرار بأنه لم يكن هناك (سبب مفرد) يستطرد:

إلى درجة ما، نخر النمل الأبيض أساسات الاتحاد السوفيتى الذى كانت قد أضعفته التناقضات وعدم الكفاءة الداخلية. إلى درجة ما فإن الحشد العسكرى الذى إقامته إدارة ريجان فى أوروبا أجبرت الكرملين على الإفلاس الذاتى وهو ينفق على الرؤوس الحربية



توماس فريدمان

والى درجة ما فإن الجهود الفاشلة لميخائيل غورباتشوف لإصلاح شيء غير قابل للإصلاح قضت على الشيوعية. ولكن لابد من الإشارة إلى نقطة كانت الأولى بين المتعادلين: الثورة المعلوماتية التى بدأت فى أوائل إلى منتصف الثمانينيات. فالأنظمة الشمولية تعتمد على أفكار المعلومات والقوة وبدأ فيض المعلومات يتسرب من الستار الحديدى والفضل يعود إلى انتشار آلات الفاكس والهواتف وأدوات الاتصال الحديثة الأخرى.

الذى يثير الاهتمام فى هذه القائمة هو ما لم يذكره فيها. لم يكن هناك إشارة إلى دور التضامن والكنيسة الكاثوليكية فى أن تكون بولندة أول دولة ما بعد الشيوعية أو حركات الاستقلال القوية التى نشأت فى دول البلطيق خلال الثمانينيات. وما يثير الانتباه أكثر انه لم يكن هناك ذكر لحرب أفغانستان، ففى كل المقاييس كانت الهزيمة الاستراتيجية على أيدى القوى الإسلامية المدعومة من الغرب (ويضمنها البعض الذى شكل فيما بعد منظمة القاعدة) هى الحاسمة فى انهيار قوة السوفييت. إذا تجاهل فريدمان هذه الأحداث فذلك لأنها تؤكد قوة الدين والقومية وهى قوى من وجهة نظره المبسطة والحاسمة: قوى فى طور التلاشى.

إنه لمن سخرية التاريخ أن رؤية للعالم سقطت بانهيار الشيوعية سوف يتبناها - فى بعض اكثر نواحيها ضعفا - المنتصرون فى الحرب الباردة. فالليبراليون الجدد من أمثال فريدمان أعادوا إنتاج اضعف ملامح الفكر الماركسى وهى استهانته المستمرة بالحركات القومية والدينية ونظرته أحادية الاتجاه للتاريخ.

لقد فشلوا فى استيعاب نفاذ بصيرة ماركس فى وصف الرأسمالية بالفوضى والتدمير الذاتى. من وجهة نظر ماركس كانت السوق الحرة قوة ثورية ولكنه كان يدرك أن توسعها عبر العالم سيكون مدمرا وعنيفا وبانتشار الرأسمالية ينقلب المجتمع رأسا على عقب وتدمر صناعات كاملة وأساليب حياة وأنظمة وهذا لا يكون عبر عملية سلمية وفى الواقع قد رافق ذلك صراعات كبيرة وأزمات اجتماعية. إن توسع الرأسمالية الأوروبية فى القرن التاسع عشر تضمن حروب الأفيون والإبادة فى الكونغو البلجيكية واللعبة الكبرى فى آسيا الوسطى وأشكالاً كثيرة أخرى من الغزو الامبريالى والتنافس.

إن ما يبدو نصرا للرأسمالية الكونية فى نهاية القرن العشرين لم يحدث إلا بعد حربين عالميتين وحرب باردة وصراعات استعمارية جديدة وحشية.

على مدى مائتى سنة مضت صاحبت انتشار الرأسمالية والثورة الصناعية حروب وثورات وهذه حقائق ما كانت لتفاجئ ماركس. فلماذا يتوقع فريدمان والليبراليون الجدد والآخرون أن الأمور سوف تختلف فى القرن الواحد والعشرين؟

يكمن جزء من الإجابة فى إبهام فكرة العولمة. ففى النقاش الراهن تدمج عادة فكرتان: الإيمان بأننا نعيش فى فترة تجديد تكنولوجى سريع ومستمر يؤثر فى ربط الأحداث والأنشطة فى العالم على نطاق أوسع وأسرع مما سبق. والإيمان بأن هذه العملية تؤدى إلى نظام اقتصادى عالمى موحد. أول فكرة هى مقترح مجرب وواقعى والثانى تأكيد أيديولوجى لا أرضية له، ومثل ماركس اسقط فريدمان الاثنين من حسابه.

فى كتابه (العالم مسطح) يقول لنا فريدمان إن العولمة لها ثلاث مراحل: الأولى من ١٤٩٢ - ١٨٠٠ حيث انفتحت الأقطار والحكومات على التجارة مع العالم الجديد وكان يقودها التوسع العسكرى وكمية قوة الحصان وقوة الريح المتوفرة لدى البلدان. الثانية من ١٨٠٠ إلى ٢٠٠٠ حيث يقوم بالاندماج الكونى شركات متعددة الجنسية وتقودها المكائن البخارية والسكك الحديدية. والثالثة حيث يكون الأفراد هم القوى المحركة والتكنولوجيا الحاسمة هى شبكة الألياف البصرية العالمية.

فى كل من هذه المراحل، كما يقول فريدمان، كانت التكنولوجيا هى القوة الدافعة والعولمة هى المنتج الثانوى للتطور التكنولوجى. وهنا فريدمان يبتعد عن الرأى الشائع بين الاقتصاديين المعاصرين الذين يرون أن العولمة هى نتيجة سياسات (نقض تنظيم الاقتصاد) وهو بهذا أقرب إلى ماركس والى حقائق التاريخ.

إن ما نشهده اليوم - فى أى منظور بعيد المدى - ما هو إلا أحدث مرحلة من صنعنة(*) العالم. فى القرن التاسع عشر تقلص العالم باختراع التلغراف واليوم يتقلص مرة أخرى نتيجة للانترنيت. على عكس ما يقوله فريدمان، فإن ثورة الاتصالات لا تؤشر إلى نقلة كمية فى أحوال البشرية. إن استخدامات البترول والكهرباء غيرت الحياة البشرية بصورة اعمق مما فعلت أى من تقنيات المعلومات الحديثة. وحتى فى هذا لم تستطع هذه فى إنهاء الحروب والطغيان وابتداء عصر جديد من السلام والرفاهية. فمثل الاختراعات التقنية الأخرى استخدمت تقنيات المعلومات لعدة أغراض أخرى وأصبحت جزءا من الصراعات الاعتيادية للتاريخ.

من الضرورى أن نميز بين العولمة - وهى عملية صنعنة العالم الجارية - والأنظمة الاقتصادية المتعددة التى حدثت فيها هذه العملية. لم تتوقع العولمة حين جاء لينين إلى الحكم فى روسيا. استمرت - بل تسارعت بسبب سياسات ستالين الزراعية الاشتراكية، كما لم تبطئ العولمة بأى شكل بسبب الأنظمة السلطوية التى تطورت فى آسيا - فى اليابان أولا فى عصر الميجى وبعد ذلك فى الفترة المتعسكرة ثم فيما بعد الحرب العالمية الثانية فى كوريا وتايوان. كل هذه الأنظمة كانت العربات التى تقدمت بها العولمة. واستمرت صنعنة العالم حين انهار النظام الاقتصادى الليبرالى العالمى بعد الحرب العالمية الأولى وسوف تستمر إذا انهار بدوره أيضا النظام الاقتصادى العالمى الذى تأسس بعد سقوط الشيوعية.

مثل ماركس، يؤمن فريدمان بأن العولمة فى النهاية تنسجم مع نظام اقتصادى واحد، ومثل ماركس يؤمن بأن هذا النظام سيمكن البشرية من نبذ الحروب والطغيان والفقر

ليس هناك رابطة منظومة بين العولمة والسوق الحرة. فهى ليست اكثر ودا بالضرورة مع الرأسمالية الليبرالية منها إلى التخطيط المركزى أو سلطوية دول شرق آسيا. لقد أصبحت العولمة - بدافع التغييرات التقنية التى حدثت فى كثير من الأنظمة، أقوى من أى منها. وهذه هى الحقيقة التى كان ينبغى على فريدمان - باعتباره مؤمنا بالحتمية التكنولوجية - قبولها فورا. إذا لم يفعل ذلك فإن هذا يبين كيف تفتقد الأمال الطوباوية التى يعلقها على عملية تزخر بالصراعات والتناقضات، لأى أساس.. إن العولمة تجعل العالم أصغر. وقد تجعل العالم أيضا - أو بعضا منه - اكثر ثراء. ولكنها لا تجعله اكثر سلاما أو أكثر ليبرالية ناهيك عن جعله مسطحا.

كانت خاطرة اكتشاف فريدمان لتسطيح العالم والذى أصبح شهيرا الآن قد جاءته وهو يتحدث إلى نادان نايلكانى رئيس مجلس إدارة إحدى الشركات الهندية الرائدة فى مجال التكنولوجيا المتطورة وهى شركة انفوسيس تكنولوجيز فى مقرها فى بنجالور. وقد قال محدثه الهندى: «توم لقد تمت تسوية الملعب» كانت الملاحظة عادية وشائعة ولكنها أصابت فريدمان بدفق من وحى الاكتشاف: «فكرت أن ما كان نادان يقوله هو أن الملعب قد سطح.. سطح؟ سطح؟ يا الهى! انه يقول لى أن العالم مسطح»، قبل خمسمائة عام عاد كولومبوس سالما ليثبت بشكل نهائى أن العالم كان كرويا» وفى الواقع لم يكن كولومبوس هو الذى اثبت ذلك وإنما الملاح البرتغالى فرديناند ماجلان الذى دارت سفينته الكرة الأرضية فى رحلة استمرت ثلاث سنوات من ١٥١٩ إلى ١٥٢٢. على أية حال، فإن فريدمان يرى نفسه كولومبس هذا العصر الذى اكتشف أن العالم لم يعد كرويا: «كتبت هذه الكلمات فى مفكرتى: إن العالم مسطح».

ويمضى استخدام مجاز تسطيح العالم بدون هوادة فى كتابه المطول. ولكن ما يثير القلق ليس تكراره الشديد وإنما فشل فريدمان فى الإقرار بأن العالم وبعدة وسائل - وبعضها من السهل ملاحظته، يصبح اقل تسطيحا. وفى حين انه يقر بوجود عالم «غير مسطح» يتألف من شعوب اقل حظا فى الحصول على منافع التكنولوجيا الحديثة لكنه لا يربط أبدا نمو هذا العالم السفلى من الفقراء نسبيا مع تقدم العولمة. وأحيانا فشله فى الربط يكاد يكون هزليا. فحين يتذكر زيارته إلى الشركة الهندية فى بنجالور، يكتب فريدمان:

«يمكن الوصول إلى مقر شركة انفوسيس من طريق وعر فيه أبقار مقدسة وعربات تجرها الخيول وعربات ركشو بالمحركات كلها تشق الطريق إلى جانب سياراتنا الفخمة. حالما تدخل عبر بوابات انفوسيس تصبح فى عالم مختلف. هناك حوض

الأرض كروية

سباحة ضخم بحجم ما نراه في المنتجعات السياحية وسط أحجار زينة ومسطحات خضراء إلى جانب مخضرة جولف. وهناك مطاعم متعددة وناد صحى خرافي».

ويلاحظ فريدمان أن شركة انفوسيس تمتلك مولداتها الكهربائية الخاصة بها ولا يسأل لماذا كان هذا ضروريا أو يعلق على الهوة الواسعة في مستويات الحياة في المنطقة التي تمثلها. ومع ذلك فإن شركة انفوسيس لم تستطع منافسة الاسواق العالمية بشكل فعال الا بانفصالها عن بيئتها المحلية. إن انفوسيس تبرهن على أن العولمة لها تأثير في القضاء على بعض اللامساواة في الأسواق العالمية ولكن الشركة لم تنجح إلا بالاستعانة بخدمات وبنى تحتية يفتقر إليها المجتمع المحيط بها.

وبينما تقضى العولمة على بعض اللامساواة فإنها تخلق أخرى. يخبرنا فريدمان انه يؤيد ما يسميه «تسطيح رحيم» ويبدو انه يعنى بعض السياسات المركزية أو الاشتراكية الديمقراطية التي تهدف إلى تحريك الوظائف وفي نفس الوقت الحفاظ على الضمان الاقتصادي مثل المعاشات الشخصية. في أمريكا قد تكون هذه الاقتراحات مفيدة ومن الغريب انه في البلدان التي تعرضت اكثر من غيرها إلى نتائج العولمة المدمرة يبدو أن فريدمان يفضل اشد السياسات الليبرالية الجديدة تشددا. ويصف سقوط جدار برلين بأنه (حدث من أحداث تسطيح العالم) ويذكر روسيا باعتبارها إحدى البلدان التي انتفعت بشدة من العالم المسطح الجديد.

ليس هناك شك في أن انهيار السوفييت كان يمثل تقدما في مسيرة الحرية الإنسانية ولكن منذ ذلك الانهيار وروسيا تعانى من ارتفاع مستويات الفقر المدقع وزيادات هائلة في اللامساواة في توزيع الثروة ويبدو واضحا أن العلاج الاقتصادي بالصدمة حسب نصيحة الغرب فور الانهيار الشيوعي قد ساهم في هذه الآثار. لقد مسح إطلاق الأسعار مدخرات الأسر الصغيرة وبقصر منافع الصناعات الحكومية المخصخصة على عدد قليل في الداخل أدى إلى تركيز الثروة في أياد قليلة. نتيجة لذلك أقصيت قطاعات كبيرة من الشعب الروسي من منافع السوق العالمية. وبدون جدال كان يمكن لسياسات أخرى أن تتجنب هذه النتائج.[1]

نظرا للإرث السوفيتي كانت عملية الانتقال ستكون مطولة وصعبة. وكان محاولة تحقيقها في مدى سنوات قليلة مستحيلا والعلاج بالصدمة تسبب بإفقار ملايين الناس كما انه أشعل الكراهية ضد الغرب. إن التغيير الاقتصادي الاجتماعي بنفس المعدل الذي حصل في روسيا ما بعد الشيوعية ينحو إلى أحداث ردة صدمة سياسية، وظهور فلاديمير بوتين يمكن أن ينظر إليه باعتباره نتيجة غير مقصودة لسياسات السوق الحرة برعاية الغرب. بشكل ما تستمر سياسات السوق الحرة ولكن قام بوتين بإعادة السيطرة السياسية على الاقتصاد ككل وألجم الأنشطة السياسية لأعضاء حكومة الأقلية وأبدى درجة من الاستقلالية من التأثيرات الغربية. ونتيجة لذلك يبدو نظامه شبه الشمولى انه يمتلك شرعية شعبية افتقدها يلتسن، كما لا يبدو هناك أمل في «رأسمالية ديمقراطية» على النمط الغربي.

ليس للعولمة نزعة متأصلة لإنشاء سوق حرة أو ديمقراطية ليبرالية. ولا هي تتنبأ بنهاية القومية أو منافسات القوى العظمى. ويروى فريدمان وهو يصف حواراً طويلاً مع رئيس مجلس إدارة شركة العاب صغيرة في بانجالور كيف اختتم الهندي حديثه بقوله: «سوف تكون الهند قوة عظمى وسوف نسود». ويجيب فريدمان: «تسود من؟»، ويوحى رد فريدمان بأن المرحلة الحالية من العولمة تنحو إلى تخلخل القوة بين الدول المعنية. وفي الواقع أن ما تفعله هو خلق قوى عظمى جديدة وهذا هو أحد الأسباب التي جعلت الصين والهند تتبنى العولمة.

يفسر الليبراليون الجدد الدافع إلى العولمة على أنه البحث عن إنتاجية اكبر ويرون القومية كنوع من التخلف الثقافي الذي يعمل على إبطاء تقدم العولمة. ومع ذلك فإن الانطلاقة الاقتصادية في إنجلترا والولايات المتحدة حدثت على خلفية إحساس قوى بالقومية كما كانت المقاومة القومية للقوى الغربية هي الدافع القوى للتطور الاقتصادي في يابان الميجى.



لقد غذت القومية النمو السريع للرأسمالية في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين[2] وهي تفعل ذات الشيء الآن للصين والهند. ففي كلا البلدين تم تبنى العولمة ليس فقط لما يمكن أن تجلبه من رفاهية وإنما للفرصة التي تقدمها لتحدى هيمنة الغرب. وحين تصبح الصين والهند قوتين عظميين سوف يطالبان بالاعتراف بثقافاتهما وقيمهما المتميزة وسوف يكون على المؤسسات الدولية إعادة تشكيل هياكلها لتعكس شرعية تعدد النماذج الاقتصادية والسياسية. عند ذلك سوف تكون المطالب العالمية للولايات المتحدة والدول الغربية الأخرى قابلة للجدل وسوف يتغير ميزان القوى في العالم.

في كتابه (ليكسوس وشجرة الزيتون) الصادر في ١٩٩١ ركز فريدمان على التوتر بين قوى (ليكسوس) للاندماج الاقتصادي العالمي وقوى (شجرة الزيتون) للهوية الثقافية. وفي كتابه (العالم مسطح) يقول لنا انه بعد ١١ سبتمبر قضى الكثير من الوقت مسافرا في العالمين العربي والإسلامي وقد ضيع طريق العولمة. وفي الواقع ليس العولمة التي تاه عنها وإنما قوى الهوية التي تشكلها. يكتب فريدمان بأن الدولة - الأمة هي (اكبر منبع للاحتكاك) في الأسواق العالمية. وفي الواقع أن مقاومة العولمة هي الأكثر هيمنة في دول متقدمة مثل فرنسا وهولندا وفي الولايات المتحدة منها في الدول النامية. وفريدمان ذاته يعبر عن قلقه من تأثير الاستعانة بعمال أجانب على التوظيف الأمريكي وكان هناك ميل مستمر نحو تطبيق إجراءات الحماية في السياسات التجارية في إدارة بوش.

إن تصاعد المشاعر القومية هو جزء من عملية العولمة ومثلها تزايد حدة المنافسات الجيوبوليتيكية. وكما فعلت في أيام (اللعبة الكبرى) في العقود التي قادت للحرب العالمية الأولى فإن الصنعنة الجارية تؤدى إلى تزاحم بالمناكب على الموارد الطبيعية. فالولايات المتحدة وروسيا والصين والهند واليابان ودول الاتحاد الأوروبي كلها تحاول أن تضمن مصادر الطاقة وميدان التنافس يمتد من آسيا الوسطى مرورا بالخليج الفارسي (العربي) إلى أفريقيا وأجزاء من أمريكا اللاتينية. والقرن القادم قد يتميز بتكرار حروب الطاقة بسبب صراع القوى العظمى على الهيمنة على هيدروكاربون الكرة الأرضية.[3]

علاوة على ذلك تبدو صنعنة العالم وكأنها تأتي على خلفية محدودات بيئية خطيرة. ويتزايد عدد الخبراء المراقبين الذين يرون أن احتياطي النفط العالمي قد وصل الذروة التي يبدأ بعدها الاضمحلال[4] وهناك إجماع من علماء المناخ بأن الانتقال العالمي إلى أسلوب الحياة الصناعي المعتمد أساسا على الاستهلاك الشديد للطاقة يساهم في زيادة حرارة الكرة الأرضية. وإذا كان هناك أساس قوى لهذه المخاوف، فإن المرحلة التالية للعولمة قد تشهد اضطرابات كبيرة بحجم ما شهده القرن العشرون.

قد يكون من الخطأ الإيحاء بأن فريدمان غافل عن هذه الأخطار، ففي استطراد مثير للاهتمام يكتب:

«اللينينية الإسلامية»، في أشكال عديدة، ظهرت بنفس المضمون التاريخي الذي ظهر فيه الأيديولوجيات الأوروبية المتطرفة في القرنين التاسع عشر والعشرين. نتجت الفاشية والماركسية اللينينية من الصنعنة والتحديث السريعين في ألمانيا ووسط أوروبا حيث تبعثرت فجأة المجتمعات التي كانت تعيش في قرى محافظة وعائلات متفرعة.

ومرة أخرى يقر فريدمان بأن الكثير من اختراعات المرحلة الحالية للعولمة يعاد إنتاجها في منظمة القاعدة. ففي العقدين





فريدمان يرى نفسه كولومبس هذا العصر الذي اكتشف أن العالم لم يعد كرويا: «كتبت هذه الكلمات في مفكرتي: إن العالم مسطح»



الماضيين بعض أهم الشركات العالمية توقفت عن أن تكون بيروقراطيات رأسية وأصبحت عبارة عن شبكات من الرأسماليين والمستثمرين. وقد قلدت القاعدة هذا التغيير وهي تعمل على أساس شبكة من خلايا مستقلة بدلا عن شكل المنظمات المركزية للأحزاب الثورية في الماضي.

وربما اكثر ما يثير الاهتمام هو أن فريدمان يقر بأن اعتماد أمريكا على البترول المستورد يعرضها للهجمات ويحث على استقلالية الطاقة الأمريكية:

«إذا جعل الرئيس بوش استقلالية الطاقة هدفه الأعلى فإنه في ضربة واحدة سوف يجفف منابع الإرهاب ويجبر إيران وروسيا وفنزويلا والسعودية على طريق الإصلاح - وهو ما لن يفعلوه مادام سعر برميل البترول ٥٠ دولارًا - وسوف يقوى من وضع الدولار ويحسن موقفه في أوروبا بالقيام بعمل ضخم لتقليل حرارة الكرة الأرضية».



إن دعوة فريدمان لاستقلالية الطاقة الأمريكية يوضح خطأ وجهة النظر الأحادية للتاريخ. قد تكون السيادة المطلقة على الطاقة سياسة حكيمة ولكنها تؤشر على تراجع عن العولمة. لقد بشر كتاب (ليكسوس وشجرة الزيتون) بعالم موحد ومتسق. ومنذ ذلك الحين تعرضت الولايات المتحدة إلى هجمات إرهابية وتورطت في فخ مقاومة شديدة في العراق. وعلى هذه الخلفية فإن اقتراح فصل أحد أهم سلاسل المؤونة التي تربط الولايات المتحدة بالعالم قد تبدو شديدة الإغراء. وكما فعل في كتبه السابقة فإن فريدمان عبر عن مزاج أكبر وأقوى وفي هذا المجال قد يعتبر كتاب (العالم مسطح) دليلا متبصرا لمستقبل السياسة الأمريكية.

ومع ذلك وبينما قد تصب استقلالية اكبر للطاقة في المصالح القومية الأمريكية فإن فكرة كونها قد تجبر الدول المتمردة على طريق إصلاح ليبرالي جديد هو من قبيل التمنيات. إن انتكاسة كبيرة في سعر البترول سوف تقلقل بالتأكيد استقرار اقتصاديات الخليج ووسط آسيا من السعودية إلى تركمنستان وفي بعض الدول سوف تؤدي إلى تأسيس حكم ديمقراطي. على أية حال في عدد من الحالات من المحتمل أن يكون المستفيد الوحيد هو الأصولية. هل يعتقد فريدمان حقا إن الديمقراطية في السعودية سوف تنتج نظاما ليبراليا مؤيدا للغرب؟ في هذه وفي دول أخرى قد تسرع استقلالية الطاقة الأمريكية في تقدم الإسلام الراديكالي.

وكما فعلت في الماضي فإن العولمة تسبب أزمات ليس لها حلول مرضية. وهذا لا يعني أن هذه المشاكل لا يمكن بشكل من الأشكال إدارتها بذكاء ولكن ما نحن في حاجة إليه هو عكس الخيال الطوباوي. في التواء غريب هاجر العقل الطوباوي من اليسار إلى اليمين، من الأكاديمية إلى مكتبات المطارات. في القرن التاسع عشر كان الناشطون السياسيون والمنظرون الاشتراكيون الراديكاليون من أمثال ماركس يعدون بأن التكنولوجيا الجديدة هي التي تخلق عالما جديدا. اليوم بعض كبار رجال الأعمال يحملون نفس الرسالة. وهناك الكثير من الكتب التي تبشر بتحول اقتصادي عالمي وتقترح بإمكانية إعادة هيكلة الحكومات للتكيف مع هذا التحول كما تفعل الشركات الكبرى. وكتاب (العالم مسطح) هو نموذج ساطع في هذا المجال.

لسوء الحظ فإن مشاكل العولمة اكثر تعقيدا من مشاكل الشركات. والدول لا يمكن التعامل معها مثل الشركات المفلسة. والنقلات الكبيرة في الثروة والقوة تتضمن صراعات متنافسة. إن العولمة هي تغير ثوري ولكنها أيضا استمرار لنزاعات الماضي. وهي في بعض النواحي المهمة «تسوي الملعب» كما قال محدث فريدمان الهندي وهي بهذا قوة للتقدم البشري. في نفس الوقت تذكي العولمة الحماسة القومية والدينية وتطلق شرارة صراع من اجل الموارد الطبيعية. من وجهة نظر فريدمان الليبرالية الجديدة، شبه الماركسية، فإن هذه الصراعات هي بمثابة احتكاكات في تروس ماكينة لا تتوقف. في الواقع انه جزء من العملية نفسها والتي لا يعرف مستقبلها. سنكون افضل لو تقبلنا هذه الحقيقة وعملنا ما بوسعنا للتكيف معها.

الهوامش

(١) لتحليل الفشل والتكلفة الاجتماعية لإصلاح السوق برعاية غربية في روسيا ما بعد الشيوعية ولتقييم السياسات البديلة انظر كتاب بيتر رضوى ودميترى جلينسكى (مأساة إصلاحات روسيا: بلشفية السوق ضد الديمقراطية) - مطبعة معهد الولايات المتحدة للسلام ٢٠٠١

(٢) للاطلاع على وجهة نظر مهمة حول دور القومية في ظهور الرأسمالية انظر كتاب ليا جرينفيلد (القومية: خمسة طرق إلى الحداثة) مطبعة جامعة هارفارد ١٩٩٢

(٣) انظر مايكل تى كلير (حروب الموارد: الخارطة الجديدة للصراع العالمي) ميتروبوليتان ٢٠٠١

(٤) انظر كنيث اس ديفيس (ذروة هبارد: نقص البترول العالمي الوشيك) مطبعة جامعة برنستون ٢٠٠١.

• ترجمنا كلمة industrialization إلى صنعنة أي تحويل الدولة إلى صناعية



قد لا تكون قصة «منده» السودانية، التى اشتهرت فى ألمانيا واقعية فى كل تفاصيلها. وقد يكون لحقها ما يلحق الرواية عادة من بعض الخيال أو من أكثره، بحكم مقتضيات الأدب أو شهوة الأضواء أو غرض السياسة. وقد لا يتعدى - من الزاوية الأخرى للرؤية - الاختلاف بين الواقع والحكاية غير التفاصيل.

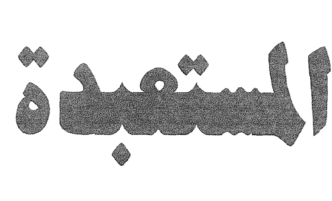
ربما لن نعرف أبداً، رغم برنامج الـ BBC، ورغم حكم الأولدبيلى. ولكننا نعرف قطعًا أن شيئًا من هذا حدث. وأن شيئًا من الغرض/ أو الجهل. رغم المهنية - اختبأ بين السطور.

نعرف قطعًا أن بعضاً من قناعاتنا «النظرية» يخلى مكاناً - ضاق أو اتسع - لموروثات وعادات وتقاليد.. وربما لأهواء أو مصالح.

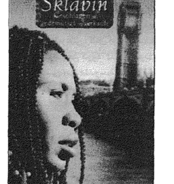
ونعرف قطعاً - ربما قبل كل هذا وبعده - أن القصة/ الكتاب أخذ مكانه بين الكتب الأكثر مبيعاً فى ألمانيا.. ونعرف أيضاً أن هناك من يقرأه وهو على استعداد - لأسباب عدة - أن يصدق كل حرف فيه، ليبنى تصوراته الذهنية عنا: عربًا ومسلمين.. و«مجاهدين».

المحـــــرر

كتبته سودانية ويقرأه الأوروبيون:



المستعبدة



أمـيـــــر حـمـــــد

■■ لم يكن ظهور منده ناظر وبرفقتها وزير الاقتصاد الألمانى السابق اوسكار لافونتين على شاشة القناة الثانية للتلفزيون الألمانى (ZDF) التعبير الوحيد عن الاهتمام الألمانى - وربما الأوروبى - بكتابها المثير للجدل. وكانت قضية (الرق) فى جنوب السودان قد شغلت الرأى العام الألمانى بعد أن قام الوزيران السابقان قايزلر، وبلوم، (بمغامرة) استكشافية لجنوب السودان، بتنسيق مع الحركة الشعبية وقتها، ليبدأ على أثر ذلك فى الصحافة الألمانية الاهتمام بقضية (الرق) فى جنوب السودان، وجبال النوبا، موطن منده ناظر.

Sklavin

المستعبدة

Mende Nazir
Damien Lewis
Lebensweg

وكانت القصة / الضجة الاعلامية حول السمراء الأفريقية قد بدأت حين كتبت صحيفة إنجليزية، لأول مرة تقريراً عن منده ناظر ليسارع لويس دامين (الذى نشر قصتها فى الكتاب) بإجراء لقاء تلفزيونى معها بالقناة الإنجليزية الرابعة حيث يعمل.

ورغم أن الدبلوماسى السودانى المتهم باسترقاقها كان قد رفع قضية ضدها بشأن إساءة السمعة، أمام محكمة إنجليزية مختصة، ليربحها فى النهاية، وتعوضه المحكمة بمبلغ يليق ببراءته من التهمة الموجهة إليه. ملزمة «الديلى تلجراف» أن تقدم له اعتذارا رسميا بشأن ماسبق أن نشرته عن مسألة «منده» توضح فيه أن ما ورد عن سيرتها كمسترقة لا يقوم على أى أساس من الصحة، الا أن دار Lebensweg الألمانية للنشر لم تجد غضاضة فى أن تنشر السيرة الذاتية للسودانية الجنوبية كما كتبتها، أو بالأحرى كما كتبها لها الصحفى البريطانى، دونما تقصى لما ورد على صفحاته واعتبرته سيرة حقيقية بل وروج له فى الإعلام الألمانى كدليل قاطع على الرق فى السودان.

صدر كتاب منده ناظر ولويس دامين بعنوان (مستعبدة) مكتوب تحته معتدى عليها، مضطهدة، ومباعة. كما ذيل الغلاف الخارجى للكتاب بالآتى:

«كانت تنادى بلفظ (بنت)/ فما من (قيمة)، لأن تسمى. تنام فى مكان مهمل Verschlag، وتعمل ليلاً، ونهاراً، وتضرب، ولا تمنح مليماً، كأجر، أسيرة حرمت من ان تغادر المنزل، ولو خطوة واحدة. ها هى منده، الفتاة النوبية، تروى سيرة حياتها. سيرة حياة لم تحدث قبل مائتى عام، وإنما فى القرن الحادى والعشرين، ولم تنته فى أفريقيا، وإنما عند جيراننا بأوربا. لأن منده، فى ختام سنوات اضطهادها، واستعبادها بالخرطوم بعثت إلى لندن لتستعبد هناك أيضاً».

إنها تراجيديا إنسانية، وسياسية، ستهز العالم. أما داخل الغلاف، فتطل صورة منده، ولويس دامين، معرفاً كل منهما: منده ناظر، ٢٢ عاماً، تقريباً، لأنه من الصعوبة تحديد تاريخ الميلاد بجبال النوبا. نشأت منده فى جبال النوبا وتعيش اليوم بلندن، عقب ثمانية أعوام من الأسر فى أفريقيا وأوربا. أمنيتها العظيمة أن ترى عائلتها، ثانية، بالسودان.

لويس دامين: صحفى إنجليزى مختص بالسودان، آزر منده على الهروب، وفى صياغة الكتاب. بمعاونة آخرين، يكافح لويس لأجل الكتابة عن فظاعة حقيقة (الاستعباد) الحديث، بالقرن الواحد والعشرين.

ذُيل داخل الكتاب بعرض مقتضب لسيرة منده ناظر إلى بلوغها اثنى عشر عاماً، حيث كانت تعيش سعيدة فى بلاد النوبا لاسيما وأنها الطفلة الأثيرة من بين إخوتها لدى والديها. «كانت تحدد ملامح حياتها كل من عادات النوبا، والمناسبات، والعمل فى الحقول ومرافقتها لأبيها، وارتيادها المدرسة. أما أمنيتها العظيمة فهى أن تصبح طبيبة. إلا أن كل شىء قد تغير حينما هاجم العرب (يسمون الآن بالجنجويد) قريتها، وأشعلوها بالنيران، ومثلوا بالأطفال، والنساء، وأسروا من أسروا، ليخدموا كأرقاء دونما أجر، بعيدا فى منازل العاصمة. أما منده فكان من نصيبها أن تعيش فى منزل عائلة أرستقراطية بالخرطوم، حيث حُرمت من كل حقوقها، وحبست، وتركت لتنام فى زاوية مهملة بحديقة المنزل تخدم ليلاً ونهاراً. تعرضت للاغتصاب، والضرب، والاضطهاد. بعد ثمانية أعوام، كان من العسير أن تهرب، بيعت منده، لتخدم كأمة، بلندن عند المستشار الإعلامى لسفارة السودان. هنا فى دولة تتمتع بحرية مطلقة بغرب أوربا، بوسع الفرد أن يستعبد، ويسلب، ويحبس ويحطم غيره نفسياً!!!!!. كثيراً فكرت منده فى الانتحار، إلى أن حانت سانحة فى شهر سبتمبر ٢٠٠٠ حين التقت أحد أبناء جلدتها (النوبا) فأخبرته بسيرتها».

ويمضى الناشر ليصف الكتاب بأنه «توثيق مذهل للعلاقات بالسودان، وربما آخر تقرير حقيقى من يوميات حضارة النوبا المندثرة. أنه كتاب يسلط الضوء على عزيمة فتاة صامدة».

صدر كتاب منده ناظر (مستعبدة / أمة) قبل ثلاثة أعوام بألمانيا عن دار Lebensweg ، وقامت بترجمته عن الإنجليزية إلى الألمانية Karin Dugner، تصدر غلاف الكتاب صورة منده ناظر قبالة مبنى البرلمان الإنجليزي بلندن. كما تضمن صوراً فوتوغرافية لجبال النوبا وقاطنيها، ولمنده ولويس دامين مؤلفا الكتاب.

تحت عنوان موحى «الاعتداء»، يبدأ الفصل الأول من الكتاب (الذى يقرأه الألمان) بسرد روائى على لسان البطلة: «بدأ اليوم الذى تحولت فيه حياتى برمتها، ببزوغ شمس حانية. توجهت نحو الشرق، وأديت صلاة الفجر تقرباً إلى الله. لقد كان الوقت خريفياً بعام ١٩٩٢ أثر موسم الجفاف. كان عمرى وقتها اثنى عشر عاماً. طالبةً مجدةً كنت، أحلم بان اصبح طبيبة. هكذا كنت اجتاز، كل يوم، الطريق المؤدى إلى المدرسة فى ساعة كاملة. إننى من قبيلة النوبا، ومعظم ساكنى قريتنا، من المسلمين. لقد كانت عائلتى، متوسطة الحال تقطن فى أكواخ من الطين، على مرتفعات شبه معزولة عن العالم. ككل (النوبا) كنا نعتمد على الصيد، والزراعة، والرعى. كان أبى يملك خمسين بقرة، تُعد ثروةً، لدى النوبا.

اثر أوبتى من المدرسة كنت أنجز واجباتى المنزلية، وتطبخ أمى وجبة المساء مما يجلبه أبى، وإخوتى معهم، من الحقل، ثم نتحلق النار، ليروى أبى قصصاً مرحةً. هكذا كان أبى كثير الدعابة. أننى أحبه فوق كل شىء. وحين يتدلى المساء نلجأ إلى الفراش، فأنام جواره، وتتسلق (Uran) / قطتى الأثيرة، الفراش، لتنام لصقى، ويخيم السكون على القرية، إلا من هسيس النار الموقدة جوارنا.

فى مساء كهذا اكتست الأكواخ فجأة بضوء برتقالى. قفز أبى، وهتف عالياً «النار تحرق القرية! ...». فى البدء كنا نعتقد بأنه حريق خاطف، يحدث كالعادة من وقت لآخر بقريتنا. إلا أننا رأينا مشاعل ضخمة تُقذف نحو الأكواخ، وتحيلها هشيماً. كان القاطنون يتقافزون، ويركضون فزعاً، فيما يُصرع البعض ... صاح والدى «المجاهدين» ..... إننا نهاجم من قبل العرب. المجاهدون فى القرية. (لاحظ استخدام مصطلح «المجاهدون» هنا . المحرر)

ثم حضننى، وأسرع بى دونما هدف. كنت أبصر المجاهدين ينتزعون، قسراً الأطفال من أحضان الأمهات، وهن يتراكضن، فزعاً، دونما هدف. لحظتها أبصرت أمى مرتعدةً، مثلى. لم أنس قطتى الأثيرة (Uran) حملتها بكفٍ، وتشبثت بأبى، بكفى الأخرى.

«أمسكى جيداً يامنده، أمسكى جيداً»، قال أبى، وأنا أبُصر المجاهدين يذبحون القاطنين، بمدى معقوفة، وينزعون، قسراً، الأطفال من أحضان الأمهات، وهن يتراكضن دونما هدف ورأيت الأكواخ تتوهج تحت ضوء النيران. ليس بوسع أحدٍ وصف ما رأيت بتلك الليلة الحالكة. من على البعد، رأيت قريتنا، وقد تحولت إلى دخان، ونار، وتبينت، وجوه المجاهدين لأول مرة، ... كانوا ملتحين، متسخى الملابس، يمتطون خيولاً، يقطعون بها ملاذ الهاربين من النوبا. كانت تتعالى صرخات الواقعين فى أفخاخهم. طغى الرعب، والفوضى، مصحوبين بدوى الطلقات. كنت أركض مع أبى وأمى، بحضنى Uran ، فجأة أخذ أبى ينادى أمى لاختفائها، حين غرة، ويركض بشدة، وأنا خلفه إلى أن تعثرت، فوثبت Uran من بين يدى، بعيداً دونما أوبة. كنت لحظتها شاهدة على صراع دار بين أبى، ومجاهد، أطل بغتةً ... استطاع أبى أن يرديه بحجر (!) ... حينما وصلنا نهاية قريتنا، كان التعب قد تملكنى فلم أستطع المشى أكثر، رغم تحفيز أبى لى. فجأة، انفلت قطيع بقر، بين الأكواخ، فانطرحت أرضاً، موقنةً بهلاكى ... كنت أسمع لحظتها نداء أبى لى، من بعيد، فأجبته بصوت ضعيف، وحنجرة ملئها الغبار بكيت ... إلى أن أحسست بوخز لحية على عنقى ... فالتفت ورأيت أحد المجاهدين، ذا رائحة كريهة.



قال لى: أخرسى ... إن تعالى صوتك ثانيةً سيسمعك الآخرون، ويقتلونك ثم أمسكنى من ساقى، مجتازاً بى القرية فرأيت خنجره، ومسدسه مغروسين فى حزام. من بعيد كنت أسمع صوت أبى «منده ... منده». لم يكن بوسعى فعل شىء سوى إطلاق صرخات ضعيفة «أبى، أبى». إلا أن خاطفى (العربى)، وضع يده على فمى ليسكتنى ... لو عثر والدى على لتحدى كل المجاهدين ... رأيت القرية، من جديد تحت النيران، والدخان، تتجاوب فيها الصرخات، رأيت النساء ملقيات أرضاً، فوقهن المجاهدون. تضرعت إلى ربى أن ينقذنى، وأهلى، ... وكررت مجدداً دعوتى حينما ولجنا الغابة، حيث رأيت قرابة الثلاثين من صبية وصبيان النوبا، جلوساً تحت شجرة، فيما كان بعض المجاهدين يجلبون أطفالاً آخرين، وخناجرهم تقطر دماً، وأعينهم تلمع بالرعب، ويتصايحون «الله أكبر، الله أكبر». لم أعد أدرى ماذا حدث لعائلتى، نجوا، أم قتلوا ... ولا أدرى عن ماذا سيسفر مصيرى. هكذا توارت طفولتى، السعيدة، وبدأت. حياتى، كمستعبدة».

وبنفس الأسلوب الدرامى الحافل بالاثارة والمبالغة فى آن، يمضى الكاتب على لسان بطلته ليقص كيف كانت طفولتها وديعة قبل أن يأتى أولئك «العرب المجاهدون» الأشرار: «منده Gazelle ، أبهى حيوانات جبال النوبا، هذا هو أسمى الذى سمانى به والدى، إذ كان يعتبرنى أجمل فتاة بالعالم. لقد كنت خامسة أخوتى وأصغرهم. وسط جبال شاهقة دائرية، تنبسط قريتنا، التى تسمق عند نهايتها، صخرة عظيمة. لم يكن مرقى المرتفعات نائياً عن قريتنا التى يتبوأ فيها منزلنا موقعاً ما. إنه منزل من كوخين يحيطه سياج عشبى، بطرفه مقاعد خشبية، نقتعدها مساءً، لنتحلق النار المشتعلة جوارنا، ونروى القصص، ونتسامر. ثمة أغنام وخراف بفناء دارنا، تمدنا بالحليب. كنت وأمى نأهلان كوخاً به ثلاثة أسرة، من البابمس (خيزران)، تغطيها ألحفة من لحاء الهجليج المفتول. حذو باب الكوخ كان ينام أبى ليحمينا من الثعابين، والضباع، التى تعج بها الغابات والمرتفعات حول قريتنا. كنا نشعل النار بمنتصف الدار لا سيما فى مساءات الخريف، فيسمق الدخان من الخشب البليل. ثمة صومعتان صغيرتان، للغلال بفناء دارنا يصعد إليهما بسلم، لنملأ منهما الصحاف/ ..... / بالفول والذرة. هكذا كنا نحفظ الغلال، فى منأى عن الثعابين، والفئران التى تدب على سطح الأرض. فى أكواخ أخرى بقريتنا كانت تقطن أختاى المتزوجتان. أما (بابو) وكوندهران فيسكنان بالكوخ الأخر بدارنا، تمسكاً بأعراف النوبا، فى فصل الصبيان عن النساء. كانت أمى تطهو لنا الفول، والشعير، واللحم بالبهار، وتصنع لنا (مديدة) العيش بالحليب، فندعو الجيران، والأقارب، بل والغرباء، ليشاركونا طعامنا».



بــوش .. بــوش

وفى أسلوب مشوق للقارئ الأوروبى تمضى القصة (التى وصفت كسيرة ذاتية «حقيقية») حيث تروى «منده» طُرفة حدثت فى طفولتها، حين كانت تقضى حاجتها، ذات يوم بين لفيف أشجار، فباغتتها صيحة كيكو صديقتها، محذرةً لها من ثعبان بين الأشجار فهربت نصف عارية. كما تصف فى سردها، جلبها للماء من حفر مائية / توج حيث يجتمع الصبية والصبيات،

وتؤكد (منده) بأن النوبا كانوا يسمون أبناءهم (Bush) لإعجابهم به، بل إن نساء النوبا، حاولن تسمية المولودات باسم زوجة (Bush) فلم يستطعن لجهلهن باسمها

فيتشاغبون، ويتحدى بعضهم البعض، فيحميها أخوها (بابو) الأكبر سناً منها، من شجار الصبية. كان الصبية والصبيات ينشدون ترانيم للمطر، كبشارة للحصاد، فيما يتقافزون والجرار على رؤوسهم.

تذكر منده أن عاماً طوق بالجفاف، فكاد النوبا أن يهلكوا، لو لا أن الأوربيين «الخواجات» قد قدموا لإنقاذهم من حتف أكيد بشاحنات محملة بالحنطة، والزيت، والدقيق، والسكر، والأغطية، والأدوية. أما (العرب)، على حد قولها، فلا يهمهم الأمر، بالرغم من أن الجميع أبناء وطن واحد. تقول منده، أن المعونة كانت تقدم من أمريكا فيصطفون منشدين للرئيس الأمريكي:

بوش
بوش، بوش، بوش
رجلٌ خيِّرٌ
من بعيد، يفد الأوربيون إلينا
بيضٌ كالأشباح
ولكنهم طيبون إزاءنا
يؤازرون النوبا
بالحنطة، والزيت ...
لو لم يكن بوش موجوداً لمتنا ...
بوش، بوش، بوش

وتؤكد (منده) بأن النوبا كانوا يسمون أبناءهم (Bush) لإعجابهم به، بل إن نساء النوبا، حاولن تسمية المولودات باسم زوجة (Bush) فلم يستطعن لجهلهن باسمها.

من حليب البقر الطازج كانت تشرب منده، وتتمهل فى سردها لوصف نكهته الخاصة الطيبة وصنعهم للزبدة، واللبن، كانت تحبس العجول فى الحظائر إلى أن يُحلب البقر لذويها، ثم يفرج عنها.

ويستمر السرد المشوق للأوربيين المولعين بالرحلات والأنثربولوجيا فتقول منده أن أمها كانت تمشى عارية فى فناء البيت، وخارجه إلى أن اعتادت نساء النوبا على تغطية أثدائهن، ووسطهن بخرق. أما عادة «الشلوخ» التى كانت تصف أمها فظاعتها فقد اندثرت بمرور الوقت واستُبدلت بالتزين بعقود، وأقراص مزركشة حول المعصم والبطن، والساقين هذا إلى جانب قص شعر الرأس بطريقة معينة تميز كل قبيلة، عما سواها. قديماً كان يُختن صبيان النوبا، وبناتهن فى سن متأخرة، إلا أن الخطورة الصحية فى ذلك، جعلت النوبا يلجأون إلى الختان مبكراً.

تعتز «منده» بملامح أبيها السامية، الدقيقة، وتصف فى الوقت عينه قوته، وخشونة يديه، وأقدامه، لفتله الحبال، من لحاء أشجار الهجليج، وبيعها فى الأسواق كمكسب، هذا إلى جانب تمشيطه للحقول والغابات، لساعات طويلة، بحثاً عن الفاكهة، والخضر. كان أبوها يحب والدتها أيما حب وآثر الاكتفاء بها، على التزوج بنساء عدة، كشأن النوبا. تقول منده أن أباها كان صائداً ماهراً كثيراً ما يصطاد الوعل البرى أو الضباع وينفخ فى البوق كعادة النوبا، ليأتوا، ويؤازروه فى حمل صيده.

فى سردها لتفاصيل طفولتها تذكر (منده) Uran قطتها الأثيرة، التى أهداها لها والدها. كانت Uran تتسلق سريرها لتنام جوارها وتُحظى بعطف منده، وتقديم الحليب ... أيما فرح فرحت منده حينما امتلأ البيت بقطط أنجبتها Uran لكن والدتها أهدتهم إلى الجيران، لعدم تمكنهم من إطعامهم، الأمر الذى أحزن منده كثيراً، إلى أن كبُرت، ورأت القطط من ثم تملأ بيوت الجيران فرحة فكان فى ذلك عزاء لها. كأى طفلة جهولة، لم تستطع منده فهم الحمل، والإنجاب فشرعت والدتها فى نسج ردود ما لإقناعها بأن انتفاخ بطن Uran سببه افتراسها للفئران.

الأقليات العرقية

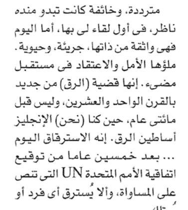
وفى فصل عنونه المؤلف «مدرسة النفاق»، يهدف الكاتب الى مناقشة مسألة الأقليات العرقية فتحكى مندة كيف انتظمت بالمدرسة فى الثامنة من عمرها، ، وفقاً لوصفها، تبدو هذه المدرسة نفاقاً وكذباً، وتزويراً وتحويراً لهوية أبناء النوبا. كان الأساتذة - على حد قولها - يطالبون الأباء دوماً، بالمال، مدعين حوجه التلاميذ إلى كتب وكراسات، لم ير التلاميذ منها كتاباً أو كراساً. أما المدرسة بمنهجها التعليمى المنافق، على حد قولها، فقد كانت مكونة من غرف للدراسة مبنية بالآجر، وأخرى للمعلمين، مضاءة بالفوانيس، كما كان بها مراحيض قذرة، وفناء دونما جدران فتلج الأغنام وتلتهم الكراسات والكتب. وتحكى مندة كيف ان اللغة العربية هى التى تدرس فى المدرسةوتمنع لغة النوبا، وأن ينادى التلاميذ بأسمائهم النوبية، مما حدا بالمعلم تسميتهم بأسماء عربية، ومعاقبتهم بالجلد / السوط حينما يخطئون، وتكليف أحد التلاميذ / الألفه، بالإبلاغ عن من يتحدث بلغة النوبا. ولم يكن الوقت المخصص لتدريس المواد العلمية، واللغة الإنجليزية كافيا مقارنة بوقت تعليم القرآن / العلوم الدينية، واللغة العربية. تقول منده بأنها كانت تستشعر النظرة الفوقية للأساتذة واستخفافهم بأبناء النوبا لأنهم لا ينتمون إلى العرب.

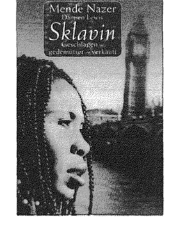
وتسرد منده فى هذا الفصل ملامح من حياتها كمسلمة / وُلدت مسلمة، علمها أبوها الصلاة فكانت تؤدى صلواتها الخمس، كوالديها، وتقرأ القرآن، وتذكر دائماً تخويف أبيها لها، من عاقبة دخول النار للمتخاذل عن ممارسة شعائر الإسلام ثم تصف مسجد القرية المبنى من الطين والاحتفاء برمضان وعيد الفطر. إلا أن منده،

الـــرق

مترددة، وخائفة كانت تبدو منده ناظر، فى أول لقاء لى بها، أما اليوم فهى واثقة من ذاتها، جريئة، وحيوية. ملؤها الأمل والاعتقاد فى مستقبل مضىء. إنها قضية (الرق) من جديد بالقرن الواحد والعشرين، وليس قبل مائتى عام، حين كنا (نحن) الإنجليز أساطين الرق. إنه الاسترقاق اليوم ... بعد خمسين عاما من توقيع اتفاقية الأمم المتحدة UN التى تنص على المساواة، وألا يُسترق أى فرد أو يُمتلك.

فى ١٩٩٦ كنت شاهدا على فظائع (الرق الحديث)، بالسودان. كصحفى موفد من قبل القناة الرابعة الإنجليزية، كتبت تقريراً بتكلفة منها. كنت أراقب عن كثب، الأحداث، وأجوب بهوية مزيفة مع منظمة إغاثة صغيرة أصقاع جنوب السودان. شاهدت (الجنوبيين) يباعون كالقطيع، بل إن الأمر أفظع. إذ تُشن غارات استلاب فظيعة على الأفارقة ويُذبح المئات منهم، وتُحرق القرى. منذ ذلك الوقت، أكتب لكل العالم عن الرق فى جنوب السودان، وجبال النوبا. لقد أجريت لقاءات عدة مع





المستعبدين، أو نخاسة «الجنجويد، وغيرهم»، فكانت أجوبتهم متشابهة بأن (الحكومة) تدربهم، وتسلحهم بـ AK 47 ، لتشن الغارات، - باسم الجهاد - ، على القبائل الأفريقية، فى الجنوب، أو جبال النوبا. كمكافأة على جهودهم، لهم أن يحتفظوا بالغنائم من البقر، والأغنام والرقيق، وأن يتركوا النساء والأطفال على قيد الحياة، ولكن يبدو من العسير الالتزام بشروط الحرب، إذ كانوا يسترقون الرجال ويتاجرون بالنساء كمومسات، ويزجون بالصبيان فى الرعى بالقطيع فيما يبيعون الصبيات «كخدم» بالمنازل. إذ لا يتجاوز ثمن العبد مائة وخمسين دولارًا. إن قضية منده لا تعدو كونها إحدى السير الذاتية التى تزخر بها Human Rights Watch أو Anti-Slavery International.

لقد تمكنت منده ناظر من عتق (نفسها)، بتجاوز حدود السودان إلى لندن، إلا أن هناك الكثير من الأرقاء كـ Nanns صديقتها الذين ينتظرون سانحة للحرية. رغم أن (الحكومة السودانية الإسلامية) قد وقعت على اتفاقيات تحظر الرق، إلا أن CEAWC قد أثبتت عام ١٩٩٩ بأن الرق لا يزال ممارساً بالسودان. تلغى الحكومة الحالية، أى اتهام لها، بدليل تنفيذ عقوبة السجن، لكل المشاركين فى قضية الرق. لكننا لايمكن أن ننسى أن منده استرقت من قبل دبلوماسى ممثل للحكومة.

لويس دامين
صحفى بالقناة الرابعة
للتلفزيون الإنجليزى

المستعبدة

تكتب منده عن حياتها كمستعبدة، حُرقت وسلبت قريتها من قبل العرب، لم يكتف خاطفها، باشتراكه مع العرب الآخرين، فى محو قريتها، وساكنيها من الوجود فحسب، بل اغتصبها، وهى طفلة

تبدو متحيزة إلى معتقدات النوبا الأولى، قبل دخول الإسلام، وإلى الكجور كشخص مقدس، وكطبيب للقرية. تسرد منده، ما ذكره أبوها عن ديانة النوبا الأولى، واعتقادهم فى تعدد الآلهة ... إله للمرتفعات وإله للمطر، وآخر للقمر، وللشمس، استبدل بها جميعاً الإسلام إلهاً واحد حتى فقد الكجور وظيفته كوسيط، رغم أن القرية من وقت لآخر قد شهدت له كرامات بنزول المطر، فى موسم الجفاف. هكذا تتعجب منده من اعتقاد النوبا فى الكجور، وفى الإسلام فى آن معاً. إلا أن والدها حاول إماطة الدهشة برده عليها بأن مفعول الكجور لا يتم إلا بمعاونة وإذن الله، وأن ديانة النوبا الأولى والإسلام يعيشان معاً فى تسامح وسلام بجبال النوبا.

تكتب منده بأن أباها كان يحلم باليوم الذى تتساوى فيه حقوق الجميع وتتلاشى سيادة الأثرياء على الضعفاء بالسودان. كما تكتب قائلة بأنها لم تكن تدرى وهى طفلة مهمة الطائرات التى تحلق من وقت لآخر فوق سماء النوبا. أما اليوم فهى تعرف بأن مثل هذه الطائرات تسقط القنابل فى جنوب السودان على الكنائس، والمدارس، والقرى، والمستشفيات.

الختان

حينما بلغت منده سن الحادية عشرة قررت عائلتها ختانها تمسكا بأعراف النوبا. فى وصف تفصيلى تصف منده ألم، وفظاعة الختان، وإمساك إخوتها بها لكى تختن، فيما كانت (الخاتنة) تحرك موسى حادة فينبجس الدم، وتتوالى صرخات منده، وبكاؤها، إلى انتهاء الختانة، ومواراة ما اجتزته، «فى التراب». فى البدء أهال منده حديث والدتها عن الختان، رغم محاولة تبريرها له، بأنه عرف من أعراف النوبا، وأن كل الصبيات يُختن، وعليه، يُسخر من غير المختونة، كما أن فى الختان ضرباً من التعود على الصبر، ومقاومة الألم. فيما كانت منده تقاوم ألم ما بعد الختان، اهُدى (للخاتنة) جوال ذره، واحتفى بهذه المناسبة. لم تقبل منده على حد قولها معالجة (الخاتنة) للجرح، فيما بعد، فتولت أمها تطهيره وانتزاع الخيط فى غضون أيام، مستخدمة الماء، الدافئ والشاى. فى ختام هذا الباب تحدثت منده، عن انطباعها عن الختان وتبعاته مشيرة إلى أن بعض الصبيات قد متن بسبب الالتهابات، والأمراض المعدية. لم تستطع منده مسامحة ذويها، إلا بعد مدة، تأكد لها فيها، بأن الصبيات غير المختونات قد لا يجدن من يتزوجهن من أبناء النوبة.

الاستعباد

وكأى رواية تمضى القصة الى احبكتها الدرامية، فتحكى البطلة كيف مرض أخوها فتحملت العائلة مشاق السفر إلى مستشفى بعيد حيث أخبرهم الطبيب بأنه لو توفرت مستشفى بجبال النوبا، لما ساءت حالته الصحية. فصارت أمنية حياتها أن تصبح طبيبة. أمنية جعلتها تعكف على التهام العلوم، واللغة الإنجليزية، بالمدرسة. إلا أنه، عقب ستة أشهر، داهم (المجاهدون) قريتها، وحرقوها، واقتديت (كأمة).

تكتب منده عن حياتها كمستعبدة، حُرقت وسلبت قريتها من قبل العرب، وتشتت ذووها دونما أوبة. لم يكتف خاطفها، باشتراكه مع العرب الآخرين، فى محو قريتها، وساكنيها من الوجود فحسب، بل أغتصبها فى غابة، وهى طفلة فى سنها العاشرة، كما رأت، وفقاً لسردها، جلب العرب / المجاهدين لصبية النوبا، واصطفافهم، تحت شجرة، ليباعوا كمستعبدين. تصف منده خاطفها فى هذا الفصل، واقتياده لبعض صبيات النوبا كأرقاء، لينتهى المشوار بهم فى الخرطوم، بمنزل «نخاسة»، حيث تعيش زوجته المتاجرة كذلك فى بيع الرقيق، الذى يباع للخدمة بالمنازل دونما أجر طيلة الحياة، مقابل مبلغ ما يمنح لجالبى الرقيق. لم يكن الطريق إلى الخرطوم خالياً من معسكرات، ومليشيات الجيش، التى يتحرى فيها القارئ أملاً لخلاص هؤلاء الصبيات ولكن سدى. وفقاً لوصف منده، كان بعض الجنود يتآمرون مع (النخاسة) ويتقاضون منهم مبالغ، ويهنئونهم على غاراتهم بجبال النوبا. وفقاً لوصفها، لم ينته الأمر عند ذلك بل، وأن بعض الجنود، كان يعلم بحالات الاغتصاب، ويتلذذ بسرد التفاصيل.

فى قبو بمنزل جالب الرقيق، كانت الأسيرات من صبيات النوبا، يعشن فى انتظار قدوم السيدات لاختيار «الأمة» المناسبة لخدمتهن. وهذا ما حدث وفقاً لسردها، إذ قدمت سيده واشترتها «كمستعبدة» طيلة الحياة، وكخادمة دونما أجر، أُهملت، وضُربت، وحُبست وكانت عرضة لاغتصاب جديد، بل وتداولتها هذه العائلة فيما بينها، إذ سفرتها إلى لندن لتعيش العبودية من جديد، فى القرن الحادى والعشرين، بدولة بلغت فيها حقوق الإنسان أيما شأن ...

ظلت منده، تسرد طيلة صفحات الكتاب عن شقائها اليومى، قيد الجدران، إلى أن التقت أحد أبناء النوبا فحررها من العبودية بلندن، والتقت من ثم لويس دامين الصحفى، الذى أشهر قضيتها فى الاعلام الإنجليزى والصحافة، ومهد للقائها بشخصيات سياسية لامعة.

فى سردها لسيرة حياتها، تصف منده ظاهرة (الطمث)، فى أول تجربة لها، ومحاولة انتحارها، للخلاص من قيد العبودية. وتخصص فصلين كاملين تصف فيهما تهديد ربة البيت لها بالقتل. إلا أنها كانت تتمنى الموت على أية حال بعد أن تحولت حياتها إلى جحيم. فى أحد فصول الكتاب، تكتب منده عن شكها فى مبدأ المساواة بالإسلام، بدليل أنها مسلمة، تُضطهد من قبل مسلمين مثلها، وتُسترق. لا لسبب الا أنها سوداء البشرة وليست عربية. هذا هو سبب اضطهادها على حد قولها.

كانت تُرمى بسواد لونها، وتتهم بأنها قذرة، وأنها بدائية لأنها تنحدر من أصول حامية. لذا كانت تُمنع من التحدث بلغتها «النوبية»، فى المدرسة، ومن التغنى بأغانى (النوبا) أثناء الخدمة بمنزل «سيدتها». ما من شئ أعظم من حقدها على (سيدتها)، وتمنى موتها. بل وأنها تحقد على كل العرب بالسودان، أيما حقد لاستعبادهم لها. تكتب قائلة أنّ الأمريكان حينما قصفوا مصنع الشفاء اعتقاداً منهم بأنه قاعدة إرهابية بالسودان تمنت منده قتل مزيد من العرب / السودانيين.



وحسب روايتها، تقرر تسفير منده إلى لندن لتخدم هناك كأمة، عند أقارب سيدتها، فيما وعد تاجر الرقيق، عينه، سيدتها بجلب، أمة جديدة. اقسرت منده على السفر إلى لندن أثر ست سنوات من الاستعباد تعلقت غضونه بأطفال ربة المنزل واعتبرتهم عوضاً عن عائلتها بجبال النوبا.

وبعد تفاصيل كثيرة حول حياتها المأساوية تحت ربقة الاستعباد، تحكى مندة كيف رأت السحاب، وراء نافذة الطائرة، لأول مرة تذكرت قصة أبيها، لتأويل بعد السحب عن الأرض، بأنه فى القديم كانت السحب دانية من الأرض، بوسع المرء التقاطها. ذات مرة، أعجبت امرأة بقطع السحب المتناثرة، فأوقدت ناراً لطهى سحابة، وحينما امتدت يدها لالتقاطها ابتعدت السحب جميعاً إلى الأعالى، لعلمها مسبقاً بما عزمت عليه المرأة. ■

شمال وجنوب..
السودان مقسما

■ يغلب على (السير الذاتية) طابع المصداقية، والنوستالجيا، والتأمل فى الحياة، إلا أن كتاب (الأمة)، لا يعدو عن كونه أوتويغرافيه (مفبركة)، تقوم على اضطهاد مبهم لحقوق الإنسان، وتجنى العرب / السودانيين على القبائل الأفريقية بالداخل، والإشارة إلى الأسلمة الإجبارية، ومنع الأعراف المنافية للإسلام، وأى لغة، غير العربية. قد يكون (الجنجويد)/ المليشيات المسلحة قد داهموا قرية منده، وحرقوها، إلا أننا لا نود هنا التقصى عن الأسباب التى تقود إلى مثل هذه الغارات / النهب المسلحة، لأن هذا سيصرفنا عن التحقيق فى طبيعة غارة كتلك والتى يصفها دامين (بكارثة)، يقتل فيها الرجال، ويباع الصبيان كخدم بالبيوت، ويجعل من الصبيان رعاة للقطيع فيما تغتصب النساء، وتباع كمومسات. لا تختلف منده فى سردها، عن الصحفى الانجليزى (المشارك فى تأليف الكتاب)، فهى كما يبدو واقعة تحت تأثيره ، فهو لا يفتأ يسلط الضوء على قضايا «معينة» إلى جانب الرق، كاستبدال الإسلام واللغة العربية قسراً للغات والأديان المحلية، ويتشعب الاتهام إلى شبكة العلاقات الاجتماعية العامة بالسودان، حيث يتعالى السودانى / العربى على غيره من الجنوبيين، وأبناء غرب السودان، كأن معاناته لا تنتمى إلى معاناة الآخرين. والغريب أن الكتاب (فى تعال واضح) يصف السودان بأنه قد توقف تماماً عن مسيرة العالم، الحديث، ومفهوم الحريات، كما تصف منده المجتمع السودانى، بأنه يعيش فى القرن الثامن عشر سمته الرق، والتخلف.

سعت منده إلى الحصول على اللجوء بإنجلترا، تقول بأنها لو كانت تعلم بمنحها للحرية، وحياة أفضل، بإنجلترا، لفكرت إذاً جادة، فى الهرب، ومن ثم السفر إلى لندن. فى تصريح كهذا تتجاوز منده حدود السودان كله. كأن كل شبر فيه ملوث بالرق، وإلا لما كان كل همها السفر إلى خارج السودان وليس الحرية. أما لويس دامين الذى يصف مهنته كمختص بشؤون الرق فى السودان فله دون شك رغبة جامحة، فى ترويج قضية كهذه، أنها سيرة مُغرضة جسمت فيها الحوادث «أعمل من الحبة قبة» حتى بدت منده كممثلة لقبائل مضطهدة. باستثناء، جزء كبير من الفصل الأول، الذى يتميز بالطابع الروائى، فى عكس طبيعة جبال النوبا، وأعراف القاطنين بها، وذكريات منده مع أسرتها. نستشف فى الرواية حقدا دفينا وتحيزا إلى الغرب. (تمنى منده أن يُقتل سودانيون أكثر حين قصفت الولايات المتحدة مصنع الشفاء. والتغنى لـ Bush ، بجبال النوبا، وتسمية المولودين باسمه، لمده جبال النوبا بحملات الإغاثة من حنطه، وزيت، وأغطية، على النقيض من العرب، الذين لا تهمهم مآسى النوبة... الخ)

لقد بذلت دار النشر الألمانية Lebensweg ، عبر الإعلام والصحافة مجهوداً ضخماً، لترويج الكتاب الذى استطرد مطولاً فى قضية، لا يفصح عنها إلا غلافه الموسوم بصورة منده بالضفائر الأفريقية، والمنضدة بالفصوص قبالة مبنى البرلمان الإنجليزى بلندن، يفصلهما عنوان الاوتوغرافيا Sklavin الأمة، واسما المؤلفين فى تصميم نفسى مغرى يرمز إلى الاستعباد داخل أوربا.

لقد تأسست فى ذهنية الأوربى صورة اضطهاد المسلم لغير المسلم، والعرب للسود. ولأن الألمان لا زالوا يعانون من عقدة الذنب لاضطهاد الهتلرية للأقليات، لهذا يبالغون فى تعاطفهم مع قضية كهذه، غير مكترثين بمدى الحقيقة فيها.

أن منظمة، كمنظمة التضامن المسيحى، مثلاً، لدليل واضح على الاختلاسات المالية، وتدنيس (سمعة) السودان (بالرق)، باشتراكها مع بعض أفراد SPLM - الذين أدينوا من قبلها - فى الارتزاق من مبالغ كنسية، مبذولة أصلاً لتحرير الرق، فيختلس المال ويمنح قسطاً منه للمتحفزين بإدعاء استرقاقهم، لإثبات قضية الرق بالسودان.

مهدت سيرة منده «المفبركة» لتسهيل طلب لجوئها بلندن، فيما كان السودان يدان كتاجر نخاسة محترف. لقد سعى لويس دامين إلى الشهرة بتبنى قضية منده وصياغتها غير مكترث بالأكاذيب وتجسيم الحوادث كشأن بعض منظمات الإغاثة التى تعمل من وراء قناع فى التبشير ولبث التقزز من العرب / السودانيين. لقد أدان لويس دامين نفسه بنفسه بتصريحه بأن قضية منده هى الدليل القاطع على تفشى الرق بالسودان. ثم أتت المحكمة الانجليزية لتحكم للدبلوماسى السودانى مكذبة مزاعم الكتاب.

لقد أوغل التاريخ الأوربى فى الاسترقاق، وقتل وتشريد الشعوب المستعمرة، كالهنود الحمر، والـ Oberigiens بأستراليا، كما اضطهدت الكنيسة المجتمع الأوربى، بتمتعها بالسلطة السياسية، إلا أن حالات «الاستعباد النسبى» اليوم، بداخل أوربا، لا تدان إلا كقضية فردية، لا كظاهرة عامة تمس المسيحية والأوربيين، عكس ما يعممه الاعلام الغربى عن حالات الاضطهاد بالدولة المسلمة مثلا، كأن الغرض ليس ادانة الجناة، وإنما محاكمة الإسلام والتاريخ العربى.

يتضح جلياً للمطلع على كتاب «مستعبدة» أن ثمة ممارسات، واعتداءات، وألفاظ إساءة معينة مقصودة ومستهدفة، يبدو، فى نقاط كثيرة متفاوتة بهذا الكتاب أن تجسيم حادثة ما مهينة أو لفظ إساءة لا يفتأ يتجاوز شخصاً بعينه إلى كل العرب والسودانيين، ويخلق منهما قضية برمتها، كالاستعباد، واضطهاد أعراف ونسب القبائل النيلية، واستبدال الإسلام القسرى، للديانات المحلية. قد تكون قضية منده حادثة شخصية دونما دلائل، كما قالت مجلة دير شبيجل Der Spiegel الألمانية المهمة، أن إثبات الرق فى السودان، لم يثبت إلى الآن، سوى فى حالات فردية، ملبسة بتصرفات شخصية خاطئة، عكستها وعممتها منظمات كنسية Evangelisch ، متعمدة وصفها «كقمع مؤسس للديانات المحلية، وكاستعباد محض».

لقد طغت «سمعة» جنوب السودان، وغربه، كمنطقة استعباد، وتشغيل إجبارى دونما أجر، فيما تقلصت مشاكل أصدق، وأهم من ذلك كالوضع الاقتصادى، البيئى، والاجتماعى بصورته العامة، التى لا تقل فيها مشاق الشمالى / العربى، عن غيره من الجنوبيين، وأبناء جبال النوبا وغرب السودان.

فى التاريخ..

يحكى تاريخ المنطقة. كيف برز ما سمى بالسياسة الجنوبية ، القائمة على فصل الجنوب الزنجى عن الشمال المسلم - كهدف استراتيجى - وإلحاقه بإحدى جاراته الأفريقيات، إن أمكن، على أساس أن عوامل الفصل العنصرية والجغرافية متوفرة، وأن بالإمكان إضافة فارق دينى يجعل الجنوب مسيحياً. وبعد هذا التخطيط أخذت الحكومة الاستعمارية فى تشجيع الإرساليات وتقديم المعونة لها للعمل فى أنحاء الجنوب.

وكان من أخطر القرارات الإدارية التى أصدرتها القوى الاستعمارية فى سبيل عزل الجنوب عن الشمال: إصدار قانون المناطق المقفولة، الذى لم يهدف إلى منع التأثير القادم من الشمال فحسب، بل هدف - أكثر من ذلك - إلى اجتثاث الثقافة الإسلامية التى كانت موجودة من قبل. فلقد وضع السكرتير الإدارى أولويات السياسة نحو الجنوب فى: العودة إلى القوانين والعادات واللهجات القبلية المحلية، ومحاربة الأسماء والعادات وطريقة اللبس العربية، وذلك بإخلاء الجنوب من الشماليين ومن المسلمين غير العرب - كالفلاتة - وجعل لغة التخاطب، وتشجيع التجار المسيحيين من الإغريق للعمل فى الجنوب. «......» ومن جماع كل ذلك، يتبدى لنا أن تنصير الجنوب لم يكن لهدف دينى بحت، وإنما كان - أيضاً - لخدمة الاستراتيجية الاستعمارية».

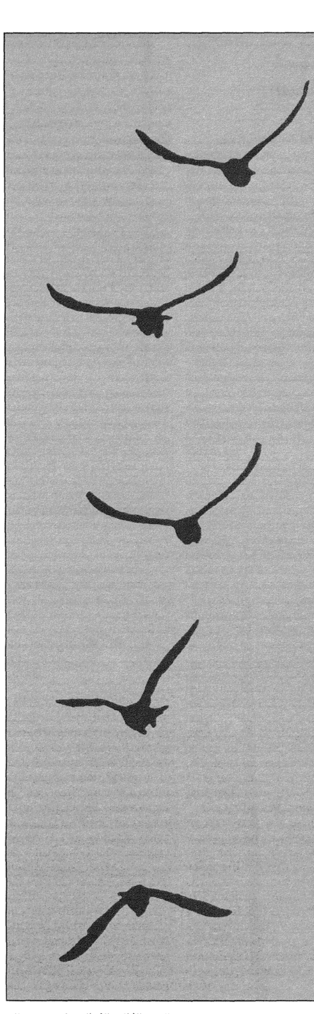
«وكان أن وجهت الإرساليات مناهج التعليم إلى منحى يشيع كراهية الإسلام والمسلمين. فالكتب المدرسية حوت سباً للإسلام، واتهاماً للنبى صلى الله عليه وسلم بالكذب وقطع الطرق وسفك الدماء، وأن الإسلام دين احتقار واضطهاد لغير العرب والمسلمين، «......» ويذكر الدرديرى محمد عثمان، أنه كان فى مهمة تعليمية فى الجنوب، فقابل أحداً من الجنوبيين أشار إلى شجرة كبيرة، ثم قال له (إن الإنجليز أفهموهم أن تلك الشجرة، كانت سجناً يحجز تحته المسترقون الذين كان يأخذهم الزبير باشا وكركساوى لبيعهم فى الشمال). وكانت الشجرة تجد عناية خاصة لإذكاء تلك الذكرى البغيضة».

وكما يذكر الدكتور البونى فى كتابه القيم البعد الدينى «فقد انحصرت أهداف التعليم فى تثبيت فكرة أن المسيحية هى الدين الأرقى، وأن الإنجليزية هى اللغة الأجمل، فكان يمنع حتى التكلم باللغة العربية فى المدرسة. وبينما كانت السياسات التعليمية فى الشمال تهدف إلى توفير الموظفين للحكومة، كان هدف التعليم فى الجنوب منحصراً فى نشر المسيحية والحد من انتشار الإسلام، فزاد ذلك فى التباين بين شقى القطر. «......» غير أن الكنيسة استطاعت خلق نخبة متعلمة تجاوزت الثقافة المحلية واكتسبت القيم الغربية فى تدينها وطريقة لبسها ولغتها، وتمسكت بالمسيحية لأنها منحتها هوية ثقافية تميزها عن تلك الشمالية الإسلامية.

لا أحد يمكنه إنكار فظائع شهدها جنوب السودان. ولكن القضية متشابكة وأكثر تعقيدا. فهناك القبائل التشادية التى توافدت، حيث المياه والمراعى إبان فترة الحكم العسكرى السابق وفى مرحلة النزاع بين هبرى وجوكى بتشاد. فنشأ عبر صراعها مع قبائل غرب السودان على الموارد الطبيعية لا يقل فيها التشاحن العرقى عن المصلحة الاقتصادية. وهناك النزاع الاقتصادى القائم أصلاً بين قبائل الزرقة والعرب بغرب السودان. القضية تقتضى تمحيص النظر فيها، والتصدى لها. بالاعتراف بحرية الرأى، وحقوق الإنسان، والمساواة العادلة فى الموارد الاقتصادية، والتنمية المتكافئة فى أصقاع السودان ■

أ. حمد

الوباء الطائر



الحقيقة الأولى أن ما يناهز ٤٠ مليونًا قتلتهم «الأنفلونزا» عام ١٩١٨. والحقيقة الثانية أن العالم يعيش الآن حالة من الرعب خوفًا من الوباء الطائر. والحقيقة الثالثة أن هناك شكوكًا حول مدى جاهزية مجتمعاتنا بما نعرفه عن نظمها لمواجهة مثل تلك الكوارث.

وجهات نظر تنشر تقريرين ذوى صلة أحدهما نشرته الدورية الجغرافية الشهيرة National Geographic Magazine. والثانى ملخص لدراسة مفصلة أعدتها وزارة الصحة الإسرائيلية تناولت فيها خطط الطوارئ اللازمة محذرة من أن ربع سكانها سيكونون عرضة للإصابة بالوباء القاتل. ومؤكدة أن المرض مرشح للانتقال إلى الدولة العبرية بواسطة أفواج الطيور المهاجرة من أوروبا وتركيا والتى تمر رحلتها السنوية بإسرائيل فى طريقها إلى وادى النيل.

المحــــرر

قام العلماء بإعادة تركيب الشفرة الجينية لـ «الأنفلونزا الأسبانية» القاتلة والتى ظهرت عام ١٩١٨واجتاحت العالم قاتلة ما بين ٢٠ إلى ٤٠ مليون شخص. من ضمن ما وجدوه فى هذا الصدد كان أن الفيروس الذى ظهر عام ١٩١٨ تطور من الطيور وكان شبيها بـ «أنفلونزا الطيور» التى تسببت فى الوقت الحاضر بمخاوف من وباء عالمى جديد. بدراسة المعلومات الجينية لفيروس عام ١٩١٨ تمكن العلماء من استنتاج إمكانية انتشار أوبئة فى المستقبل أو حدوث حالة وباء واسعة الانتشار. وقد تساعد أيضا فى تطوير أمصال جديدة وأدوية مضادة للفيروسات وعلاجات أخرى قد تفيد فى مقاومة الأنفلونزا.

كابوس ١٩١٨

برايــن هانــدورك

يقول جفرى تاوبنبرجر من معهد القوات المسلحة للباثولوجى فى روكفيل بولاية مريلاند «إن هدفنا هو التعامل مع أسئلة متعلقة بوباء عام ١٩١٨»، والذى له أبحاث عديدة فى الموضوع نشرتها له مجلتا Nature و Science.

ويتساءل تاوبنبرجر «كيف تكون هذا الفيروس بالذات وانتقل إلى الإنسان؟ ولماذا هو بالذات فتاك إلى هذه الدرجة؟ وبمعنى أوسع، ما الذى يمكننا أن نتعلمه من دروس وباء عام ١٩١٨ ليفيدنا فى المستقبل؟».

لقد كانت فيروسات الأنفلونزا غير معروفة عام ١٩١٨ فلم يكن هناك سبيل لدراستها مباشرة من قبل الأطباء والعلماء أثناء الوباء ولا بعده.

ولكن بعض المؤسسات مثل معهد القوات المسلحة للباثولوجى احتفظت بعينات من الأنسجة لضحايا الوباء فى ١٩١٨. إن هذه العينات البالغة من العمر ٨٧ عاماً وأخريات لضحايا تم دفنهم وحفظهم فى جليد آلاسكا كانوا مصدرا لعينات ضئيلة من المادة الجينية التى استخدمت فى استجماع البصمة الجينية للفيروس.

وهكذا يصبح ممكنًا نشر أول خريطة لتسلسل الجينوم للفيروس. وكان العلماء قد استخدموا التسلسل الفيروسى الكامل لتخليق فيروسات حية تمتلك الجينات الثمانية لفيروس الأنفلونزا الأسبانية التى تم تحديدها كمصدر للوباء المدمر.

حتى لو تم تسريب هذا الفيروس فمن غير المتوقع أن ينتج وباء شبيه بالذى انتشر عام ١٩١٨ لأنه من المرجح أن يكون الإنسان قد اكتسب مناعة عبر العقود. فضلاً عن شروط الأمن شديدة الصرامة فى مركز مقاومة ومنع الأمراض فى اطلانتا بولاية جورجيا.

سلاح ضد الوباء القادم؟

يرى الكثير من الخبراء أن العالم غير مستعد لوباء أنفلونزا عالمى تأخر كثيرا. وسيكون الانتشار القادم للوباء قاتلا بنفس الدرجة التى كانت عليها الأنفلونزا الأسبانية والتى عرفت أيضا باسم H1N1 ويمكن أن تقتل عشرات الملايين.

فى الوقت الحالى لا يستطيع الخبراء تحديد الفيروسات التى يمكن أن تؤدى إلى الأوبئة ولكن المعلومات المتوافرة عن الأنفلونزا الأسبانية تساعد على تحديد السلسلة التى تتطلب منا مراقبة بحرص كبير.

وتعتبر H5N1 وهو سلسلة من الأنفلونزا الأسيوية تسمى أنفلونزا الطيور المرشح الأقوى للتحول لوباء. وهذا المرض الذى ينتشر بشكل رئيسى فى جنوب شرق آسيا يوجد بشكل أساسى فى الطيور ولكنه يظهر أيضا فى الثدييات مثل الخنازير والقطط والإنسان. ولقد قتل عدة عشرات من الناس ولكنه حتى الآن لا ينتقل بسهولة من شخص إلى شخص ولم يصل لدرجة الوباء.

إن تحليل السلسلة العائدة لعام ١٩١٨ كشف عن العديد من التحولات الموجودة أيضا فى H5N1. وتشير هذه الكشوف إلى أن السلسلتين تستطيعان الانتقال مباشرة من الحيوانات للإنسان بدون الاختلاط بفيروس الأنفلونزا التى تصيب الإنسان مباشرة.

ويقول أدولفو جارسيا- ساستر، أخصائى الماكروبايولوجى فى كلية ماونت ساينای للطب فى مدينة نيويورك «الأدلة التى نملكها عن عام ١٩١٨ تشير إلى أن الفيروس له أصول مرتبطة بالطيور بشكل كلى».

لن يكون جهاز المناعة عند الإنسان مستعداً لفيروس مصدره الوحيد هو الطيور حيث إنه لم يكتسب القدرة على مقاومته.

إن الأوبئة الأخرى فى نفس القرن عامى ١٩٥٧ و١٩٦٨ تسببت فيها فيروسات تعتبر هجين - فيروسات آدمية اكتسبت بعض صفات من فيروسات الطيور.

ويقول تاوبنبرجر «إن هذا الكشف يشير إلى أن الوباء يحدث بأكثر من طريقة وهى نقطة مهمة جدا. فنحن نتعرف على مجموعة من التحولات التى نرى أنها مهمة لتفسير كيف يمكن لفيروس طيور أن يتحول لفيروس آدمى».

ومع أن الأدلة ملحة إلا أنه لا يمكن للعلماء التأكد بنسبة مائة بالمائة من أن الأنفلونزا الأسبانية لم يكن لها وجود سابق فى السلاسل المعاصرة من الأنفلونزا التى تصيب الإنسان وأن مصدرها الوحيد هو الطيور إلا باستخدام عينات سابقة على عام ١٩١٨.

ويسأل جارسيا ـ ساستر «ما الذى يجعل فيروس يتحول من محمية طيور إلى الإنسان؟ إن (الرد على هذا السؤال) هام. إن الأنفلونزا بالأساس فيروس يصيب الطيور. توجد منه سلاسل عديدة فى الطيور والقليل جدا منها فقط هو الذى يصيب الإنسان؟ وتحدث الأوبئة حين يتحول أحد هذه السلاسل من الطيور إلى الإنسان ويتمكن من الانتقال من شخص إلى الآخر.

الفيروسات القاتلة قد تنقذ أرواحاً

يتخذ المسئولون فى مركز مقاومة ومنع الأمراض إجراءات صارمة لحماية فيروس عام ١٩١٨ رغم أنه لن يؤدى فى الغالب إلى وباء إذا انتقل إلى السكان.

وأثبتت الدراسات أن الفئران التى تم حقنها بأمصال الأنفلونزا الحديثة اكتسبت مناعة ضد فيروس عام ١٩١٨.

ويقول جارسيا- ساستر« نحن نعلم أن كل الأوبئة السابقة نتجت عن ظهور سلسلة جديدة. هذا ما حدث فى ١٩١٨ و١٩٥٧ و١٩٦٨».

كما يضيف «هناك أيضا أدلة تشير إلى أن من كانوا أكبر من ٤٠ عامًا فى سنة ١٩١٨ نجوا من الوباء وقد كان أحد التفسيرات لهذا الأمر أن من هم أكبر من ٤٠ عاماً قد تعرضوا لفيروس H1 من قبل واكتسبوا مناعة ضده».

الآن وبعد مرور عقود على الوباء يمكن لفيروس عام ١٩١٨ أن يصبح سلاحاً وليس خصماً.

تقول جولى جربردينج، مديرة مركز مقاومة ومنع الأمراض «أظن أننا استطعنا كشف فيروس ١٩١٨ وهو بدوره يكشف لنا بعض الأسرار التى ستساعدنا على أن نكون مستعدين للوباء القادم».

بترتيب مع
National Geographic News
أكتوبر، ٢٠٠٥

ترجمة: نرمين نزار

الوبـــاء الطـــائـر فـــي طـريـقـــه إلـى وادي الـنـيــــل



سيناريو رعب إسرائيلي



صالح محمد النعامي



إسرائيل استعدت منذ العام ١٩٩٧ لإمكانية تفشي هذا المرض، وشكلت وزارة الصحة العديد من الطواقم المهنية من كل التخصصات ذات العلاقة لوضع خطة «قومية» لمواجهة احتمال تفشي المرض



تعيش الدولة العبرية حالة من الهستيريا في أعقاب صدور دراسة عن وزارة الصحة الإسرائيلية تفيد بأن ربع سكان الدولة مرشحون للإصابة بمرض «أنفلونزا الطيور»، الذي سجلت الإصابة به في دول جنوب شرق آسيا وكازاخستان وتركيا ووصل أخيراً إلى دول أوروبا الشرقية. وتؤكد الدراسة التي أعدها خمسون مختصاً في كل المجالات الطبية أنه أصبح في حكم المؤكد أن هذا المرض سيتفشى في الدولة العبرية. وتتحدث الدراسة عن سيناريو رعب حقيقي يتمثل في تأكيدها أنه من المتوقع أن يعاني ربع سكان الدولة من هذا المرض، أي مليونا وستمائة ألف شخص. وتؤكد الدراسة أنه من المتوقع أن يموت ٢٩٠٠ إسرائيلي بسبب المرض، في حين سيضطر ٧٨٠٠٠٠ إسرائيلي لمراجعة طبيب، و١٠٠٠٠ سيضطرون لتلقي علاج في المستشفى. وتشير الدراسة إلى حقيقة أن نصف الذين ثبتت إصابتهم بالمرض في دول جنوب شرق آسيا قد توفوا، الأمر الذي يجعل المعطيات التي تقدمها الدراسة عن عدد الوفيات المتوقعة في إسرائيل «متفائل» إلى حد ما. وتتوقع الدراسة أن يتفشى المرض في الدولة خلال الشتاء القادم، مع العلم أن الدراسة تتوقع ألا يقتصر انتشار المرض على المدة الزمنية التي اعتادت الأنفلونزا التفشي خلالها، وهي من شهر نوفمبر وحتى مارس، بل أنها تتوقع أن يمتد إلى جميع أيام السنة. وإن كانت لا تستبعد أن يتم هذا بشكل متدرج، مستذكرة أن فترة حضانة الفيروس المسبب للمرض في الجسم تتراوح من ٢٤ -٧٢ ساعة. وتؤكد الدراسة إلى أنه لا يمكن تحديد الفئات العمرية المرشحة للإصابة، وإن كانت تتوقع أن تمس بالأشخاص في أطراف العمر من أطفال وعجزة بشكل أساسي، لكنها تستذكر حقيقة أن معظم الوفيات التي تفشت في بريطانيا في العام ١٩٥٧ بسبب أحد أنواع الأنفلونزا كانت بشكل خاص من الشباب. وتتوقع الدراسة أن يعاني كل شخص من المرضى لفترة تتراوح من ٤-٥ أيام. وتفيد الدراسة أن نسبة الإقبال على تلقي العلاج في المستشفيات سترتفع بنسبة ٤٠-٦٠٪، وتطرأ زيادة بنسبة ٦٠٪ على عدد الذين يحتاجون للتنفس الصناعي، مع العلم أن المشاكل في التنفس هي أحد أهم الأعراض المرافقة للإصابة بالمرض.

وتتوقع الدراسة أن يؤدي تفشي المرض في الدولة العبرية إلى خسائر اقتصادية هائلة. وحسب الدراسة فإن العمل في دوائر الدولة والمؤسسات الخاصة سيتعطل بشكل واضح. وأكثر مواطن القلق في هذا الجانب كما تشير اليه الدراسة هو حقيقة أن العاملين في الطواقم الطبية هم المرشحون ليكونوا الأكثر تعرضاً للإصابة بالمرض بسبب اضطرارهم للاحتكاك بالمرضى، وهذا يعني إضافة مزيد من الصعوبات على قدرة الدولة العبرية على مواجهة المرض. وتتوقع الدراسة أن يتم إقفال المدارس وبالذات الابتدائية، وتستذكر الدراسة أن ٥٠٪ من طلاب المدارس الابتدائية في بريطانيا تغيبوا عن المدارس في العام ١٩٥٧ عندما تفشت الأنفلونزا. ويفترض أن تطور وسائل الاتصال وسهولة متابعة الناس لتطور تفشي المرض لن يزيد إلا في مفاقمة الشعور بالفزع الذي سيعم الدولة العبرية. الدراسة وإن كانت لم تستطع حصر الخسائر المتوقعة لتفشي هذا المرض، إلا أنها تشير إلى معطيات المركز الأمريكي لمراقبة الأمراض الذي يتوقع أن يمنى الاقتصاد الأمريكي بخسائر تتراوح بين ٧١- ١٦٦ مليار دولار في حال تفشي المرض في الولايات المتحدة الأمريكية.

وتشير الدراسة إلى أن المرض مرشح للانتقال لإسرائيل بواسطة الطيور المهاجرة من أوروبا وتركيا وتمر بإسرائيل في طريقها لدول شمال أفريقيا. وتفترض الدراسة أن عدداً كبيراً من هذه الطيور ستكون مصابة بالمرض وتحمل الفيروس المسبب له. إلى جانب ذلك فإن هناك احتمالاً أن ينتقل المرض للدولة عن طريق عشرات الآلاف من العمال الأجانب الذين يفدون للدولة العبرية من دول جنوب شرق آسيا التي تمت فيها العام الماضي عشرات من حالات الإصابة بالمرض. ولا تساهم حقيقة أن معظم هؤلاء العمال يعملون بشكل غير قانوني إلا في مضاعفة الخوف، حيث سيكون من الصعوبة بمكان تحديد مكان العمال المصابين بالمرض وطردهم إلى بلدانهم. وذلك على الرغم من أن الدراسة تشدد على أنه تم تسجيل حالات قليلة جداً تمت فيها الإصابة بالمرض عن طريق انتقال فيروس المرض من إنسان إلى آخر، حيث تبين أن أكثر حالات الإصابة تمت عن طريق انتقال الفيروس من الطير للإنسان. وتشير الدراسة أن إسرائيل استعدت منذ العام ١٩٩٧ لإمكانية تفشي هذا المرض، وشكلت وزارة الصحة العديد من الطواقم المهنية من كل التخصصات ذات العلاقة لوضع خطة «قومية» لمواجهة احتمال تفشي المرض. ومن ضمن الإنجازات التي حققها أعضاء هذه الطواقم هو وضع هذه الدراسة. الذي يثير المخاوف في إسرائيل بشكل أساسي هو حقيقة أن مساحة الدولة العبرية صغيرة نسبياً، الأمر الذي يصعب عملية عزل المناطق المصابة بالمرض. وتذكر الدراسة أنه في القرون الأربعة الماضية عانى العالم من واحد وعشرين وباء ناجمة عن تفشي الأنفلونزا، ومن بينها ثلاثة تفشت في القرن الماضي، كان أخطرها «الأنفلونزا الأسبانية» التي تفشت بشكل أساسي في أوروبا من العام ١٩١٨ إلى ١٩٥٧ وأدت إلى وفاة ٥٠-١٠٠ مليون شخص.

وتؤكد الدراسة أنه بعد الخلاص من مرض أنفلونزا الطيور، فإنه لابد أن يطرح السؤال التالي: هل سيتفشى مرض أنفلونزا جديد في أرجاء العالم؟، بل متى سيتفشى هذا المرض؟

إجراءات هستيرية

وكما هو الحال في إسرائيل دائماً، فإنه حتى في مواجهة هذا المرض لا يمكن فصل الاعتبارات الاستراتيجية الخاصة بالدولة التي تريد إقناع اليهود بكل وسيلة أن العيش فيها هو الأفضل لهم. من هنا فإن الدراسة الإسرائيلية توصي باتخاذ إجراءات يمكن وصفها بالهستيرية من أجل مواجهة المرض. وتهدف الإجراءات التي توصي بها الدراسة القيادة السياسية باتخاذها من

أجل مواجهة المرض إلى تقليص فرص إمكانية انتقال الفيروس من شخص إلى آخر. وتشمل التوصيات:

١- تشكيل هيئة حكومية مهمتها مراقبة سبل مواجهة المرض والحرص على اتباع الإجراءات الصحية إلى يتم إقرارها من قبل وزارة الصحة، بحيث تعمل هذه الهيئة على مدار الساعة.

٢- وقف استخدام وسائل النقل العامة فى الدولة العبرية بشكل عام، بما فى ذلك وقف العمل فى خطوط القطارات وحافلات النقل العام، وإغلاق المدارس والمراكز الجماهيرية، ودور السينما والمسارح.

٣- تشجيع سكان الدولة فى المرافق الخاصة على العمل من داخل المنازل عن طريق نقل التعليمات من أرباب العمل للعمال عبر الهاتف والفاكس، وذلك فى المرافق التى يمكن أن تسير فيها الأمور على هذا النحو.

٤- توزيع الكمامات الواقية التى تزخر بها مخازن قيادة الجبهة الداخلية التابعة لهيئة أركان الجيش الإسرائيلى على سكان الدولة واستخدامها فى تنقلاتهم، مع العلم أنه عادة ما يتم توزيع هذه الكمامات من أجل مواجهة إمكانية استخدام سلاح كيماوى أو بيولوجى فى هجوم على إسرائيل.

٥- وتوصى الدراسة بإجراء متطرف يتمثل فى إمكانية عزل المرضى فى بيوتهم بدلاً من نقلهم للمستشفى وذلك بالطبع باختيارهم.

٦- منع التحرك داخل الدولة العبرية فى المناطق التى سجلت فيها حالات إصابة بالمرض بين السكان، وتقليص سفر الناس لهذه المناطق.

٧- تجنيد أعداد كبيرة من مفتشى الصحة ووضعهم فى الموانئ والمطارات والمعابر الحدودية لتوقيف كل شخص تظهر عليه أعراض المرض المتمثلة فى ارتفاع درجة الحرارة والإسهال وضيق التنفس وإخضاعهم لفحوصات طبية عاجلة، وستتم إعادة كل شخص تثبت إصابته بالمرض إلى بلده إن كان «أجنبياً»، وإن كان إسرائيليا يتم عزله بشكل فورى. أما الإسرائيليون القادمون من مناطق تعانى من المرض فإنه سيتم إخضاعهم لفحوصات حتى لو لم تظهر عليهم أعراض المرض.

٨- وتوصى اللجنة بإعداد بنية قانونية تسمح بإضفاء شرعية قانونية على هذه الإجراءات، وذلك عن طريق قيام الكنيست بسن قوانين تمد مؤسسات الدولة بهامش مناورة واسع لاتخاذ ما تراه مناسباً من أجل مواجهة المرض. وهناك تخوف من أنه بدون سن قوانين جديدة فإن هذه الإجراءات قد لا تنجح فى اجتياز الالتماسات التى ستقدمها للمحاكم من قبل أصحاب المصالح الذين سيتضررون من القيام بهذه الإجراءات.

شكوك

وتعبر الدراسة الإسرائيلية عن تخوفها من إمكانية أن تتفشى النسخة الجديدة من الفيروس الذى يسبب مرض « أنفلونزا الطيور»، وهو الفيروس الذى تؤكد منظمة الصحة العالمية أنه لم يتم حتى الآن تطوير أمصال مضادة له، مع العلم أنه تم تطوير أمصال ضد الفيروسات الثلاثة الأخيرة التى ثبت أنها تسبب المرض أيضاً. وتنوه الدراسة إلى أن تطوير مصل مضاد للفيروس الذى يسبب « أنفلونزا الطيور» يحتاج لفترة تتراوح من ٤- ٦ شهور، وتشير إلى أن إنتاج هذه الأمصال سيكون بطيئاً، ولا تستبعد الدراسة أن تضطر الدولة العبرية كسائر دول العالم إلى استخدام الأمصال التى تم تطويرها فى الماضى للنسخ القديمة من الفيروسات التى تسبب الأنفلونزا. وترى الدراسة أنه حتى لو استطاعت دول العالم تطوير أمصال مضادة للفيروس، فإن قدرة الفيروس على مواءمة نفسه مع الظروف، فضلاً عن الآلية المعقدة التى يتبعها فى إصابة الطيور والإنسان تجعل من الصعوبة بمكان إمكانية مواجهته بنجاح. وتستذكر الدراسة أن الفيروس يصيب الإنسان، إما عن طريق «إعادة التشكل» (reassortment)، أو عن طريق إحداث تغيير فى تركيب جيناته (genetic shift). وتشير الدراسة إلى أن الطواقم الإسرائيلية تعكف على أبحاث متواصلة من أجل تطوير أمصال ضد الفيروس. وتقر الدراسة بأن إمكانية مواجهة هذا المرض ستكون عسيرة. وترجع قدرة هذا الفيروس بشكل أساسى إلى قدرته العالية على إصابة الإنسان وتمتعه بقدرة على مواءمة نفسه مع الظروف المتغيرة، وتحديدا قدرة الجينات التابعة لمولدات الجينات (antigens) الخاصة بالفيروس على التشكل من جديد بشكل مفاجئ، مع العلم أن مولدات الجينات الخاصة بالفيروس هى: Hemagglutinin ÈNeuraminidas. ومن الأهمية الإشارة إلى أن هناك مولدات جينات أخرى للفيروس تتواجد فى كائنات حية أخرى، سيما الطيور والخنازير. ■



ديوان الطرب

سلامة حجازى

إن كان يوسف للجمال دعاكموا

إن كان يوسف للجمال دعاكموا	فأبوه للأحزان فيه دعانيا
إن كان يوسف قطعت أيد له	فأنا الذى لك قطعت أحشائيا
إن كان إخوته تعمدوا بيعه	فأنا الذى برضاى بعت فؤاديا
إن عاد يعقوب بحزن فراقه	فأنا الذى بالقرب أصل غراميا
إن كان أيوب له فى صبره	فرج فصبرى فيك أصل بلائيا
ياليت موسى حين شق بحاره	قد شق بحر مدامعى وبكائيا

دور

ارحم أسيرك وانظر لعبدك	يا حلو مرة وحياة عينيك
وانظر إلى وارحم بقلبك	يا حلو حبك ما يهون عليك
يا بدر واصل عشاق جمالك	بعد البعاد يا عينى وارحم
ليه انت يا سيدى باخل تمنع	وصالك والقلب فيك مغرم
يا قلبى مالك م العشق تبكى	حدش عشق يا قلبى غيرك
شوف انت يا سيدى حالك يكفى	تشكى واحسن بقى سيرك



حكايات عزمى بشارة



أحمـــــد أبو حســـين

■■ عندما أهديت «حب فى منطقة الظل.. رواية شظايا مكان» الطبعة الفلسطينية لأحد الأصدقاء فى القاهرة قبل صدورها عن دار الشروق المصرية والمركز الثقافى العربى فى بيروت قال لى لحظة تناوله الرواية : «غريب أمر عزمى بشارة.. أنه مذهل وخلاق.. من أين له كل هذا الوقت»، أصاب الصديق فى تقييمه الأولى من مجرد رؤية الكتاب قبل الغوص فى كلام الرواية ربما لأنه متأكد أن عزمى بشارة لا يقول مجرد كلام للاستهلاك فى زمن استهلاك الكلام و«فوضى الحواس» الروائية والانقضاض على روايات هارى بوتر بموجب قوانين السوق الاقتصادية. فقراءة الكتب فى هذه الأيام باتت فى نظر الكثيرين استثمارا غير «مجد» فى زمن «الاستهلاكية» وعصر السرعة والاكتفاء بالثقافة «السمعية» والوجبات السريعة و«مشهدية» الفضائيات، لكننا رغم ما ذكر وما نشهده من حالة «ثقافية» متردية نراهن على كتاب لعزمى بشارة توزعه ثلاث دور نشر فى آن واحد كى يصل إلى المواطن العربى ولا يكون شهادة عن عذابات أو «رسالة فى الحب والأخلاق» فحسب أو مجرد رواية للتسلية إنما نطمح الى تعميم رواية (روايتنا)، ونهدف إلى توضيح رؤية لفكر وطروحات وإيضاحات روائية حديثة من خلال تصوير أدبى رائع وأسلوب كتابة من نوع آخر لتجربة عشقية «واقعية» يمكن تسميتها «ما بعد حداثية» يسرد خلالها حكايات عن الناس وللناس.

البلاد مليئة بالحكايات، ولكل واحد عالمه وحكايته، والحكايات عند عزمى بشارة «الحكواتى» أو «الحكاى» كما يقول إخواننا المصريون بالعامية لا تنتهى، وربما لا تنتهى وقد لا تنتهى، لأن الحكاية ستتحول إلى نوستالجيا «ليست مثلما كانت» كما تقول الممثلة الفرنسية الشهيرة الراحلة سيمون سنيورى، والنوستالجيا تحمل الحنين إلى ماض والمعاناة الناتجة عن الرغبة غير المشبعة بالعودة.. وهى أيضا الحزن الناتج عن الحنين إلى مسقط الرأس والمنزل كما يقول الروائى البرتغالى ميلان كونديرا. والناس فى بلادنا يحبون «صف الحكى» من باب «الفضفضة» عن حالهم، وقد يروى الواحد حكايته أكثر من مرة لأكثر من شخص، وجباية الحكايات وتحويلها إلى رواية ليست بالأمر السهل وغالبا ما قرأنا روايات عربية تحاول أن تعكس الواقع وتصوره لكن المبالغة المصحوبة ببلاغة زائدة تجعلك تترك الراوى بين كلماته، لكن علاقة عزمى بشارة مع الواقع ومع النظرية ومع الأدب مختلفة وحكايات عزمى بشارة عن الناس من خلال تجربة حب بين عاشقين رحلة ممتعة ومؤلمة، مضحكة وحزينة فى آن تشدك إليها رغما عنك.

وهناك فى «دولة الحاجز» أو فى «منطقة الظل» عندما تشرق الشمس وتلقى بظلها على الناس تتشوه الكلمات والمعانى والرواية والثقافة والهوية بعدما حاصرها الحصار، واقتصرت الأعمال «الإبداعية» فى العقد الأخير على قصيدة هنا وديوان هناك يوزع حصرا على أصدقاء الشاعر وغالبا ما يبقى مفهوم القصيدة محجوزا فى أحشائه بعيدة عن الهم العام، لنكتشف بعد حين أنها ثورة فى الأحشاء ونذالة ووجهنة فى العلن مع فقدان الناس جرأتهم فى زمن استهلاك الحاجيات كما ذكرت واستهلاك الكلمات إذا استهلكوها أصلا.

وقبل أن أدخل فى تفاصيل الرواية الجديدة أو التجربة الثانية التى خاضها عزمى بشارة بعد «الحاجز.. شظايا رواية» والتى بشرت لنا أن كاتبها لديه ما يقال فى هذا المجال وأنه يستطيع أن يروى حكايتنا.. روايتنا نحن الفلسطينيين القابعين فى وطن.. المكان الذى تشظى بفعل وجود دولة القادمين.. التى قسمت فلسطين إلى دولة الحاجز وبلاد الحواجز. لكن بشارة هذه المرة لن يسمح للمكان أن يشظى روايته لأن المكان متشظ أصلا مثلما تطاول الحاجزعلى روايته الاولى وشظاها وجعلها صوراً واقعية تراجيكوميدية وبرغم ذلك اجتاز بشارة الحاجز وبقى فى المكان وأنجز رواية تستحق الانتباه بإمعان، روايته الجديدة، «حب فى منطقة الظل».

وأبيح للقارئ بعض الأسرار، لأننى منحاز لعزمى بشارة الصديق الكاتب والمفكر الديموقرطى القومى العربى، أن هذه الرواية أقلقته كثيراً أثناء الكتابة فكان مهتما بإعادة السرد أكثر من مرة والتدقيق بالتفاصيل وتغيير الأسماء ما عدا الأبطال الرئيسيين عمر ووجد ودنيا. فأنا شخصيا قرأت الرواية ثلاث مرات مع كل التغييرات وأعرف أنه يعكف على هذا العمل منذ سنتين، ولا أخفى أننى أتعامل مع نصوصه كقارئ وصاحب موقف وأحد المتحمسين لمشروعه الثقافى والفكرى وليس كناقد أدبى مع احترامى لنقاد الأدب والسينما والرياضة، لأن أدوات النقد الأدبى ومعرفة هوية المبنى وجماليات اللغة والحبكة يحملها النقاد وأتركها لهم لأنى لا أسمح لنفسى أن أعتدى على ممارستهم المهنية «وأكل عيشهم». ومهما قيل أو سيقال مع الاعتذار سلفا للنقاد يستطيع القارئ أى قارئ حتى لو لم يكن نبيها أن يقرأها حتى النهاية ويعيشها إذا أراد فعلا أن يعرف الرواية وفق عالم الراوى.

فليعذرنى القراء على هذا الانحياز «الموضوعى» للرواية لأن الكاتب صديقى أو اتخذت مواقف مماثلة لمواقفه أو ربما لأننا ننتمى لنفس «العالم»، لكن هذا الانحياز يشكل للقارئ شهادة من قريب تساعده فى فهم بعض خيوط الرواية.

ينفعل قراء الرواية وخاصة المثقفين من كل رواية يجتازون حواجزها وإن تعددت الروايات العربية التى لا تستحق استكمال حكايتها حتى النهاية فالقراءة شبيهة أحيانا بالاستماع للراوى لأن هناك علاقة بين العين والأذن، بين الصمت والسمع فعندما يكون الراوى «نشازا» تترك المكان وعندها تتصعب من القراءة والفهم وتدخل فى التعقيدات غير المبررة تسقط الكتاب إلى تحت السرير لتنغمس فى النوم شاردا من الرواية والاتعاب الذهنية. وما فعله الراوى «فى حب منطقة الظل» فعله جوزيه ساراماغو فى العمى عندما «جرجرنا» حتى نهاية روايته لنعرف سر ما يريد، وهكذا فعل بى مؤخرا غابرييل غارسيا ماركيز فى «ذاكرة غانياتى الحزينات» فقد استغل غريزة فضولى لأعرف «الفضائح» الجنسية لرجل تسعينى. أما عزمى بشارة فقد «جرجرنى» وجعلنى أبحث من باب الفضول أيضا عن شخصية عزمى بشارة فى الرواية، فوجدت ألمه وجنونه، همومه وثقافته، ديموقراطيته و«ثوريته» العقلانية، صمته المميز وأسلوبه فى الكلام ومحاولاته الذكية فى «حشر» من يحاور، صفات تجدها فى شخصيتى

حب فى منطقة الظل
رواية شظايا مكان
عزمى بشارة
تصدر قريبًا عن دار الشروق

الرواية، وكأنه وزع نفسه بين العاشقين عمر ودنيا، وبينهما وبين عمو صلاح.

ومن قرأ «طروحات فى النهضة المعاقة» لعزمى بشارة الصادر عن دار الريس ٢٠٠٣ الذى قدم خلاله فى حينه قراءة للواقع الاجتماعى ومعيقات النهضة العربية المستعصية وأنتج لنا «البوم صور عن مثقفى إعاقة النهضة»، سيستسهل فهم الحوار المستمر بين عمر ودنيا فى «حب فى منطقة الظل».

يستطيع الناقد اعتبار الرواية «رومانسية»، لأنها فعلا لا تخلو من الرومانسيات الجميلة وأحاديث عن الحب والسياسة و«الغيرة»، «وأحمر الشفاه والميك أب»، ومعانى الشرف والوطنية وسمات الرجل الشرقى والخيانة... إنها باختصار قصة «حب لرجل مسكون بهواجس الحرية والسعادة والأخلاق والجمال والعدالة... والسياسة». ويستطيع ناقد آخر أن يعتبرها رواية سياسية وحكايات عن الناس فى «إسرائيل» أو دولة الحاجز كما اختار الكاتب أن يسميها وتعمّد فى الرواية عدم ذكرها باسمها ربما عقابا منه لما فعلت بناسه وأهله... لدرجه انه جعل ظل بطله يظهر فجأة «كأنه خرج منه ، وطال وتركه إلى أن اعتقد أنه تقيأ ظله .. لا يخلو الحوار الرومانسى بين العاشقين عمر ودنيا من «السياسة» الطاغية على قصتهما، فالحوار نفسه هو «رومانسية سياسية وتمرد عليها فى آن»، يشكو عمر همومه وقلقه لدنيا، أما دنيا فتحاول أن تتنازل لعمر بما يرضى، أو توازن حدته أو تحرجه وتكتشف ضعفه أيضا، ولكنها تحبه قبل كل شىء وهو يحبها، والرواية كلها قصة حب..

يقول عمر لدنيا «أنا أصف لك ما أحس به. أنا أعيش هنا، غيرى يكره شعبه ويحب «القضية»، يا دنيا، يتكبر على العيش مع شعبه، أو على الأقل لا يطيق ذلك، ويطل عليه أحيانا فيبدو نجما متواضعا، من السهل أن تبدو كمن يحب شعبه إذ تطل عليه مرة فى العام. وحضرتك لست قاسية هكذا بالكلام، ولكنك غير مستعدة أن تعيشى هنا وربما أنت قاسية بسلوكك الحياتى، لا يخطر ببالك العيش بمثل هذا المحيط، ومتهاونة فى تقييمك لأنك تتسامحين عن بعد، وأنا قاس بتقييمى ولكنى أعيش مع الناس. لنر إذا كنت، حضرتك، سوف تتسامحين مع الوضع عندما تضطرين أن تعيشى معه.

وتجيب دنيا- ومع من أعيش أنا ؟ من قال لست مستعدة؟

ويرد عمر- ربما مستعدة أن تأتى لتعيشى معى، ولكن لن تختارى أن تعيشى هنا كما اخترت أنا... فترد عليه دنيا أن لا أحد فينا اختار أين يكون.

لا بد من العودة إلى الحاجز

أمر ما شدنا فى حينه إلى رواية الحاجز، إنها رواية وليست خواطر اختارها استلهاما محض صدفة، وهى «مفككة» بأسلوب تمنح القارئ فرصة البداية من أى باب يختاره وفى كل باب من الرواية يلتقى بطلها، والبطل ليس فقط مكانًا أو زمانًا، انه معشش أيضا فى النفوس ويترك أثره عليها.

«الحاجز» بطل كل الفصول والمشاهد وهو الذى يشظّى المكان والناس، إضافة إلى «مقتهم»، والحاجز عند عزمى بشارة لا يقتصر على ذلك الحاجز بين الطرقات فحسب، إنه موجود فى كل مكان، فى الجسر والمطار وحضور الجنازة والزفاف وفى الطرق الالتفافية وعند شاطئ البحر. انه الواقع المر الذى يهين الناس والزمن. فماذا يعنى أن تمنع من ممارسة طقوس الحياة وأن تختار شريكتك دون حواجز، حتى الوداع الأخير والجنازات يحجزها الحاجز.

كتب عزمى بشارة فى «الحاجز» بلغة أخرى لم يعرفها من قبل الذى تعودَ على مقالته السياسى أو الفلسفى ففاجأ الكثيرين بمقدرته على كتابة الأدب، وإن كنا لمسنا هذا الأسلوب فى مقطوعات من مقالاته الكثيرة، إنه يروى همومه بدءا من الحاجز «المحسوم» بالعبرية الدارجة بلغة أهلنا سكان بلاد الحواجز أو «المحثوم» كما تسميه ابنته الصغيرة «وجد»، التى اختارها هذه المرة «بطلة من هذا الزمان» فى روايته الجديدة ليغوص بالهم العام الذى يخلفه الحاجز ولينهى روايته «الحاجز» بحديث طفولى بين وجد وعمر. وقد اختار الأخير أيضا بطلا «لتجربة فى العشق».

من كتاب إلى آخر، من شظايا رواية إلى رواية، من «الحاجز» إلى ظل الحاجز وظل عمر و«وفقدان عمر ظله»، وعودة الظل إلى مسقط الرأس وظل الظل.. «وتقمص الصحفى دور ظل الصحفى أو الصحفى ظل السياسى»، و«ظلال السياسيين التى أنجبت أنصاف صحفيين» «واتهام الظل منافسيه من الباقين بالتطرف».

تكشف الرواية وقاحة ظل الحاجز وتوضح للقارئ حقيقته.. يقول الراوى ص ٣١١ «الناس خارج دولة الحاجز غير معتادين على وقاحة «ظل الحاجز»، خاصة عند الظهيرة أى عندما تضرب الشمس الحاجز عموديا فيكون الظل على نقطة التماس تماما بين عالمين، مما يضيف نمط الوقاحة المحمودة فى دولة الحاجز. وهم يستغربون من وقاحة الظل القادم من منطقة الظل القادم من منطقة الحاجز، ويحسبونها تعبيرا عن أهمية أو خطورة الوقح».

وانتظرت عزمى بشارة ليروى لنا حكايات عمر مع عشيقته دنيا، «الحب الحلم لعمر» الفتاة التى طالما حلم بها، مارس معها «الحب» والكلام على «التشات» مجتازا كل الحواجز من الأسلاك الشائكة والحدود وحدود الكلام لدرجة أن دنيا تغضب من قسوة عمر لكنها سرعان ما تلين وتتراجع لأنها تحبه أو لأنها فهمت «جنونه»، أو لأنها تكتشف جنونها هى أيضا.

فجأة تتذكر علاقة الفلسفة بالجنون، ولأنك أمام كاتب يمسك زمام الفلسفة، تشعر أنه يعيدك إلى جنون مثيل فوكو الذى يعتقد أنها «الممارسة اليومية المنتظمة».. كل يوم مماحكات على التشات، فجأة تكتشف أن العزلة التصويرية للجنون عن العقل هى اللاعقل. عصبيات مماحكات عمر وفضوله اليومى وحبه للأشياء والأسئلة الزائدة تذكرك بهذا الجنون ويغضبك أن تتساءل فعلا ما هو الجنون.. لا تستطيع أن تفهم حماقات عمر غريب الطباع لكننا نلتقى مع فتاة تعرف أن تحب وأن تفهم حبيبها.

فجأة «تصفن»، وتشرد أذهانك من الرواية لتبحث عن العلاقة بين الفلسفة والأدب.. وتتعامل مع الراوى كمناضل سياسى يرسخ خطابا من خلال ما يروى وما يسرد وما يضع من أفكار ووجهات نظر على شكل حكايات مصوغة فى بناء استدلالى من المقدمات والشرح والنتائج.

والخطاب يحتاج إلى معرفة وكلمات.. والرواية «التاريخية» تحتاج إلى خطاب يستند على المعرفة والكلمات، الحداثة والمدنية ، الأصالة والتراث .. الكمبيوتر وعلم الحاسوب والعمل فى النجارة ورائحة الخشب واستحضار ما تندب النساء من «بقايا التراث» عند موت عزيز .. والتراث شأن من الماضى لكنه حى عالق فى الذاكرة له علاقة مع الهوية والذاكرة الجماعية .



الرواية «رومانسية»، لأنها فعلا لا تخلو من الرومانسيات الجميلة وأحاديث عن الحب والسياسة و«الغيرة» «وأحمر الشفاه والميك أب» ومعانى الشرف والوطنية وسمات الرجل الشرقى والخيانة



عمر ودنيا وعمو صلاح

عمر الأكاديمى وخريج كلية الحاسوب من جامعة أوروبية يعيش داخل دولة الحاجز، عمل فى شركات الهاى تيك وستارت أب، وبعدها تنقل للعمل فى مهن مختلفة كالصحافة والنجارة.. والده على الجنابى المثقف الذى درس فى الكلية العربية قبل النكبة، لم يستطع فى دولة الحاجز أن يمتلك بيتا بعد أن صادر الحاجزيون أرضه، فقد أصدقاءه بفعل التشرد ولم يبق له فى البلاد غير عمو صلاح صديقا، وعمو صلاح يصغر على الجنابى بصفين فى الكلية العربية فى القدس، كان مناضلا من اجل نشر العلم والثقافة وتحرير الوطن وكانت تربطه بعمر علاقة خاصة لدرجة انه اصطحبه معه ليعرفه على دنيا ابنة ابن عمه المتوفى.

تعرف عمر على دنيا



ديوان الطرب

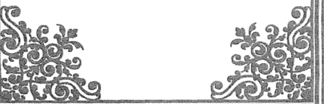
سلامة حجازى

أتيت فألفيتها ساهرة

أتيت فألفيتها ساهرة	وقد حملت رأسها باليدين
وفى صدرها زهرة ناضرة	رأيت بأطرافها دمعتين
وقد وقفت دمعة حائرة	على خدها مثل ذوب اللجين
فقلت علام البكا والحزن	وكيف مضى ذلك الابتسام
فقالت هو الدهر لا يؤتمن	وفى قوسه منزع للسهام
رضيت الذكاء رضيت الحسب	رضيت اليراع يخط العجب
سلام على روحك الطاهرة	سلام على سر ذاك الكمال
سلام على ذاتك الحاضرة	بقلب يراها بعين الخيال
سلام على مهجة طائرة	حنينا إلى ذلك الاتصال
تفرقنا عاديات الزمن	وتجمعنا حادثات الغرام
فنحيا جسوما بهذى الفنن	ونحيا نفوسا بذاك السلام

دور

بستان زمانى واتلطف	وشفت حبى فى البستان
فقلت له لما شرف	والله زمان يا حلو زمان



واحبها فورا وقرر أن دنيا هى الفتاة التى يستطيع أن يحبها، ودنيا بنت لاجئين فى لبنان أرسلها والدها لتتعلم الطب فدرست العلوم السياسية، وعندما التقت بعمر هبطت فى حبه «هبوطا رقيقا عذبا» فبعد اللقاء الأول راحا يتحدثان مع بعضهما فى «المسنجر» على الإنترنت، وجلسا ساعات طويلة يتبادلان الحوار والنقاش والمماحكة والغضب والمزاح فى أرخص وأسهل وسيلة اتصال ممكنة. «وأدت موجات لغضب إلى فراق وعودة متكررين على الإنترنت» ص١٠، لأنه كان يحبها، يحبها فعلا.. يقول ص١١ «يحدث أن يعيش الناس ويموتون دون تجربة حب فعلية، أما أنا فلا أحب فقط بل أحب تلك التى حلمت أن أحبها فكيف أتخلى عن هذا؟... كيف نتخلى عن هذا؟».

كتب عمر لدنيا عن الحواجز وحكايات «الحب المحجوز خلف الحواجز» وفلسف لها أسباب وجود القادمين فى دولة الحاجز، يقول عمر ص ١٧ «صحيح أن القادمين مهاجرون إلى ما يعتقدون أنها بلادهم، ولكن الباقين ليسوا باقين فحسب بل أيضا مهاجرون وغرباء فى دولة ما كانت بلادهم، لم يغادروها بعدما غادرتهم. ولم يبرحوها حتى بعدما غادروها فيها، أو بعدما غادرتهم فيهم». يتابع عمر قائلا «وإذا هجرت البلاد المهاجرين فى بلدهم، وإذ غادرتهم فيهم تجوف حيزهم الخاص نحو الداخل، وتجوف نحو الخارج، اختفى الحيز العام، واختفت المدينة. اختفت الأمكنة العامة وبقيت الأماكن بشكل عام، وبات أبناء المكان نزلاء فى المكان بوجه عام، طلول الراحلين اللاجئين وظل القادمين الوافدين».

ينتقل الراوى من فصل «المكان» إلى «البلدة» أو «القرية عالم الناس هناك» ليروى لنا ان عمر لم يغير مسكنه فى القرية نوعا من الوفاء لوالده، برغم من أن والده كان منفتحا ولم يطالبهم بمراعاة تقاليد لا عقل فى مراعاتها، وكان «هذا يعنى بالنسبة لعمر البقاء فى البلد إلا إذا اضطر للرحيل كخيار أخير، والبقاء فى البلاد فى كل حال»، ص ٤٦. وقد تربى جيل عمر على سؤال: «ايمتى راجع البلد» «مش تروح وما ترجع للبلد»... والبلد هى القرية، والقرية هى «البلد» و«البلد بلدنا»..

حوار يستمر ساعات كل يوم، أحاديث فى الحب والسياسة، من البلدة إلى البلدية وعموم الناس فى الحيز العام وسلوكهم...

يقول «ليس للقرية شاطئ ولا حديقة ولا غابة ولا توجد فى القرية قرية، انتزعت القرية من المكان والمكان أيضا فرغ من جوفها. بقيت القرية الكبيرة يفصل بين داخلها الموظف أساسا كمأوى للنوم بعد العمل وبين خارجها المركب من خارج فقط، خارج بذاته. وسكانها الذين فقدوا الطبيعة... يريدونها أن توزع عليهم من قبل «الدولة» كقسائم بناء ويريدون أرصفة وحديقة عامة مثل القادمين». ص ١٣٣ .

يضع الراوى عالمه (معادلته) من البداية بخصوص الرواية عن «أبناء المكان» الفلسطينى، وما فعله أصحاب دولة الحاجز بهم رافضا ادعاءات الصراخ والتملق والتسليم فى الأمر الواقع، وسيكتب عمر لاحقا الى دنيا عن أن طروحاته تنطلق من كونه «صاحب البلد» المغترب فيها وبين سكانها.

يضع الراوى المجتمع العربى على المشرحة من خلال نماذج من شخصيات الرواية عمر ودنيا ووجد وعمو صلاح وعصام ومحمد وابوعمر على الجنابى.. من الصعب أن تجذب عامة القراء إذ تتطلب نوعا خاصا لديه الكفاءة الذهنية والثقافية فهى تقدم مادة روائية لا يسهل تلقيها ولكن لا بد من ثقافة خاصة لتلمس أسرار الكتاب والوقوف على مضمون فهو يتطلب المشاركة العقلية. فشخصيات الرواية ربما عمو صلاح الصامت الذى لم يقل كلمة واحدة فى الرواية مثلا أو بعض أفكار عمر وأسئلة دنيا وخوف وجد كلها أفكار معبرة عما فى فكر كاتب الرواية، إنها شخصيات «واقعية» من نسيج خيال الكاتب ومن تجارب ذاتية عاشها كما يبدو، فمن الصعب أن تكتب رواية دون أن تلامس بعض الشخصيات فى الواقع الحياتى، فالتجربة والمرحلة مادة روائية.



سوف تكتب الكثير من الدراسات حول هذه الرواية وشخصياتها وتحير دور الإعلام فيها ، وعالم الظلال الذى يقسم الواقع إلى ازدواجية جدية تضرب فى ازدواجية الحاجز فينتج عوالم افتراضية لا متناهية فى انعكاس مرآتين. سوف يكتب عن توظيف الخشب فى وصف الفرق بين عالم الحياة وعالم الظلال الافتراضى الذى يحاول السيطرة على عالم البشر عبر الصورة. عن كل فصل دراسة... المستشفى، السجن، الإعلام، عالم الظلال.. رواية حقيقية، أدب روائى يروى أيضا دون أوهام وبسخرية مرة قصة شظايا مكان، قصة فلسطين من زاوية تكاد تكون مستحيلة، زاوية عاشق بجرح وقلب مفتوح وعقل مفتوح وواقع موصد وليس لديه من يراسله سوى فتاة أحلامه ودنيا حبه ومن يدرى فربما اخترعها ليراسلها. ■

تمويل سيارتك
"جديدة أو مستعملة"
حتى ½ مليون جنيه



• أحقية الحصول على القروض ومواصفاتها ترجع الى شروط وسياسات برامج التمويل الخاصة بالبنك العربي

resala-communications.com

- أقل سعر فائدة
- فترة سداد تصل الى ٧ سنوات
- امكانية المنح بدون ضامن وبدون مقدم (وفقاً لمواصفات البرنامج)

اسأل عن البرامج المتنوعة المصممة لتناسب إمكانياتك وإحتياجاتك



البنك العربي

إتصل الآن على ١٩١٠٠
من أي محمول/هاتف بالقاهرة والمحافظات
يومياً من ٩ صباحاً حتى ٩ مساءاً
(بسعر المكالمة العادية)

الإنترنت فى العالم العربى:

ملعب الليبرالية السياسية

ألبرشت هوفهاينز



بمجىء ٢٠٠٣، كان أربعة بالمائة على الأقل من السكان فى البلاد العربية يستخدمون الإنترنت - حوالى ١١ مليون نسمة. وفى الربع الرابع من ٢٠٠٤، سجلت العديد من المواقع العربية نموا واضحا وطرديا فى أرقام المرور، وإذا استمر الاتجاه، فلعلنا نتوقع أن يكون ١١ بالمائة من السكان العرب على الشبكة بنهاية ٢٠٠٦

أحمد اللباد

بعد عقود من الركود السياسى، فى بواكير ٢٠٠٥ شُعِر فى الشرق الأوسط برياح أمل جديدة، ترافقها لازمة أخذت تدور دورتها فى الإعلام الأمريكى، «الربيع العربى». كان يُرى فى المظاهرات الشعبية بلبنان، والتى أعانت على إسقاط الحكومة وإجبار سوريا على إجلاء قواتها، أفضل تجسيد للاتجاه الجديد. الانتخابات الوطنية فى العراق والمحلية فى فلسطين والعربية السعودية، أو تغيير الدستور المصرى ليسمح بأكثر من مرشح رئاسى، كانت علامات أخرى على أن التغيير ربما يكون أخيرا فى الطريق. كان عصر البطاركة العجائز، كما بدا، يقترب من نهايته. ودوما ما كان ينظر لوسائل الإعلام الجديدة - التليفزيونات الفضائية، الهواتف المحمولة، الإنترنت - باعتبارها قد عجلت بهذا التطور بتخفيف التحكم المهيمن للحكومات فى تدفق المعلومات. ولا ننسى، بالطبع، العوامل الخارجية: فما انفك مؤيدو إدارة بوش يقولون إن حزم الولايات المتحدة وإصرارها على قيم الحرية والديمقراطية هو ما كان يبدأ فى جنى ثمرته.

الإصلاح عبر الإعلام

بالنسبة لأولئك الذين يناضلون من أجل الحرية والديمقراطية فى العالم العربى، فإن السجال على الثقل النسبى للعوامل الخارجية مقابل الداخلية فى جلب التغيير هو سجال ذو أهمية سياسية عظيمة، حيث إنهم مضطرون لدفع الاتهامات بكونهم مجرد دمى لمشروع استعمارى جديد (نيوكولونيالى) تتزعمه أمريكا، يروج «أفكارا غربية» مستوردة تهدد بإفساد القيم «الأصيلة» للمجتمعات العربية التى تقاتل من أجل الاستقلال الحقيقى وتقرير المصير.

المتفائلون العلمانيون مثل عالمة

فصل من دورية:
Internationale Politik und Gesellschaft / International Politics and Society
تحرير وإعداد:
Friedrich-Ebert-Stiftung
الناشر:
Verlag J.H.W. Dietz, Bonn
١٩٢ صفحة، مارس ٢٠٠٥
ترجمة: محمد فتحى كلفت

كانت الرسائل القصيرة وسيلة ناجعة فى تنظيم الاحتجاجات ضد غزو العراق بقيادة أمريكا فى مارس ٢٠٠٣ (أول احتجاجات شارع جماهيرية فى مصر منذ ١٩٧٧ لم ترتبها جماعات سياسية منظمة لها بتصريح رسمى)، تماما كما لعبت دورا كبيرا فى المظاهرات اللبنانية فى ربيع ٢٠٠٥



الاجتماع المغربية فاطمة مرنيسى (www.mernissi.net) من ثم يحتفون بالقوة التحريضية لدى مشاهد الفضائيات سريع الحركة وبالافتتاحات الأهلية لـ «السنابد» الجدد كما تلقب العرب المبحرين فى الحِمى الجديد، الفضاء التخيلى (Mernissi ٢٠٠٤). لا تنى مرنيسى تقول إن قوة الكلمة ستكتسح الحاكم، وإن قوة شهرزاد ستسود على السلطان أخيرا، والتى هى أيضا، لا سيما، قدرة المرأة على تغيير عالم ذكورى. وهى فى بحثها عن كشف جذور قديمة متأصلة لهذه الخطابات البديلة، ليست فقط تعد بشرعية بكر للعمل الأهلى فى العالمين العربى والإسلامى، بل تشجع أولئك الذين لم يكن لهم صوت مُشهر من قبل، النساء، الشباب، القرويين، ليرفعوا صوتهم، وتعقد الأمل والإيمان عليهم لمواجهة الانتكاسات الوقتية. أكثر من أى شىء آخر، لعل هذا هو الموقف الذى يميز خير تمييز نشطاء المجتمع المدنى على الإنترنت العربية اليوم. تكلم جهارا. لا تدعهم يسكتونك.

ولكن أهذه مجرد قصة خرافية؟ الأمثلة على الآمال المتهاوية تتكاثر عبر المنطقة. مثلا، زهير يحياوى «التونسى»، الذى جرؤ على الكلام جهارا بنشره مجلة وب ناقدة للنظام (www.tunezine.com)، والذى قبض عليه وأصبح قضية الموسم العربية الأولى لرقابة الإنترنت، لم يعش حتى يرى حلمه يتحقق: مات بأزمة قلبية فى ١٣ مارس ٢٠٠٥، وعمره ٣٦. لقد «نجح فى فتح ثغرة»، قالها مؤيدوه - لكن النظام الذى ناضل هو ليهزمه لا زال يعزز ما أشارت إليه بى.بى. سى كـ «واحد من أكثر أنظمة رقابة الإنترنت المحبوكة فى العالم». فى سوريا، كان رئيس ومؤسس جمعية الحاسبات السورية (ج.ح.س) محط أمل غير هين بخصوص تحقيق ليبرالية النظام السياسى عندما خلف والده على «العرش» فى ٢٠٠٠؛ والآن فإن ج.ح.س (أحد موزعين اثنين فقط لخدمة الإنترنت فى البلاد) تعرف أول ما تعرف بافتقارها التام للشفافية فى منع المرور لمواقع الشبكة، وسوريا بين الأمم العربية السباقة إذا ما ذكر اعتقال المواطنين على ذمة تهم متعلقة بالإنترنت (Eid ٢٠٠٤).

الرقابة عاجزة

تظل الرقابة مسألة شائكة فى المنطقة، رغم أنه ليس كل الدول تمارسها بنفس الدرجة. أساليب متعددة تستخدم. فتشيع فى السعودية وسوريا وتونس واليمن غربلة وحجب مواقع بعينها محسوبة فى عداد الخارجة لأسباب أخلاقية أو سياسية. وقد قللت الإمارات العربية المتحدة والبحرين والأردن من الغربلة، مركزة على القليل من مواقع المعارضة السياسية. تغربل قطر فقط ما تراه بورنوجرافيا. والمرور غير المغربل متاح فى المغرب والجزائر وليبيا ومصر والسودان ولبنان والعراق والكويت. فى بعض الحالات (مثلا السودان واليمن والمغرب) صارت تكلفة الوصول للإنترنت عالية جدا لعدة سنوات مما يقصُر استخدام الإنترنت بفعالية على أقلية ضئيلة، مع ذلك فهذا آخذ فى التغير. وحتى فى البلاد التى لا تغلق المرور لمواقع تراها خارجة أخلاقيا أو سياسيا، على أى حال، فإن الحركة المرورية مراقبة من قِبل الشرطة وأجهزة الأمن. فى السودان، كمثال، وافقت السلطات على إدخال الشبكة (فى ١٩٩٧) فقط بعدما وجدت ترتيبا سمح للخدمات الأمنية بوصول سهل إلى كل الحركة المرورية: سودانت Sudanet، موزع خدمة الإنترنت الوحيد فى بادئ الأمر، كان نصفه مملوكا لوكالة الأمن (وهكذا تمدها بدخل أيضا)، وفى البداية، كان على المستخدمين تسليم كلمات السر التى تخصهم واضحة الشكل لموزع الخدمة ولم يكن مسموحا لهم بتغييرها.

بالرغم من ذلك، فيما تظل الرقابة مسألة همها كبير، لم تكن الحكومات قادرة على إسكات تعبير المنشقين على الشبكة، وعلى منع الاستخدام المتزايد للتكنولوجيا فى تقوية الاتصال والتنسيق بين المعارضة ونشطاء المجتمع المدنى. إن منع المرور لمواقع معينة يفى بغرض ترحيل جمهور المستخدمين الاعتياديين بعيدا عن المحتوى غير المرغوب فيه؛ وهو لا يعوق أولئك الذين يريدون فعلا الاتصال بالمعارضين طالما أمكنهم إيجاد طرق لتفادى التحكم الرسمى بسلاسة نسبية. وربما وُجد الخوف من الرد، ولكن، كما يذهب محام لحقوق الإنسان بالسودان فى مقابلة مع كاتب هذه السطور، «تعرف الحكومة ما نعتقده بطريقة أو بأخرى، لذا فلو أرادوا القبض علينا فهم يفعلون ذلك سواء أذعنا رأينا على الشبكة أم لا، لذا فنحن لا ندع ذلك يقيدنا».

تمارس السعودية وسوريا وتونس التحكم الأغلظ يدا فى حركة مرور الإنترنت بالمنطقة، ولكن حتى - أو ربما بالخصوص - فى هذه البلاد، أثبتت الشبكة كونها عاملا حيويا فى فتح النوافذ وتوسيع مجال ما يمكن قوله على الملأ. فتح زهير يحياوى «ثغرة»، كما رأينا؛ وحتى أشد الناقمين من الحكومة يعترفون بأن «الإنترنت هى النافذة الرئيسية للتوانسة فى ظل الافتقار التام لحرية الصحافة والمعلومات» (Bensedrine ٢٠٠٥). كتب الروائى والكاتب السورى عمار عبد الحميد أنه «رغم الصورة الكئيبة الشاملة» التى لا تزال تميز الإعلام السورى، «بدت فى الشهور الأخيرة مؤشرات أن ذوى التفكير الإصلاحى من أعضاء النظام، مستعدون للسماح بالتعبير عن معارضة محدودة فى المنافذ المملوكة للدولة»، والظاهر أنها بمثابة «امتداد لتسامح النظام مع المبادرات المبنية على الإنترنت - وهى سياسة تسمح لرموز المعارضة ببث نشرات إلكترونية حتى وإن كان المرور العام لمواقعهم قد يغلق (Abdulhamid 2004: ١٥). وقد رُصد ذلك أيضا فى السعودية حيث صار يسمح للصحف بفسحة زائدة لنقد الإدارة المحلية والمجاهرة بالحديث عن القضايا المحلية، بداية فى أعقاب انتشار الفضائيات أوائل التسعينيات، ثم عقب إدخال خدمات الإنترنت فى ١٩٩٩/ ٢٠٠٠. بعد سنوات قلائل من هذا التطور، شهدنا انتخابات محلية فى البلاد (١٠ فبراير-٢١ أبريل ٢٠٠٥)، الشىء الذى لم يكن يعتقد فيه منذ عقد ونصف مضيا، وتتصاعد الآمال بأن النساء - وحقوقهن العامة أو عدمها هو موضوع السجال على نحو متزايد فى الإعلام - سيُمنحن حق التصويت فى ٢٠٠٩.

منهج مثابر وتعليمى يميز موقع «القرار العربى» (www.arabdecision.org) والذى يتحرى شفافية أكثر بجعل المعلومات المؤسسية عن العالم العربى فى متناول المواطنين بيسر. إذا تم إعلام ما يكفى من الناس عن المؤسسات التنفيذية والتشريعية والقضائية والإدارية والاقتصادية والمالية والتعليمية والإعلامية والخاصة بالمجتمع المدنى الكائنة فى بلادهم، وما الغرض منها كما هو مفترض، ومن القائم على التشغيل بها، وما هى خلفية هؤلاء المسئولين، وماذا تقول القوانين، وما إلى ذلك، سيساعد ذلك فى تمكين الناس ليتصرفوا كمواطنين يعرفون حقوقهم وقادرين على المطالبة بها.

من العقيم أن نتساءل عما إذا كانت هذه التطورات راجعة أكثر للضغط من الخارج أو من الداخل - وهو سجال لأسباب سياسية واضحة يحتدم بغليان فى الشرق الأوسط. إن التغيير دائما نتاج التفاعل بين عوامل الشأن الداخلى والمؤثرات الخارجية. فى ٢٠٠٣، عندما أطلقت حكومة الولايات المتحدة «مبادرة الشرق الأوسط الكبير» لترويج الديمقراطية فى المنطقة، ساور القلق نشطاء كثيرين بأن نداءهم العتيد للإصلاح السياسى فى بلادهم يتعرض للاختطاف من قِبل قوة عظمى عرفت للشطر الأكبر من القرن العشرين بدعم الأنظمة نفسها، باسم الاستقرار، التى كانت رموزا لخنق الحركات الديمقراطية، وبأنه لذلك كان نداء الديمقراطية فى خطر أن يغدو مشوبا أكثر حتى من ذى قبل كخضوع لأفكار «غربية» وهيمنة غربية. فى النهاية، مهما يكن، كسبت أرضاً وجهةُ النظر التى مفادها أن أيا ما قد تكون أجندة الولايات المتحدة، فلا ينبغى أن يثبط المجتمع المدنى، بل يستمر فى تكثيف جهوده ليحتشد كقوة ضغط من أجل إصلاح حقيقى. هكذا، فإن المبادرات هناك وفرة منها، والنية قوية للتوسع فى استخدام الإنترنت لتعليم العامة، والدعم الدولى لتنمية المجتمع المدنى آت عما قريب، وبالرغم من الجهود المستميتة من قبل الدول لمراقبة التدفق الحر للمعلومات والحد منه، فهى لم تكن فقط غير قادرة على قمعه، بل لقد اضطرت فى العموم للتسليم بأن هيمنتها على الاتصال تنكمش. والسؤال الآن هو: من الواصل فعليا للإنترنت فى العالم العربى؟ وماذا يفعل الناس فى واقع الأمر بالوسيلة الإعلامية الجديدة؟

الوصول لا زال محدودا

بمجىء ٢٠٠٣، كان أربعة بالمائة على الأقل من السكان فى البلاد العربية يستخدمون الإنترنت - حوالى ١١ مليون نسمة[1]. وفى الربع الرابع من ٢٠٠٤، سجلت العديد من المواقع العربية نموا واضحا وطرديا فى أرقام المرور، وهو تطور يغلب الاحتمال بأن يكون على صلة بالتوفر المتزايد لوصلات التردد العالى فى الدول العربية. وإذا استمر الاتجاه، فلعلنا نتوقع



أن يكون ١١ بالمائة من السكان العرب على الشبكة بنهاية ٢٠٠٦.

جغرافيا، فإن مصر والسعودية هما البلدان اللذان يسهمان أكثر فى هذا النمو. وحاليا هما يشكلان أكثر من ثلث مستخدمى الإنترنت العرب أجمعين، ويتضاعف الاستخدام بسرعة فى كلا البلدين. بروز هذين البلاد، وبالمثل قدرة عرب الخليج الشرائية، هو بجلاء شديد ما يعطى شكل محتوى ما يغلب الظن بأن مقلبى الصفحات فى الفضاء التخيلى العربى سيلقونه.

اجتماعيا، انتشرت الشبكة فى السنوات الأخيرة على النحو الأسرع بين الشباب وبين النساء. ويأتى ذوو الأعمار من ٢٠-٣٠ فى الصدارة بصفتهم الأكثر شراهة فى استخدام الشبكة (نسبتهم المئوية بين المستخدمين فى ٢٠٠٣ كانت أعلى مرتين من نصيبهم فى إجمالى السكان)؛ وأولئك ممن هم دون العشرين هم الفئة الأسرع نموا. فى الإمارات العربية المتحدة، قيل أن نصف البالغين من ١٥-٢٤ صاروا متصلين فى ٢٠٠٤. والنساء، اللواتى يزعم أنهن شكلن فى ١٩٩٨ أربعة بالمائة فقط من مستخدمى الشبكة العرب، يقتربن فى غضون ذلك من درجة ٥٠ بالمائة.

المعلومات التى يعتمد عليها عن بنية دخل وتعليم المستخدمين ليست متاحة إلا بصورة شحيحة. الاستخدام العادى، على أية حال، يجرّ تكاليف يصعب أن يجد لها معظم أبناء الطبقة الوسطى الدنيا ما يبررها. وإذا قرنا هذا ببنية تحتية أقل تطورا فى المناطق الريفية، فهذا يقدم تفسيرا لحقيقة أن استخدام إنترنت ظل إلى الآن فى صورته الأقوى بين فئات الحضر والطبقة الوسطى والعليا. وبين الأحدث سنا، والنخب المتعلمة، على أية حال، فهو بصورة متزايدة أمر واقع. وبينما فى التسعينيات، كانت الشبكة محصورة بوضوح فى كونها وسيلة اتصال للمحترفين فى أواسط عمرهم، فهى اليوم تغدو بشكل حثيث عاملا فى اجتماعيات الجيل اليافع.

ما الذى يفعله كل هؤلاء الناس عندما يلجون الشبكة؟ لقد ظلت أنماط الشعبية مستقرة نسبيا عبر السنوات الخمس الماضية التى فى متناولنا إحصائيات لها. فبعيدا عن المواقع الأدواتية المحضة مثل محركات البحث، أدلة المواقع، أو مراكز تنزيل البرمجيات، هم يقصدون الشبكة ولا غرابة لإشباع الحاجات الآتية (بترتيب تقريبى للأولوية كما تعكسها حركة المرور الجامعة): تسهيل ومد الاتصالات الاجتماعية (من خلال البريد الإلكترونى والدردشة)؛ تقديم الأخبار من مصادر يعتمد عليها غير محلية؛ مناقشة كل شىء تحت الشمس إلا قليلا، ولكن بالخصوص مواضيع المحرمات التقليدية فى مجالات الدين والسياسة والعلاقات بين الجنسين؛ تقديم الإرشاد الأخلاقى من منطلق ما يُتصور أنه بمثابة رؤية إسلامية معاصرة عن الحياة الحديثة؛ الترفيه، خاصة تنزيلات الموسيقى، ولكن أيضا الرياضة وألعاب الحاسب، الإرشاد عن كيفية العيش كامرأة مسلمة فى العالم الحديث، ويشمل إجابات عن كل مسائل المرأة «التقليدية» (الجمال والموضة، المطبخ، العلاقات، الحياة الجنسية، الأطفال، العمل والأسرة، وما إلى ذلك)؛ خدمات التوفيق بين واحد وواحدة؛ ومعلومات المال والأعمال.

وما دام ما يعنينا هو المواقع العربية على الإنترنت، فالأكثر شعبية كما جاءت فى مايو ٢٠٠٥ وضعت بها قائمة (انظر الجدول). وتقدم لنا بيانات من مصادر أخرى صورة شبيهة جدا. على سبيل المثال، تصدر سلطات الرقابة السعودية

أكثر المواقع العربية رواجا على الإنترنت، مايو ٢٠٠٥

الاسم	الوصف	الرابط	تأسس	المرتبة المرورية ٠٤/٠٣	المرتبة المرورية ٠٥/٠٥
مكتوب	أول خدمة بريد إلكترونى على الوب سمحت باستخدام العربية (إضافة للإنجليزية). تأسست ١٩٩٨ بالأردن. أصبح أكثر موقع ترددا عليه منذ وقت مبكر (فى ٢٠٠٠، وربما قبل). كان به مليون مستخدم مسجل فى ٢٠٠١؛ ٣,٥ مليون فى نوفمبر ٢٠٠٣؛ ٩, ٣ فى أبريل ٢٠٠٥ - أكثر من ربع المستخدمين كلهم فى العالم العربى. وقد أضاف دردشة، بطاقات إلكترونية، أخبارا، تصويتات، تسوقا، وألعابا لما يقدمه، لكن الأصل يظل بريد الوب.	maktoob.com	أكتوبر ١٩٩٨	١,٤٠٥	١٣٤
Googleالسعودية	ثالث واجهة عربية لمحرك البحث جوجل (بعد google.ae وgoogle.com.ly)، تأسس من أجل السعودية فى أغسطس ٢٠٠٤ . ٢٣٪ من الطلبات على الصور (على جوجل الدولية google.comتبلغ هذه ٨٪ (مايو ٢٠٠٥).	google.com.sa	أغسطس ٢٠٠٤	–	١٦٣
MSN Arabia	صورة من الموقع البوابة العالمى ميكروسوفت نتوورك وقد أضفى عليه طابعا محليا للمستخدمين فى العالم العربى؛ بالعربية والإنجليزية. تديره ميكروسوفت ومعها لنك دوت نت، أكبر موزع لخدمة الإنترنت فى مصر (فوق ٤٠٪ من أسهم السوق). ينتج فى القاهرة ودبى (دبى إنترنت سيتى).	arabia.msn.com	سبتمبر ٢٠٠١	٣٠٠	٢٥٠
الجزيرة	النسخة الإنترنتية من المحطة التليفزيونية الفضائية الأشهر فى العالم العربى. أخبار بالعربية والإنجليزية. تم جعل ال يديو المتدفق (الجارى) streamingوتوزيع تلقيمات الخلاصات syndicationخدمات مدفوعة بعد أن كانت مشاريع تجريبية استهلالية.	aljazeera.net	أغسطس ١٩٩٨	٥٧٥	٢٣٢
الساحة العربية	واحد من أقدم (منذ أبريل ١٩٩٨) وأكثر منتديات النقاش العربية المعروفة، شائع بين كل الملل السياسية. يعرف أيضا بغرف دردشته. مسجل فى الإمارات العربية المتحدة.	alsaha.fares.net/ alsaha.com	نوفمبر ١٩٩٦	١,٥١٩	٣٥٢
موقع الأستاذ عمرو خالد	موقع الواعظ عمرو خالد، المولود فى مصر ويعيش بلندن، وصاحب الشعبية خصوصا بين الشباب. به منتديات نقاش عليها تردد كبير (تقترب من ٤٤٪ من حركة المرور الكلية فى مايو ٢٠٠٥: ١٩٣,٦٠٠ عضو، صعودا من ٧٦,٨٠٠ فى نوفمبر ٢٠٠٣).	amrkhaled.net	يناير ٢٠٠٢	٤,٥٩٥	٣٨٩
google.ae	الطبعة العربية الأولى من جوجل	Google.ae	؟	٣,١٤٥	٤٧٣
الأهرام	طبعة إنترنتية من سيدة الصحافة المصرية المهيبة وفيها من ضمن ما فيها: ثانى أوسع جريدة يومية مصرية، والأهرام ويكلى الإنجليزية والأهرام إبدو الفرنسية.	ahram.org.eg	؟	١,٠٨٥	٥٠٥
طرب Tarab	ملفات ريال أوديو للموسيقى العربية السائدة.	Tarab.com	أبريل ١٩٩٩	١,٥٣٨	٥٨٩
جواب	خدمة بريد وب (تأسس فى مصر، ولكن زبائنه حول العالم).	gawab.com	مارس ٢٠٠٠	٢,٤٤٦	٥٩٧
عالم حواء -Hawaa world	بوابة للمرأة، بنظرة تقليدية. مقام فى السعودية. أروج خدماته بمراحل منتدى النقاش (مايو ٢٠٠٥: ١٢٤,٠٠٠ عضو، صعودا من ٤٣,٠٠٠ فى نوفمبر ٢٠٠٣).	hawaaworld.com	سبتمبر ٢٠٠٠	١٧,٨٧٤	٧٨١
طرب Tarab	بوابة موسيقى.	Trb.com	أغسطس ٢٠٠٢	٤,٥٩١	٧٩٨
جيران	مجتمع عربى للتسكين على الوب. يستضيف صفحات شخصية ومجتمعات، إلخ.	jeeran.com	يناير ٢٠٠٠	٣,١٣١	٩٢٦
تداول: تبادل أوراق البورصة السعودية	معلومات السوق المالية من السعودية.	tadawul.com.sa	؟	٧,٧٧٣	١,٠٠٣
كوورة	بوابة كرة قدم.	kooora.com	سبتمبر ٢٠٠٢	٢٠,٠٠٠	١,٠٠٧

المصدر: المرتبة المرورية فى هذا الجدول مأخوذة عن الكسا Alexa.com



إحصاءات شهرية للمواقع التى يتم المرور إليها من السعودية والأعلى فى التردد عليها، وفيها يعاود الظهور كثير من العناوين المدرجة فى القائمة (المشار إليها أعلاه). ومن بين المواقع الأخرى ذات الشعبية الجلية فى المملكة مباشر Mubasher.com.sa (الأسعار الفورية من تداولات البورصة السعودية)، إيلاف Elaph.com (جريدة إلكترونية ليبرالية لكل العرب)، مفكرة الإسلام islammemo.cc (وهى بوابة إخبارية موجهة للجهاد)، ملتقى التربية والتعليم moudir.com (بوابة تعليمية سعودية)[٢].

إن الحقيقة التى مفادها أن النساء وحديثى السن يشكلون جزءا هاما على مدار الوقت من مستخدمى الشبكة، يعكسها بوضوح نمو الحركة المرورية للمواقع التى تلبى اهتماماتهم. بين ٢٠٠٣ و٢٠٠٥، كان الارتفاع الصارخ فى الرواج قد سجله عالم حواء Hawaa World، كووورة Kooora، ى.آى.بى٦٠٠ (Vip٦٠٠ مرشد برمجيات)، عمرو خالد، مكتوب، تداول، عرب[٣] (Arb بوابة ومنتدى للنساء، حول كل مناحى الحياة الزوجية)، عالم الرومانسية (موقع «رومانسى» للنساء، صنع فى السعودية)، ستارتايمز2 Startimes2 (منتدى نقاش لبوابة فضائيات)، أفضل ١٠٠٠ موقع عربى (مرشد وب)، فوستا Fosta (موقع ترفيهى للذكور حديثى السن غالبا)، دليل إم.بى.سى MBC Guide (مرشد وب لحديثى السن، صنع فى السعودية)، لكى (موقع تقليدى للنساء)، قاسمى والصخرة (وكلتاهما بوابتان عامتان)، شبكة أوز (بوابة كويتية لحديثى السن، بها موسيقى ودردشة وألعاب وساحات نقاش إلخ)، بنت الحلال (موقع للزواج من مصر ذو توجه إسلامى)، جوجل (لكل من السعودية والإمارات)، منتديات جوال العرب (منتديات لمستخدمى الهاتف المحمول)، وموقع الموسيقى طرب Trb.

أمل حَذِر فى التغيير

من مُعطى التوافد المتزايد عليها، خاصة بين النخب واليافعين، فلأى مدى تقوم الإنترنت بتغيير الجو العام فى العالم العربى؟ كيف تؤثر فى المشهد الإعلامى فى العموم؟ كيف تعين عمل الفاعلين السياسيين والمنتمين للمجتمع المدنى؟ وإلى أى مدى يجرى استخدامها فى تعبئة المواطنين والعمل الأهلى؟

كان الصحفيون والمنظمات غير الحكومية بين أوائل العالم العربى فى استخدام الإنترنت باحترافية. وفى غضون ذلك، لا تكاد توجد صحيفة عربية لم تجرب على الأقل مع المحتوى على الشبكة، والعديد من المنظمات غير الحكومية الأيسر حالا لديها مواقع. فى كلتا الحالتين، ساعدت الشبكة أولا وأخيرا على تسهيل وتسريع الاتصال مع العالم الخارجى: بدأت المنظمات غير الحكومية تعتمد على البريد الإلكترونى لتتصل بـ وتنسق مع المنظمات الأم وتنشئ صفحات وب لجذب المتبرعين؛ بدأ الصحفيون استخدام الوب فى صيد المعلومات، والوصول لتقارير وكالات الأنباء والصور، وإصدار طبعات على الشبكة من الصحف التى تقرأها بشكل رئيسى الشاتات القومية فى دول الخليج وأوروبا وأمريكا. وبالنسبة للوصول إلى الجماهير فى المنزل، تتخلف الإنترنت بمسافة عن وسائل الاتصال الأخرى. فبالكاد يتم المرور للنسخ الشبكية من الصحف القومية من المنازل، ولحشد التأييد الداخلى، تعتمد المنظمات غير الحكومية وجماعات المجتمع المدنى على التليفون (خاصة التليفونات المحمولة والرسائل القصيرة)، وآلة الفاكس، والاتصال وجها لوجه أكثر من الإنترنت.

وليس من الصعب فهم الأسباب: فالنسخ المطبوعة من الصحف المحلية تظل أهون ثمنا من وقت الشبكة، وتغلغل إنترنت فى المجتمع هو فقط ليس واسعا بما يكفى بعد ليبرر، لمعظم الجماعات المحلية، الجهد والتكلفة المطلوبين لمواقع الحملات حسنة التقديم والمتابعة. وربما يفسر هذا أيضا لماذا يظل حضور الأحزاب السياسية العربية - سواء الحكومة والمعارضة - ضعيفا فى معدله. محاولات قليلة تتم لترويج خدمات الحكومة الإلكترونية، ومثالها الأكثر تقدما هو مصر، التى رعت ميكروسوفت بوابتها لخدمات الحكومة الإلكترونية فى إطلاقها الثانى (www.egypt.gov.eg) وكانت قد أطلقت فى ٢٥ يناير ٢٠٠٤ بحضور بل جيتس. دول أخرى مثل المغرب (www.egov.ma) أو الأردن (www.moict.gov.jo/MoICT/MoICT_e_services.aspx) طورت أيضا مبادرات حكومة إلكترونية. وإلى حين، ستظل هذه فى مرحلة الريادة، وعندما يأتى الأمر للتعبئة، فقد تجاوزت الرسائل القصيرة الإنترنت بمراحل فى الوصول للناس - ولا عجب، إذ أن التليفونات المحمولة أكثر انتشارا بكثير من استخدام الإنترنت. كانت الرسائل القصيرة وسيلة ناجعة فى تنظيم الاحتجاجات ضد غزو العراق بقيادة أمريكا فى مارس ٢٠٠٣ (أول احتجاجات شارع جماهيرية فى مصر منذ ١٩٧٧ لم ترتبها جماعات سياسية منظمة لها بتصريح رسمى)، تماما كما لعبت دورا كبيرا فى المظاهرات اللبنانية فى ربيع ٢٠٠٥.

حتى الحكومات تحققت من هذه الإمكانية. لقد بُعثت عن السلطات السودانية رسالة نصية لكل المشتركين فى خدمة التليفون المحمول الاحتكارية المحكومة من الدولة فى مارس ٢٠٠٥، تدعو للمشاركة فى مسيرات احتجاجية عامة ضد قرار الأمم المتحدة بأن تطلب من المحكمة الجنائية الدولية التحقيق فى دعاوى جرائم ضد الإنسانية ارتكبها مسئولون سودانيون فى دارفور. ويتناقض نجاح التعبئة بالرسائل القصيرة بوضوح مع المظهر الاستاتيكى نوعا للأغلبية العظمى من مواقع الأحزاب، لو أنهم يشغلونها أصلا. فى المغرب، جرت محاولة لزيادة الوعى بانتخابات ٢٠٠٢ البرلمانية من خلال الموقع المعلن عنه على نطاق واسع www.elections2002.ma، ولكن ذلك بدا مقصودا به ترويج «حداثة» البلد واللجنة الانتخابية أكثر من تقديم محتوى به شىء مفيد.

الجماعات الإسلامية، من الناحية الأخرى، كانت أنجح بوضوح فى تخطيطاتها الإنترنتية من نظرائهم الليبراليين أو العلمانيين. بدأ هذا فى أبكر أيام الشبكة العنكبوتية worldwide web (١٩٩٣)، عندما هرعت جمعيات الطلبة المسلمين فى أمريكا وأوروبا لاحتضان الوسيلة الإعلامية الجديدة لإشاعة وعى إسلامى عالمى. كانت قوائمهم البريدية، وهى نموذج مبكر للاقطات الأخبار aggregators قرئت على نطاق واسع آنذاك، هى أحد العوامل التى ساعدت على تقوية التواصل مع كفاحات المجتمعات المسلمة فى كشمير والبوسنة والشيشان وفلسطين وأماكن أخرى أصبحت نقاطا بؤرية لتطور فكرة أن الكفاح المسلح أو الجهاد كان ضروريا للدفاع عن المسلمين ضد العدوان الخارجى.

فى أثناء ذلك، مع تقنية وب أكثر تقدما وعربية لم يعد استخدامها مشكلة، حملت المشعلَ بواباتُ الأخبار القائمة على الوب. وأنجح المواقع الإخبارية ذات التوجه الجهادى جميعا هو مفكرة الإسلام (islammemo.cc)، المُنشأ فى بداية غزو العراق بقيادة أمريكا فى مارس ٢٠٠٣. ومع الحرب على الفلوجة فى نوفمبر ٢٠٠٤، استطاع مفكرة الإسلام أن يتجاوز فى الشعبية محيط الأقدم منه (moheet.com)، وهو بوابة جماهيرية تجتذب العواطف الإسلامية والقومية العربية أسسته فى ١٩٩٨ مجموعة المتحدة الكائنة فى دبى (arabia-inform.com) وينتج فى مصر. المختصر للأخبار (almokhtsar.com)، وقد أنشأه فى نوفمبر ٢٠٠٢ وهابيون راديكاليون معارضون للنظام السعودى، ولكنهم لا يحرضون ضده صراحة، هو ثانى لاقط أخبار جهادى يظهر بين أروج ١٠٠ موقع عربى. على أى حال، فإن المواقع الإسلامية المحافظة التى تلتزم بخط الحكومة السعودية تستمر فى جذب زوار أكثر بشكل ملحوظ من الصفحات الجهادية، وبخاصة الخيمة العربية (khayma.com)، وهو واحد من أول أدلة المواقع العربية (تأسس ١٩٩٩)، ومواقعه الصديقة، الردادى البوابة (raddadi.com) وموقع الدعوة الوهابى صيد الفوائد (saaid.net).

بطبيعة الحال، يستخدم المتطرفون الإسلاميون الإنترنت أيضا ليكونوا على اتصال، عادة بواسطة مجموعات ياهو البريدية Yahoogroups ومجتمعات إلكترونية شبيهة تُهجَر أو ترحل بنفس سهولة إنشائها. لقد شدت بعضها، مثل مجموعة الإعلام الإسلامى العالمى Global Islamic Media، انتباها لا يستهان به فى الغرب، لا سيما أن ورقة إستراتيجية تقترح هجوما إرهابيا فى أسبانيا للتأثير على الانتخابات نشرت هناك قبل ثلاثة أشهر من هجمات مدريد٣. على أى حال، فإن عضوية هذه المجموعات تتراوح بين الحفنة وبضع المئات على أقصى تقدير. ولا يمكن لذلك اعتبارها منصات جماهيرية ولكن لابد من فهمها كمنتديات تخدم الاتصال الداخلى بين أهل البيت الذين انضووا فى رسالة وقضى الأمر. على نحو مشابه، تتضخم المواقع التى يؤسسها إسلاميون مسلحون، ولكنها باستمرار فى حالة فر من عمليات الكبح، ولذلك فهى قادرة فقط على الوصول لقلة من المكرسين عليهم تعقب مساراتها فى لوحات النشرات الإلكترونية. واحد من أطول الأمثلة عمرا هو



دليل مشاور الذى يظهر فى وصفات عديدة وعلى عناوين شتى، من بينها كان meshawir.cjb.net مفتوحا لبرهة نسبية وقت كتابة هذه السطور.

سواء بصيغة إسلامية أم علمانية، فإن مستخدمى الإنترنت العرب يكنون اهتماما عارما للتطورات السياسية ويعربون عن رجاء قوى فى إصلاحات سياسية ومشاركة عامة أكبر. مصادر الأخبار المحترمة كبدائل والتى يعتمد عليها أكثر من وسائل الإعلام المحلية المحكومة بالدولة لها شعبية غير مستغربة. وقد كانت طبعات الشبكة من الصحف المطبوعة أقل نجاحا نسبيا من النشرات المعدة للإنترنت فقط. أول هذه، إيلاف.كوم (elaph.com) الذى لا ريب فى ليبراليته، تجاوز فى بواكر ٢٠٠٤ أكثر الصحف اليومية العربية المحترمة على نطاق واسع، الحياة، فى الشعبية بين قراء الإنترنت، وفى أبريل ٢٠٠٥ أصبح موقع الأخبار الأول مرورا من السعودية، سابقا حتى على الجزيرة. تلَت أشرطة إخبارية إلكترونية صرفة غير ذلك، مثل القناة (alQanat.com)، وميدل إيست أونلاين (middle-east-online.com)، والفلسطينى دنيا الوطن (alwatanvoice.com)، وجميعها علمانية فى إطلالتها.

بينما الرجاء عظيم يقينا فى مشاركة شعبية أكبر بصنع القرار، يظل قطاع عريض من مستخدمى الإنترنت العرب متشككا بالنسبة لاحتمالية رؤية تغير سياسى حقيقى فى المدى القريب. والأمل والتشكك الواقعى كلاهما يمكن جسهما من بين آلاف التصويتات على الشبكة التى فتحها كل موقع عربى محترم فى السنوات القليلة الماضية، وهى تؤتى لدهشتنا نتائجَ متسقة. يرى مستخدمو الإنترنت أنظمتهم ملتصقة بالسلطة حبا خالصا فيها وبسبب المحسوبية والخوف من أن يعتبرها خلفاء شرعيون ديمقراطيا مسئولة عما حدث. على الأقل قبل الغزو الأمريكى للعراق، ألقوا على حكوماتهم هم القمعية أكثر كثيرا من التدخل الخارجى بالـلائمة فى ضعف الديمقراطية بالمنطقة (Hofheinz 2004: 468-9)(٤). وهذه الخبرة التى ترسخت زمنا طويلا تفسر بسهولة التشكك بين مستخدمى الإنترنت بخصوص «ربيع عربى». «هل تكون الانتفاضة اللبنانية فاتحة عصر الانتفاضات الشعبية فى العالم العربى؟»، سألت الجزيرة.نت فى ٥ مارس ٢٠٠٥. كانت الاستجابة ضعيفة (فقط ٣٫٤٥٢ صوتا) ومنقسمة: ٥٥ بالمائة لم يعتقدوا بهذه المحصلة، بينما ظن ٤٥ بالمائة أنها ربما تقع. وبخصوص ضرورة الضغط الخارجى لتعضيد الإصلاحات الداخلية، فإن مواطنى الشبكة العرب بالمثل ليسوا على يقين. فى نهاية مارس ٢٠٠٥، سألت الجزيرة.نت إذا كان غزو الولايات المتحدة للعراق ضروريا لدفع العالم العربى فى اتجاه الإصلاح والتغيير. وحيث يدين عشرات الآلاف الاحتلال الأمريكى بطرق أخرى، فقط ٢٫٧٩٣ صوتا فُرز فى هذا التصويت، ثلثها، الأمر المثير للاهتمام، وافق على الطرح. فيما بعد سُحب التصويت من أراشيف الجزيرة.نت.

العرب واستخدام الإنترنت

بمقارنة دولية، فإن الاستخدام العربى للإنترنت هو أولا وأخيرا شبيه للغاية بالأنماط العالمية، من حيث أن التوسع فى وتيسير الشبكات الاجتماعية والمعلومات والترفيه هى غايات موجودة فى كل زمان ومكان تساعد الشبكة فى تلبيتها. لكن ملمحين اثنين هما خصيصتان للركن العربى من الإنترنت كما يعرض لنا اليوم. أولا، للدين ثقل أكبر من أى مكان آخر فى العالم، وثانيا، المستخدمون العرب متلهفون بشكل خاص على الخوض فى المناقشة - لا سيما فى السياسة والدين والجنس. فى الميدانين، التوكيد المتنامى على الفرد كمتحدث نشط وصانع قرار، وليس متلقيا سلبيا للخطاب السلطوى، ظاهر جلى. هيا نلقى نظرة على كلتا الناحيتين بتفصيل أكبر:

الدين: I am Maker, Not a Taker

ما يقرب من ٨-١٠ بالمائة من أكثر ١٠٠-٢٠٠ موقع عربى يغشاها الناس ذات شخصية دينية (وفى هذا السياق بتحديد أكثر: إسلامية) لا ريب فيها، الظاهرة التى لا يمكن رصدها فى اللغات الأخرى، شاملة الفارسية والتركية(٥). وأكثرها شعبية على أية حال وبيون شاسع ليست تلك الداعية لحمل السلاح، بل التى تروج لتجديد أخلاقى للفرد، بناء على الحكم القرآنى بأنه «لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم».

على رأسها يأتى موقع عمرو خالد، وهو واعظ تقَوى ولد فى مصر سنة ١٩٦٧ والذى استمال فى السنوات الأخيرة جحافل من المريدين فى موطنه أول الأمر ثم فى دول عربية أخرى، وخصوصا من الفئة العمرية ١٥-٢٤ حيث كما رأينا، ينمو استخدام الإنترنت أسرع من غيرها. فى منتصف ٢٠٠٤، تجاوز موقع عمرو خالد (AmrKhaled.net، تأسس ٢٠٠٢) إسلام أونلاين IslamOnline.net الأقدم بكثير (تأسس ١٩٩٧) ليس فقط كموقع المسلمين الألفا على الإنترنت، ولكن كأكثر المواقع الدينية شعبية على مستوى العالم. جاء إسلام أونلاين بوحى من يوسف القرضاوى، وهو واعظ من مصر أيضا تكمن جذوره فى «الإخوان المسلمون» والذى أصبح هائل التأثير فى التسعينيات من خلال برنامجه الثابت على تليفزيون الجزيرة الفضائى. عمرو خالد أيضا يظهر على الفضائيات، من خلال محطتى اقرأ وإيه. آرتى المملوكتين للسعودية. إن نجاحه - يمكن لأتباعه شراء تى شيرتات مطبوع عليها « I am maker, not a taker» - يجسد بامتياز الروح التى تجذب العرب اليافعين على الإنترنت وأبعد من ذلك: «بدأ عمرو خالد حركة جديدة لم ترد قط بخاطر أى من القادة الإسلاميين وغير الإسلاميين التقليديين. «...» تستطيع بالفعل أن تلمس نبض وحرارة أكثر من مائة ألف شاب عربى يقومون بزيارة موقع عمرو خالد. لأن هؤلاء الشباب قد منحوا ما كانوا قد حرموا منه لسنوات عديدة: «الإيمان بقدراتهم على التغيير والفعل. «...» تغيير حقيقى أتى للوجود، ليس بتقييد الفكر وفرض الاتجاه، ولكن بقبول حمل المسئولية والإيمان بقدرة المرء. «...» لقد فاض بهم الكيل من النزاعات السياسية والدينية التقليدية، وهم غير راغبين فى تضييع أى وقت آخر فى الجدل»(٦).

مما يدعو للانتباه ملاحظة كيف اعتبر أن التغيير قد أتى حقا للوجود، بالرغم حتى أن الواحد قد يحاجج بأنه لم يقع تغيير ذو شأن على المستوى السياسى. عمرو خالد فى الحقيقة يتفادى الكلام فى السياسة، خصوصا الداخلية، ملتفتا لدروسه. أما التغيير الذى ينظر له هنا فهو تغير فى الموقف والقناعة الشخصية، ينصحون به افتراضيا أول الأمر، على المنتديات، حيث يمكن لكل شخص أن يكون له صوت وكل شخص تم تمكينه من الحديث. لكن واقع أن «ظاهرة عمرو خالد» ليست خلوا من التداعيات السياسية وربما تهدد هرميات السلطة، وهى من الثوابت، تجلى فى قرار الحكومة المصرية بمنعه من الوعظ العام فى ٢٠٠٢ - وتلى ذلك ذهابه للمنفى وابتداؤه الموقع.

منتديات النقاش والمدونات:

I Want my Voice Heard!

منتديات نقاش الإنترنت هى السمة الثانية للفضاء التخيلى العربى. ما من مجموعة لغوية أخرى تساجل على الإنترنت بنفس شراهة الناطقين بالعربية. واحد من أقدم (تأسس أبريل ١٩٩٨) وأكثر المنتديات شعبية وما يزال هو الساحة العربية (alsaha.com). سوالف (Swalif.net، تأسس أغسطس ١٩٩٩) وبوابة العرب (Arabsgate.com، تأسس يوليو ٢٠٠٠) هما موقعان آخران تم التردد عليها كثيرا لسنوات. إن هناك مئات المواقع المكرسة للنقاش (فى نوفمبر ٢٠٠٣، أحصيت عدا فوق ٧٥٠ واحدا نشطا، حوالى ٦٠ منها كان التردد عليها كبيرا)، لكن المنتديات فى المواقع البوابات مثل عمرو خالد، إسلام أونلاين وعالم حواء تلعب أيضا دورا مهما جدا. بعيدا عن المخالطة الاجتماعية على المنتدى وتبادل آخر الأنباء عن الهواتف المحمولة وألعاب الكمبيوتر والرياضة والموسيقى والأفلام،



تتضخم المواقع التى يؤسسها إسلاميون مسلحون، ولكنها باستمرار فى حالة فر من عمليات الكبح، ولذلك فهى قادرة فقط على الوصول لقلة من المكرسين عليهم تعقب مساراتها فى لوحات النشرات الإلكترونية





فإن أسخن الموضوعات السجالية هي السياسة والدين والعلاقات بين الجنسين - وهي التابوهات الثلاثة الكبرى في الخطاب العام في العالم العربي. يعكس المشاركون كل أطياف الرأي السياسي، وفي سنوات ٢٠٠٠-٢٠٠٢ بالخصوص، عندما كانت الوسيلة الإعلامية حديثة العهد، جرى التعارك في حروب شاملة بالعديد من المنتديات بين الإسلاميين وخصومهم «العلمانيين» أو «الليبراليين» (عادة ما يستعمل المصطلحان أحدهما مكان الآخر في هذا السياق ليدلا على الناس المعارضين، على الأقل إلى درجة ما، لاستخدام الدين في السياسة). بعد أن زالت الجدة وغدا الكثير من المشاركين الأصليين تعبين من التكرار الحامي الذي لا ينتهي للأقوال، دون تبادل رشيد للحجج في المعتاد، بدرت صحوة مؤكدة، وتوارى مخضرمون كثيرون. وسرعان ما حل محلهم، على أي حال، أعضاء جدد وأحدث سنا، عادة من الفئة العمرية التي كما رأينا هي الأسرع نموا على الإنترنت، أولئك الذين دون الخامسة والعشرين، والذين يعبرون بوضوح عن نفس الاهتمام الذي أبداه الرواد بإظهار أنفسهم، والإدلاء بدلوهم وجعل صوتهم مسموعا. لقد أثبتت الإنترنت نفسها كوسيلة مثالية لكسر الحدود المفروضة كما جرت التقاليد بشأن من المسموح له بالحديث على الملأ، وما الذي يقال أو حتى يسمح بالتفكير فيه بالنظر للنظم الاجتماعية والأخلاقية والسياسية.

على نحو مثير للفكر، وصلت ظاهرة البلوجة blogging للعالم العربي متأخرة بالمقارنة. البلوجات blogs (web logs) أو اليوميات التي يسجلها غالبا أفراد) بدأت في الانطلاق في الغرب عام ٢٠٠١ وما لبثت بعد ذلك أن أصبحت ملمحا هاما للغاية في استخدام الإنترنت الفارسية، بين أخريات. الإيرانيون في أرض الوطن وفي الخارج استخدموا البلوجات ليس فقط في نشر المعلومات الناقدة للنظام بعد الضرب على أيدي الصحافة الليبرالية في إيران، ولكن أيضا للتعبير عن أنفسهم في المسائل الشخصية والاجتماعية والثقافية وبناء وطن افتراضي لأنفسهم حيث كانوا في موضع السيطرة وبإمكانهم الائتناس بمجتمع حميم من الأصدقاء. ولكن حتى رغم أن واحدا من أشهر المبلوجين bloggers أجمعين، سلام پاكس Salam Pax، كان عربيا (سجل يومياته في حياته ببغداد من سبتمبر ٢٠٠٢ لأغسطس ٢٠٠٤)[٧]، وأن بضع مدونات أخرى كانت منشورة من العالم العربي قبل ٢٠٠٤ (غالبيتها بالإنجليزية)، أخذ الأمر بعض الوقت من الحركة ليسمع بها. ومع مطلع ٢٠٠٥، على أي حال، محبطين من اللهجة غير المتحضرة عادة في منتديات النقاش والرقابة التي تمارس هناك في بعض الأوقات، وبهدف أن يكونوا سادة والبيت بيتهم، بدأ العرب بصورة متزايدة يقولون وداعا للمنتديات، معلنين أنهم بصدد التركيز على التدوين. كان عبد الله المهيري من أبو ظبي أول من ينشر مدونة بالعربية (serdal.com)؛ ويشهد له بالفضل في الإتيان بالترجمة العربية المقبولة لكلمة «blog المدونة». أقيمت حلقات ولاقطات مدونات عربية لتشبيك المجتمع (بالنسبة مصر، قارن بين egybloggers.com وEmanalaa.net/egblogs؛ بالنسبة لمحاولة عمل قائمة بكل المدونات التي تتحدث العربية، انظر arabblogcount.blogspot.com)، وحتى فكرة «اتحاد مدونين» عرب أطلقت ليكون ممثلا لـ«الحركة الثقافية الجديدة». جوائز فضلى المدونات العربية BABA السنوية الأولى جرى التصويت عليها في فبراير ٢٠٠٥، وبدأت الصحافة في الكتابة عن الظاهرة. المؤسسة الخيرية الأمريكية سپيريت أوف أمريكا والتي تسعى لترويج «الحرية والديمقراطية» في العراق وأفغانستان اكتشفت قوة المدونات وساعدت في برمجة أداة للسماح بالتدوين بالعربية (الظاهر وهي غير مدركة أن ذلك صار ممكنا منذ فترة طويلة على blogspot.com وأنظمة أخرى)؛ وهي تسكن مدونات من العراق على friendsofdemocracy.net.

أغلبية المدونين العرب ناقدون للتدخل الخارجي، على كل حال، بمثل ما هم ناقدون لأنظمتهم هم. في مصر، يؤيد مدونون كثيرون حركة كفاية (harakamasria.com) التي تعارض فترة خامسة للرئيس مبارك أو توريث ابنه جمال، وتنشد إصلاحات ديمقراطية حقيقية في البلاد[٨]. أيا كانت محصلة صراع السلطة السياسية هذا، تهيأت ٢٠٠٥ لتصبح السنة التي فيها ظهر التدوين العربي في المشهد ماردا من القمقم كوسيلة إعلامية جديدة يحتضنها الكثيرون ليؤكدوا ذواتهم على الملأ. وكما يصف الفرعون الكبير (bigpharaoh.blogspot.com) موقعه: «هاي، أنا من مصر. هذه أول مدونة لي على الإطلاق. أود أن أستخدمها لجعل صوتي مسموعا. أتمنى أن تستمتعوا بحاجياتي!».

هذا هو الموقف الذي يميز مستخدمي الإنترنت في العالم العربي خير تمييز: ثقة زائدة بالنفس وإيمان بإمكانيات الواحد (الذي يجد نفسه، ولو على سبيل المزاح، في اسم «الفرعون الكبير»)، وأن يصبح الواحد نشطا، وأن يجعل صوته يسمع، وأن يكشف ويوسع شبكاته الاجتماعية حول الاهتمامات المشتركة، وأن يمرح، وأن يبرح السلبية، وأن يخلق شيئا مفيدا - وإذا كررنا الشعار الذي على تي شيرتات عمرو خالد: أن يكون صانع حياة!

بينما يغدو مستخدمو الإنترنت أكثر توكيدا للذات، فهم يغدون أيضا أفضل في انتقائهم سائلين «ما الذي أريده حقا». إن الاجتماعيات التي يخبرونها على الشبكة، من خلال تقليب الصفحات والاختيار وبنفس القدر من خلال المشاركة في السجال العام، يعود المستخدمين أكثر مما هو الحال في المجتمعات التكافلية التقليدية على مفهوم امتلاك الناس لآراء مختلفة، وأن رؤى المرء نفسه ليست بالضرورة بديهية للجميع، وأن على المرء إيجاد براهين ليبرر اعتقاداته، ويعقلها، وأن يقبل (ولو على مضض) كونه لن يقدر على إقناع الكل. إن زوال بديهية صور العالم التقليدية وهرميات السلطة يخلف الفرد، ليس حر الإرادة، وإنما بالتأكيد أكثر انفتاحا ووعيا بفرديته، وأكثر إدراكا لا تشوبه شائبة بدور الاختيار في خلق أوساط اجتماعية ومعرفة وقيم. وقد أدى هذا، على سبيل المثال، لأن تتشظى منتديات النقاش تشظيا متناميا - إذا لم يعجبني ذلك الذي أنا به حاليا، أهاجر وأعمل واحدا جديدا. على المستوى الديني، يمكننا رصد توكيد متنام على تعبيرات «إسلامي أنا»، بمعنى فهمي أنا الخاص كفرد لما يعنيه الإسلام حقا، في مقابل الرؤى التقليدية أو السائدة حاليا لدى الآخرين، واعظين شعبيين كانوا، أم علماء تدفع لهم الحكومة، أم دراويش متطرفين، أم جماهير منقادة.

تغيير أجيال أكثر منه ثورة

استعادة مساحة للخاص، غير السياسي، هو غاية للمجتمع المدني ليس فقط في إيران، حيث خلص مراقب مطلع إلى أن هذه الآليات الخاصة، التي رسختها عمليات التنمية السكانية، ربما يظهر أنها تتمخض عن تغيير أعمق جذورا من العمل السياسي المباشر (Kermani ٢٠٠١، وكذلك Koch ٢٠٠٤). الإنترنت أحد العوامل تقوم مع أخرى رديفة لها (تليفزيونات الفضائيات، الثقافة الشبابية، «عولمة» المنتجات الاستهلاكية، الشبكات الاجتماعية، الأنساق الفكرية) بخلق آلية للتغيير تساعد على إزالة الشرعية عن بنى السلطة التقليدية في العائلة والمجتمع، والثقافة/الدين، وكذلك الدولة، وهكذا تخلق ضغطا من أجل الإصلاح، ببطء وليس بلا انتكاسات، ولكن في النهاية بشكل نافذ لا يرد، يطالب الشباب بحقهم في مساحات «خاصة» من الحرية تؤثر في مواقفهم الاجتماعية. وفي مواجهة هذه العملية، فإن الأفكار التي تتناول العلاقات بين الدولة والمجتمع والفرد والتي كان من الممكن قبولها عموما لأجيال، هي في سبيلها للتغير، والإنترنت هي الواسطة التي دأبوا على التعبير فيها عن هذا التغير بعنفوان على أشده.

هوامش

(١) بيانات مستقاة من الاتحاد الدولي للاتصالات عن بعد International Telecommunications Union: مؤشرات الإنترنت، المستخدمون، عدد الحاسبات الشخصية، ١٥ مارس ٢٠٠٥ (Internet indicators, users and number of PCs (www.itu.int/ITU-D/ict/statistics).

(٢) وحدة خدمات الإنترنت بمدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية (www.isu.net.sa).

(٣) الهيئة الإعلامية لنصرة الشعب العراقي: «عراق الجهاد: آمال وأخطار» http://www.mil.no/multimedia/archive/00038/

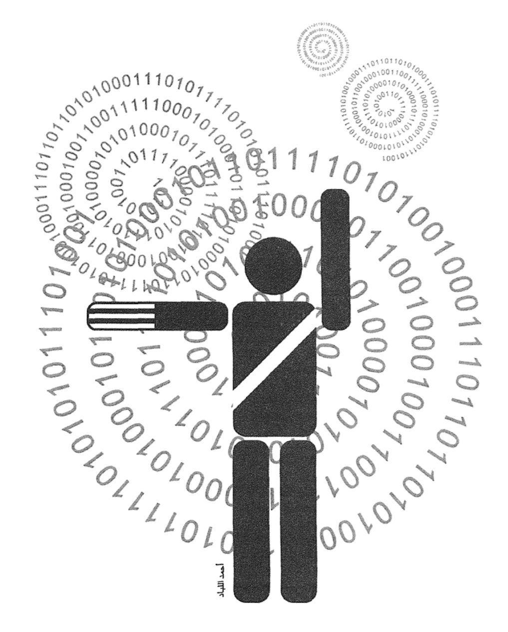
(٤) لنموذج من التصويتات على الشبكة، انظر هوفهاينز، «Tabellen zur Internetnutzung und Internetumfragen in Nordafrika, Nah- und Mittelost»، ص ١١-٢٧ (http://www.menavision2010.org/dokumente/tp4-auszuege-drei.pdf).

(٥) بالفارسية، فقط موقع ديني واحد يتربع بين المائة الأوائل الأكثر شعبية: المكتبة الإسلامية «حوزه علميه» على hozeh.tebyan.net.

(٦) ظاهرة اسمها عمرو خالد. الرابطة الإسلامية في بريطانيا (http://www.mabonline.net/islam/personalities/articles/amrkhalid.htm).

(٧) أين رائد؟ «Where is Raed»، (dear_raed.blogspot.com). وقد نشرت الجارديان جزءا منه في شكل كتاب، هي التي تعاقدت مع سلام پاكس ليكتب عمودا أسبوعيا بعد حرب العراق.

(٨) انظر، مثلا الوعي المصري (misrdigital.blogspirit.com) ■



من يحكم العالم الافتراضى؟

ديمقراطية الإنترنت

جمال محمد غيطاس

سؤال قمة تونس: من سيدير الإنترنت، الدول أم المنظمات الحكومية، أم القطاع الخاص أم مؤسسات المجتمع المدنى أم المؤسسات العلمية أم المنظمات الدولية

من الواضح أن حالة (فقر الحرية) فى العالم العربى قد انعكست بقوة على مؤتمره التحضيرى للقمة العالمية لمجتمع المعلومات الذى عقد بالقاهرة مايو الماضى، فقد جاء المؤتمر فقيرا للغاية فى اهتمامه بقضايا الديمقراطية وحرية التعبير والمعارضة السياسية عبر الإنترنت، وذلك على الرغم من كونها قضايا دخلت بؤرة التركيز عالميا فى ظل الصخب الدولى الحاد المتعلق بالبحث عن أسلوب جديد لإدارة والسيطرة على الإنترنت، والذى جعلها واحداً من أشد البنود سخونة فى جدول أعمال قمة تونس، ومن الواضح كذلك أن الرسميين العرب يرتاحون للرأى القائل بوضع الإنترنت تحت سيطرة إدارة حكومية بدعوى الحفاظ على السيادة الوطنية لكل دولة، لكنهم لا يقدمون إجابة على السؤال التالى: كيف يمكن أيضا حماية الحرية و(السيادة الفردية) للمختلفين فى الرأى والمعارضين السياسيين فى ظل سيطرة الحكومات على إدارة الشبكة؟ ولا شك أن الوضع على هذا النحو يجعل من الواجب التوقف عند هذه القضية التى تجاوزت كثيرا ما هو (تقنى وفنى) واقتربت بشدة مما هو (سياسى واجتماعى).

أولاً: الحريات فى مجتمع المعلومات

يعد إعلان المبادئ العالمى الصادر عن الدورة الأولى للقمة العالمية لمجتمع المعلومات وكذلك خطة العمل الصادرة عن القمة هما الوثيقتان اللتان ترسمان ملامح المشهد الدولى المتعلق بقضايا الحريات وحقوق الإنسان وحرية التعبير فى مجتمع المعلومات، بل لعل ملابسات إصدارهما تكشف جانبا مهما من المشهد.

فطوال عام ٢٠٠٣ انشغل المهتمون بقضايا المعلوماتية بالعالم اجمع بمتابعة جهود الإعداد للقمة التى عقدت فى ٩ ديسمبر من العام نفسه بجنيف وحضرها حوالى ٦٥ رئيسا وملكا ووفود من جميع الدول الأعضاء بالأمم المتحدة، وكانت كل الجهود منصبة على التوصل إلى توافق دولى حول بنود إعلان المبادئ وخطة العمل، وخلال ٢٠٠٣ اعدت حوالى ٨ مسودات للإعلان وخطة العمل كل منها شهدت بعض التعديلات حتى صدرت فى شكلها النهائى، وقد شكل حق الإنسان وحريته فى الحصول على المعلومات

فى الوقت الذى أصبحت فيه «المعلومات» سمة هذا العصر - وربما كنيته بلا مبالغة - وبعد أن أصبحت مراجع السياسة تضع «المعلومات» عنصرًا أساسيًا من عناصر قوة الدولة، مثلها مثل الموقع الجغرافى والقوة العسكرية وغيرها. وبعد أن أصبحت «الإنترنت» - وهى وعاء رئيسى للمعلومات وقناة أساسية لتدفقها - ممتدة بعنكبوتية شبكتها لتؤثر فى كل مناحى الحياة فكرًا وسياسة واقتصادًا وعلمًا، تنعقد فى تونس هذا الشهر (نوفمبر) القمة العالمية الثانية وهى قمة يغيب عنها العرب، وإن حضرت وفودهم.

فى مقالين اثنين تعرض «وجهات نظر» لبعض من جوانب الموضوع الواسع والمتشعب بطبيعته.

المحـــرر

وحريته فى التعبير البند الأول فى معظم المسودات الصادرة قبل الإعلان النهائى، باعتبار ذلك حجر الزاوية فى الوصول إلى مجتمع المعلومات، لأنه لا معنى لمجتمع معلومات لا يضمن للإنسان حق الحصول على هذه المعلومات.

وفى المسودة التى ظهرت فى أغسطس ٢٠٠٣ كانت هناك صياغتان الأولى تبنتها الدول النامية التى يصاب الكثير منها بالحساسية من الحديث عن حرية المعلومات، حيث قدمت هذه الدول صياغة تتحدث بشكل عام وفضفاض عن الحق فى الوصول للمعلومات وقالت: (مجتمع المعلومات يقوم على المبادئ المكرسة فى ميثاق الأمم المتحدة والإعلان العالمى لحقوق الإنسان وإعلان الألفية، ويتسم بالنفاذ الشامل إلى المعلومات واستعمالها من أجل إنشاء المعرفة وتجميعها ونشرها)، وصياغة ثانية تبنتها الدول المتقدمة وتقول فى صراحة وحسم أن (الوصول للمعلومات حق من حقوق الإنسان) وربطت بينها وبين المادة ١٩ من إعلان الأمم المتحدة لحقوق الإنسان والذى ينص على أن لكل فرد الحق فى حرية الرأى والتعبير؛ وأن هذا الحق يشمل حرية اعتناق الآراء دون أى تدخل، واستيفاء الأنباء والأفكار وتلقيها وإذاعتها بأية وسيلة كانت دون تقيد بالحدود الجغرافية.

أما الإعلان فى شكله النهائى الصادر عن القمة فقدم نصوصا جديدة تجسد حجم الاختلافات والمعارك التى حدثت حتى الثوانى الأخيرة قبيل الموافقة النهائية إذ جاءت النصوص كالتالى: (نعلن رغبتنا المشتركة والتزامنا المشترك لبناء مجتمع يستطيع كل فرد فيه استحداث المعلومات والمعارف والنفاذ إليها واستخدامها وتقاسمها).

وعلى أية حال فإن ما شهدته الدورة الأولى للقمة العالمية لمجتمع المعلومات من اهتمام واسع بقضايا الحريات والحق فى الحصول على المعلومات والحق فى التعبير أكد بوضوح أن مفهوم مجتمع المعلومات يتجاوز كثيرا ما هو تقنى ويدخل عباءة ما هو اجتماعى وسياسى، ولذلك فإنه إذا كان الحديث يجرى من قبل عن الخبز والحرية كطرفى معادلة يتعين على أية دولة الاجتهاد فى توفيرهما معا لمواطنيها، فيمكننا القول الآن أن المعادلة باتت ثلاثية وليست ثنائية الأطراف، ففى مجتمع المعلومات لم يعد مطلوبا من الدول أن توفر لمواطنيها الخبز والحرية فقط، بل لابد أن يكون معهما المعلومة، لأنه بدون هذا الطرف الثالث الجديد سيكون من الصعب. وربما من المستحيل. توفير الخبز أو الحرية.

هكذا كشفت أعمال القمة والوثائق الصادرة عنها المكانة المتقدمة التى تحتلها قضية الحريات والديمقراطية والحق فى التعبير فى مجتمع المعلومات العالمى ككل، وبسبب هذه المكانة كان لابد أن تحتل قضية الحريات والديمقراطية . مرة أخرى. مكانة متساوية من حيث الأهمية والحيوية والقوة فى كل ما يخص شبكة الإنترنت من قضايا، لأن شبكة الإنترنت أصبحت مرفقا عالميا متاحا للكافة، وتعتبر من أهم الركائز الاساسية لإقامة مجتمع المعلومات على المستوى القطرى أو الإقليمى أو العالمى، لكونها تعمل كبيئة خصبة وواسعة للتواصل الاجتماعى والمجتمعى والتعبير عن الرأى جنبا إلى جنب مع أدوارها الاقتصادية والتنموية، ومن ثم ليس من المنطقى أو المعقول أن تترك أهم ركيزة من ركائز مجتمع المعلومات دون مناقشة وضبط أوضاع حرية التعبير بداخلها، وعليه أصبحت الطريقة التى تدار بها الشبكة والجهة أو الجهات التى تسيطر عليها من القضايا ذات الاهتمام الكبير على المستوى الدولى.

وتجسيدا لذلك حظيت هذه القضية بمناقشات عنيفة وحادة خلال الدورة الأولى لقمة المعلومات ولم تستطع القمة حسمها وأرجأتها للدورة المقبلة بتونس، وقد ذكر البند ٤٨ من إعلان المبادئ أن (الإنترنت تطورت لتصبح مرفقاً عالمياً متاحاً للعامة وينبغى أن تشكل إدارتها قضية مركزية فى جدول أعمال مجتمع المعلومات)، كما ذكر البند ٤٩ أن (إدارة الإنترنت تنطوى على قضايا تقنية وقضايا تتعلق بالسياسات العامة على حد سواء، وينبغى أن يشترك فيها جميع أصحاب المصلحة والمنظمات الدولية الحكومية والمنظمات الدولية ذات الصلة).

إدارة الإنتـــرنـــت

كما هو معروف فإن الإنترنت شبكة معلومات عملاقة شديدة الاتساع تضم بداخلها آلاف الشبكات الفرعية وملايين الحاسبات الإلكترونية المختلفة الأنواع والأحجام والمتنوعة فى الوظائف، والمنتشرة فى معظم دول العالم، وتنخرط جميع هذه الحاسبات والشبكات فى أحاديث متصلة فيما بينها، على شكل تبادل للرسائل والملفات والصور والبيانات وغيرها، ومن المنطقى بالطبع ان تكون هناك قواعد تنظم العلاقات فيما بينها، بما يضمن انسيابا سهلا ومنظما وصحيحا للمعلومات والبيانات بين الجميع، ليتحقق الغرض الأساسى من الشبكة كوسيلة فعالة للتواصل بين البشر الذين يستخدمون هذه الحاسبات.

وتنظيم العلاقات على الشبكة له العديد من المتطلبات، لعل فى مقدمتها أن يكون لكل حاسب أو شبكة معلومات داخل الإنترنت بطاقة هوية تعرف شخصيته وتحدد محل إقامته بدقة، وتكون هناك طريقة أو لغة متفق عليها تستخدم عند إرسال أو استقبال الرسائل والبيانات، ويستطيع أى حاسب أو شبكة فهمها والتعامل معها.

ولتلبية هذه المتطلبات تمت ترجمة بطاقات الهوية ومحل الإقامة إلى نظامين مرتبطين ببعضهما البعض، الأول يعرف باسم نظام تحديد العناوين الرقمية ومستخدمى الشبكة ويطلق عليه(ip address) ويتكون من مجموعات من الأرقام المركبة مثل (١٢٧، ١٢٨ ,٩ ,١٢٨)، يتم ترتيبها فى مستويات مختلفة لتحدد على نحو دقيق مكان الحاسب . جغرافيا . ووظيفته وهويته على الشبكة، وعن طريق هذا الرقم الذى لا يتكرر يستطيع أى حاسب أن يتصل بأى حاسب آخر على الشبكة بلا مشكلات.

بيد أن هذا النظام يعمل دائما فى الخلفية ولا يحس به المستخدم العادى أو المتعامل مع الشبكة، فالمستخدم عادة ما يبحث عن عناوين أو أسماء مواقع ومقار معينة على الشبكة، فهو مثلا يبحث عن موقع الجزيرة بعنوانها المعروف www.aljazeera.net، ولا يبحث عن الاسم الرقمى للحاسب المخزن عليه الموقع، لذلك كان لابد من وجود نظام ثان لتنظيم عملية وضع أسماء المواقع والمقار المختلفة على الشبكة، ولابد من وجود جهة تسجل هذه الأسماء بقواعد معينة ضمانا لعدم التكرار، وتصنيف المواقع إلى فئات مختلفة حكومية وتجارية ومواقع شبكات وغيرها، ومن هنا نشأ النظام المعروف باسم نظام تحديد أسماء عناوين المواقع على الشبكة domain names، ويقوم هذا النظام بالربط بين هوية الحاسب الرقمية واسم الموقع أو الصفحة التى يحملها،فإذا ما طلب مستخدم الشبكة اسم موقع معين يقوم بتحويله إلى الاسم الرقمى للحاسب المخزن عليه الموقع بسهولة.

تبقى بعد ذلك مسألة اللغة التى تتحدث بها الحاسبات على الشبكة، وهذه ترجمت إلى نظام يعرف بـ (بروتوكولات الاتصال على الشبكة)، وهو عبارة عن مجموعة من التعليمات أو المفاهيم التى تساعد على تبادل البيانات بين الحاسبات الإلكترونية المكونة للشبكة وتنظيم عمليات الاتصال وخطوط الربط protocol parameter assignment.

وبناء على هذه النظم تشكلت ثلاث منظمات غير حكومية تعمل بشكل تطوعى غير هادف إلى الربح على المستوى الدولى، الأولى سميت منظمة دعم العناوين الرقميةASO، والثانية منظمة دعم أسماء المواقعDSO ، والثالثة منظمة دعم بروتوكولات الاتصالPSO ،كما نشأت العديد من الشركات والجهات التى تقوم بتسجيل أسماء المواقع، تركز أغلبها فى الولايات المتحدة، وبعد ذلك اقترح نظام رابع يسمى (الحاسبات الجذرية root servers) ليكون مسئولا عن تحديد مواصفات الحاسبات المستخدمة فى عملية تحويل أسماء المواقع إلى العناوين الرقمية، مثل نظم التشغيل وأنواع البرامج والتطبيقات المستخدمة على هذه الحاسبات وغيرها.

ومع النمو السريع الذى شهدته الشبكة حول العالم نشأت الحاجة إلى إيجاد كيان موحد يكون مسئولا عن تنسيق هذه النظم الأربع الأساسية التى تقوم بها منظمات الدعم السابقة، ويضع الرؤى التى يهتدى بها الجميع فى تعاملهم مع الشبكة، وفى أكتوبر ١٩٩٨ وبناء على اقتراح من وزارة التجارة الأمريكية تشكل هذا الكيان تحت اسم (آيكان) أو مؤسسة الإنترنت لتنظيم الأسماء والأرقام، كمؤسسة قطاع خاص يكون مقرها لوس أنجلوس بالولايات المتحدة وتخضع



للقوانين الأمريكية وتعمل بمقتضى اتفاق موقع بينها وبين وزارة التجارة الأمريكية ينتهى عام ٢٠٠٦ باعتبار أن الولايات المتحدة هى من اخترع الإنترنت ونشرها عالميا، وبالفعل تسلمت الأيكان المهام التى كانت تقوم بها وزارة التجارة الأمريكية تجاه الإنترنت وبدأت تنمو بسرعة شديدة واجتذبت عشرات من الشركات العملاقة ومئات من الأسماء العالمية الكبرى فى عالم الإنترنت، وعمليا تعد الأيكان اكبر جهة عالمية مسئولة عن إدارة الشبكة.

لكن حاليا انتشرت الإنترنت عالميا وتحولت الى مرفق يعتمد عليه الجميع فى إدارة حياتهم وممارسة أعمالهم، بل اصبحت الانترنت أداة تغيير فى حياة الناس اقتصاديا واجتماعيا، ولذلك فإن هذا الوضع لم يعد مرضيا لأحد خارج الولايات المتحدة، وتحتم البحث عن وجود بديل تفاديا للمضار التى يمكن أن تنشأ عن الوضع الحالى ومن أهمها:

. أن الأيكان لا تخضع لأية اتفاقيات دولية تتعلق بسياسات إدارة الإنترنت، مما يعرض هذا المرفق العالمى لقرارات تعسفية أحادية الجانب بدون أن يكون لأى دولة حق الرفض أو التظلم أمام أى محفل عالمى بهذا الخصوص، وقد يصل الأمر إلى قطع هذا المرفق عن أية جهة بدون إجراءات واضحة أو شفافة فى هذا الصدد، مثل ما حصل مع دولة فيجى والتى أعطى اسمها لشركة أعمال موسيقية أو مثل ما حصل عند قطع الإنترنت لعدة أيام عن إحدى الدول العربية بحجة أنها مصدر للرسائل غير المرغوبة.

. أن ترك الوضع على ما هو عليه سيضع بين الامريكيين أوراق ضغط إضافية على العالم من خلال ما يمارسونه على الشبكة من اجراءات قد تضر بآخرين بينما يراها الامريكيون ضرورية لمصالحهم وأمنهم، ولعل بعض الممارسات التى شهدتها الشبكة فى اطار ما يعرف بالحرب على الإرهاب خير دليل على ذلك.

. أن من يسيطر على كل أو جزء من هذه النظم يمكنه استغلالها كوسيلة للتربح المادى بلا حدود وينجرف نحو ممارسة نوع من الاحتكار والابتزاز والمغالاة فى رسوم التسجيل والإدارة وغيرها.

. أن سيطرة أى طرف على نظم الإدارة الاربع للشبكة (نظام الاسماء الرقمية. نظام أسماء المواقع. نظام بروتوكولات الاتصال. نظام الحاسبات الخادمة الجذرية) بدون ضوابط واضحة يتيح للقائمين له مجالا للتلصص والتجسس وتتبع المحتوى الفكرى والمعلوماتى على الشبكة، بل ورصد ومراقبة وربما اكتشاف وتحديد شخصية اى طرف على الشبكة وانتهاك خصوصيته، ولعل هذه النقطة بالتحديد هى الأكثر صلة بقضايا الحرية والديمقراطية وحرية التعبير على الشبكة.

فى ضوء هذه الهواجس جميعا وغيرها.. جرى الاتفاق مبدئيا خلال قمة جنيف على ضرورة تغيير الأسلوب الحالى لإدارة الشبكة، لكن برز السؤال المهم:

من سيدير الإنترنت: الدول أم المنظمات الحكومية أم القطاع الخاص أم مؤسسات المجتمع المدنى أم المؤسسات العلمية أم المنظمات الدولية؟

لايزال هذا السؤال حتى الآن كالصخرة التى تتفتت عليها أى جهود ترمى للوصول إلى توافق دولى حول إجابة محددة، بدليل أن إعلان المبادئ الصادر عن القمة العالمية لمجتمع المعلومات بجنيف تضمن بندا يقضى بترحيل هذه القضية الشائكة وملابساتها إلى قمة تونس مع تكليف الأمين العام للأمم المتحدة بتشكيل فريق عمل لدراستها وتقديم تقرير بشأنها.

السيناريوهات المطروحة

فى مطلع عام ٢٠٠٤ شكل الأمين العام للأمم المتحدة فريقاً خاصاً لدراسة الموضوع، وعلى السطح تبلورت الآراء فى سيناريوهين رئيسيين:

. الأول يدعو لاستمرار الشبكة تحت السيطرة المطلقة للقطاع الخاص كما هو الحال عليه الآن، ومعظم مؤيدى هذا السيناريو من الولايات المتحدة والدول المتقدمة وتحديدا المؤسسات العملاقة التى تسيطر على إدارة الإنترنت ومن مصلحتها إبقاء الوضع الحالى كما هو، وحجة الداعين لهذا السيناريو أن الإنترنت اختراع من القطاع الخاص الغربى،ويجب أن يدار بطريقة سريعة ابتكارية وبدون إجراءات معقدة بيروقراطية من قبل جهات دولية مثل الأمم المتحدة أو الاتحاد الدولى للاتصالات أو جهات مماثلة، فهذه المنظمات فى العادة بطيئة وغير قادرة على اتخاذ قرارات صائبة فى وقت قصير، ويؤيد هذا التصور أغلب ممثلى المجتمع المدنى الغربى الذين يتخوفون من تدخل الحكومات فى الإنترنت ومن الرقابة الدولية عليها ومن أية محاولات للحد من حرية التعبير عليها وتهديد الديمقراطية وممارسة الاختلاف فى الرأى.

. السيناريو الثانى يدعو لوضع إدارة الإنترنت على المستوى الدولى تحت سيطرة حكومية متعددة الأطراف من خلال المؤسسات الحكومية الدولية كالاتحاد الدولى للاتصالات والأمم المتحدة وغيرها من المؤسسات التابعة وذات العلاقة، بحيث تشرف هذه المؤسسات على إدارة النظم الأربع على المستوى الدولى، بينما تكون السيطرة للحكومات المحلية على المستوى الوطنى، لتتولى الحكومات إدارة الشبكة على المستوى المحلى، وهذا السيناريو تدعمه الدول النامية والصين والهند والبرازيل والدول العربية، وجميعها يرفع شعار الحفاظ على مكتسباتها فى مجال الإنترنت وعدم تعريضها للخطر أو أية إجراءات تعسفية قد تحرمها من استثماراتها الكبيرة فى هذا المجال أو تعرض سيادتها الوطنية للانتهاك والخطر، وفيما بين التيارين توجد العديد من الرؤى الأخرى التى تحاول المزج بينهما لتحقق مشاركة فى إدارة الشبكة من قبل الحكومات والقطاع الخاص والمجتمع المدنى والمنظمات الدولية.

دلائل خطرة

إذا كانت هذه هى السيناريوهات المطروحة (على السطح)، فإن الأمر (فى العمق) ينطوى على الكثير من التعقيدات الشائكة، ففى ضوء ما أعلنه الفريق المعنى بإدارة الإنترنت على لسان المنسق العام بمؤتمر القاهرة التحضيرى فى مايو أو المنشور على موقع القمة بالإنترنت يمكن القول أن القضية محلك سر، بدليل أن الفريق لم يستقر بعد على تعريف عملى محدد متفق عليه للمقصود ب (إدارة الإنترنت) ناهيك عن عمليات الشد والجذب والاستقطاب الحاد القائم حول أوضاع النظم الفنية الأساسية الأربعة داخل الإنترنت ومسئولية السيطرة عليها، أما فيما يتعلق بقضايا الديمقراطية والحريات والحق فى التعبير عبر الإنترنت فالواضح أن تيار الداعين للسيطرة الحكومية على الشبكة هو الأكثر خطورة وإثارة للقلق والفزع، وأول الدلائل على هذه الخطورة أن الكثير من الحكومات، عبر ممثليها الرسميين فى المحافل الدولية المعنية بالقضية، تنسى أو تتناسى عمدا الحديث عن قضية الحرية والديمقراطية عبر الإنترنت وهى تطالب بفرض السيطرة الحكومية على الشبكة، وغالبا ما يأتى حديثها عن حق الحكومات فى السيطرة غير مقرون بأى حديث عن ضمانات تضبط هذا الدور الحكومى وتحول دون افتئاته على حقوق الناس فى التعبير وممارسة الاختلاف معها عبر الشبكة.

وقد قدم المؤتمر العربى التحضيرى نموذجا واضحا على هذا التوجه، فطوال الجلسات التى امتدت على مدار يوم كامل، فتحت الساحة داخل المؤتمر للآراء والتعليقات التى تروج للسيطرة الحكومية على الشبكة باسم الحفاظ على السيادة الوطنية مع تجاهل شبه مطلق لتداعيات هذا الطرح على قضية الديمقراطية وتأثيره على مصير حرية

فى مجتمع المعلومات لم يعد مطلوبا من الدول أن توفر لمواطنيها الخبز والحرية فقط، بل لابد أن يكون معهما المعلومة، لأنه بدون هذا الطرف الثالث الجديد سيكون من الصعب. وربما من المستحيل. توفير الخبز أو الحرية



التعبير عبر الإنترنت، وهو أمر يحتاج (مراجعة كاملة).

فلابد من الاعتراف أن الحكومات لم تكن فى البداية تكترث كثيرا بمسألة السيطرة الحكومية على الإنترنت حينما كانت الإنترنت مجرد شبكة صغيرة للأغراض العلمية والتجارية، لكن الأمر تغير حينما وجدت الحكومات أن الشبكة اتسعت وأصبحت فضاء واسعا يضم بداخله مجتمعا إلكترونيا يوازى المجتمع التقليدى وبدأ استخدامه كأداة للتعبير والتغيير والمعارضة والمطالبة بالحقوق ورفع الاستبداد والقهر، فبدأت الحكومات . خاصة بدول العالم الثالث. تهتم بأمور الشبكة وتنظر لها نظرة أخرى، صحيح أنها تدافع بدرجة أو بأخرى عن حقوق شعوبها فى تأمين استمرار الشبكة لكونها أصبحت أداة تنمية وإنتاج كما تدافع أيضا عن حقوق هذه الشعوب فى الحصول على حصص متوازنة من موارد الشبكة حول العالم، لكن هذه الحكومات . قبل ذلك. تدافع عن أهدافها هى فى السيطرة على الشبكة كفضاء مجتمعى جديد يتعين ألا تترك فعالياته وأنشطته بعيدة عن قبضتها الأمنية والسياسية، وبالتالى فإنها بطبيعة الحال لن تدعم سيناريو يجعلها تذهب إلى القمة المقبلة بتونس رافعة شعاراً أو مبدأ يسلبها فرصة ذهبية لممارسة السيطرة على الشبكة بشكل لم يتح لها من قبل.

ويعزز هذا الاعتقاد أن أغلب الدول الأشد حرصا على المطالبة بإخضاع الإنترنت للحكومات هى فى الوقت نفسه الدول التى لديها سجلات سوداء غير مريحة فى مجال الديمقراطية وحرية التعبير وحقوق الإنسان وتمارس الاستبداد والقمع السياسى وملاحقة المعارضين، وبالطبع هذه ليست مصادفة أو أمورا منفصلة عن بعضها البعض، فمن يمارس الاستبداد والكبت السياسى ويعتمد القهر أسلوبا فى الحياة العادية لن يقبل على الإطلاق بوجود فضاء واسع مثل الإنترنت خارج سيطرته وبعيدا عن عيونه وآذانه التى تضيق بالنقد وتستسهل البطش، ومن الطبيعى ألا نتصور لها موقفا آخر سوى دعم الاتجاه الذى يطالب بإخضاع الإنترنت لإدارة حكومية أو شبه حكومية.

واللافت للنظر هنا أن مواقف هذه الحكومات تتلاقى مصلحيا مع العديد من الأصوات والاتجاهات داخل الولايات المتحدة الأمريكية خاصة فى ظل إدارة الرئيس بوش، التى تدعم أيضا مبدأ التدخل الحكومى الأمريكى فقط فى إدارة الشبكة بحجة التنظيم الفنى وضمان استمرارية عمل الشبكة وعدم توظيفها كأداة فى يد الإرهاب، ولكن الدافع الحقيقى هو التلصص على العالم عبر الشبكة حماية لما ترى أنه مصالح أمريكية، وخدمة لمشروعاتها التوسعية وملاحقة من يقاومون سياساتها ومشروعاتها الإمبراطورية حتى لو صاحب ذلك اعتداء على قيم الحرية والديمقراطية وحرية التعبير.

وفيما يبدو أن الدوافع الأمريكية الحقيقية فى هذا الصدد متصلبة إلى حد كبير ومن الصعب التراجع عنها، ويتم خلطها وتذويبها بعناية للتوارى خلف التبريرات التقنية والفنية الشائعة، الأمر الذى جعل دولة مثل الصين. وهى من الدول المدافعة عن أسلوب الإدارة الحكومية للشبكة. تعلن فى اكثر من محفل دولى أن المطالبة بتطبيق مبدأ تخلى الحكومات عن إدارة الشبكة يتعين أن يطبق على جميع حكومات العالم وفى مقدمتها حكومة الولايات المتحدة الأمريكية، لأنه لا يصح أن ترفع يد حكومات العالم عن إدارة الشبكة بينما الحكومة الأمريكية تديرها وتسيطر عليها.

إن الإنترنت زاخرة حاليا بالعديد من عمليات التلصص والتجسس واعتراض ومراقبة رسائل البريد الإلكترونى وغرف المحادثة ومطاردة بعض المواقع وغيرها من الملاحقات التى يتعرض لها الكثيرون سواء بشكل معلن أو خفى على أيدى جهات وأجهزة أمن غربية وأمريكية، بل هناك من يرى أن مستخدمى الشبكة بالمنطقة العربية. بسبب دعاوى مكافحة الإرهاب. يواجهون مخاطر انتهاك الخصوصية والتتبع عبر الإنترنت من قبل أجهزة الأمن الأمريكية والغربية التى تستفيد من وجود مفاتيح وموارد الشبكة الأساسية والحساسة بين أيدى شركات وجهات تخضع للقوانين والسيادة الأمريكية وتصدع بأمر حكومتها.

وبطبيعة الحال فإن هذه الممارسات تدفع الكثيرين لانتقاد نظام الإدارة الحالى للشبكة وتصفه بأنه نظام سيئ وضار بقضايا الخصوصية والحريات، لكننا نرى أن سيناريو منح الحكومات سيطرة على إدارة الشبكة على المستوى الدولى عبر المنظمات الحكومية متعددة الأطراف وعلى المستوى الوطنى عبر الحكومات المحلية بلا ضوابط محكمة



ديوان الطرب

سلامة حجازى

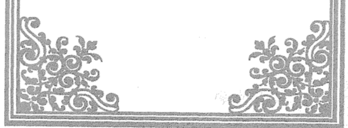
تاه الفكر منك يا دلعونة

تاه الفكر منك يا دلعونة   ربى ظلمكم ياللى ظلمتونا
فايته على البستان تلم النرجس   والورد من فوق الخدود شىء يهوس
يا ربى تحمى لها جمالها وتحرس   كل الصبايا والهادى يهدى
حالى صبح فى الحب أمره ظاهر   والليل أقضيه فى هواكى ساهر
وحياة عيونك والجبين الزاهر   إحنا عبيدك نرضى حكمك فينا
ياللى حويت الظرف ارحم عبدك

طقطوقة من النوع الشامى . بياتى

لموا العشيرة واسمعوا ندائيا

لموا العشيرة واسمعوا ندائيا   يا نار قلبى والحبيب ما جانيا
اللى يريدك إيه يفيدك هجره   انعم عليه بالوصل واكسب أجره
فى شرع مين يستنظر آل طول عمره   ما يبتليه بالوصل ياما يعانى
أفديك بروحى يا جميل لو ترحم   قضيت جميل اللى بحاله يعلم
أصل اشتباكى بالمحبة







سوف ينقلنا من الوضع السيئ إلى الوضع الأسوأ، لأنه سيجعل المواطنين العرب المستخدمين للشبكة عرضة لسطوة الأجهزة الأمنية المحلية والوطنية وليس الغربية فقط، وهنا سيتضاعف الحصار على الحريات، ففى المجتمع العادى يعلم الجميع كيف تتعامل الأجهزة الأمنية مع مواطنيها فى العالم العربى وإلى أى حد تفتئت على حقوقهم فى الحريات والتعبير والاختلاف فى الرأى بسبب غياب آليات فعالة تضبط أداءها، ولا شك أن الأمر لن يختلف فى حالة الفضاء الإلكترونى عبر الإنترنت إذا ما أطلقت أيدى الحكومات فى السيطرة على الشبكة من دون ضوابط حقيقية وفاعلة، فأجهزة الأمن المتنوعة ربما تعد على الناس أنفاسها وهى تتراسل وتتصفح وتبدى آراءها وتمارس حقها فى التعبير، بل إن الوضع سيتفاقم بعد الاعتماد على الجيل السادس من بروتوكولات الإنترنت الذى سيجعل لكل شىء عنواناً رقمياً على الشبكة سواء كاميرا فى منزل أو تليفون فى اليد أو ثلاجة تتصل بالإنترنت، ومن ثم يصبح بمقدور من يسيطر على إدارة الشبكة أن يتتبع كل هذه الأشياء وينتهك خصوصيات أصحابها باسم مقتضيات الأمن.

لذلك كله.. يصبح من الحيوى جدا أن تترافق الدعوة للسيطرة الحكومية على الشبكة مع حزمة واضحة ومحددة من الضوابط والضمانات التى تكفل حرية التعبير والرأى وحماية الخصوصية على الشبكة فى ظل كل أسلوب من الأساليب المقترحة لإدارتها، ويصبح من المتعين على الذين يرفعون شعار حماية السيادة الوطنية من الانتهاك أن يقدموا إيضاحات كاملة حول حدود الآليات والإجراءات التى ستستخدم فى ظل الإدارة الحكومية للشبكة من أجل حماية السيادة الوطنية، حتى لا تتعارض أو تفتئت على خصوصيات المستخدمين وحقوق المعارضين والمختلفين فى الرأى سياسياً مع حكوماتهم، وأن تكون هناك آليات تكبح جماح الدوائر الحكومية والأمنية من انتهاك خصوصيات هؤلاء وسلبهم حقهم فى التعبير وممارسة نشاطهم عبر الشبكة.

لقد شكلت هذه النقاط مجالا واسعا لمناقشات جدية فى العديد من مناطق العالم التى تهتم بقضايا الحرية والديمقراطية حتى إن البعض طرح ذات مرة أنه فى حالة إقرار مبدأ الإدارة الحكومية للإنترنت لابد من إنشاء آلية لفرض عقوبات ما على الحكومات التى يثبت أنها أساءت استخدام حقها فى إدارة الشبكة ووظفته ضد قيم الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان وضد معارضيها فى الرأى.

ومن غير المتصور بالطبع أن تذهب الحكومات إلى قمة تونس وتقدم من تلقاء نفسها مثل هذه الضمانات أو الآليات لكى تكبل بها أجهزتها، ولذلك فإن العبء الأساسى للنضال من أجل الحفاظ على الحريات على الإنترنت بالعالم العربى يقع على عاتق مؤسسات المجتمع المدنى التى يتعين عليها أن تنسق مع المجتمع المدنى عالميا للضغط من أجل كبح جماح الرغبة الحكومية فى السيطرة على الإنترنت، خاصة وأن الدورة الأولى للقمة شهدت نجاحا واضحا، حيث استطاعت الضغوط والمحاولات التى مارستها هذه المنظمات على لجنة الصياغة . ومن قبلها اللجان التحضيرية . إقناع الوفود الرسمية بقبول العديد من مطالبها، فجاء إعلان المبادئ فى صيغته النهائية متضمنا نصوصا كاملة فى بعض البنود وردت كما صاغتها هذه المنظمات فى ورقتها الرسمية التى قدمت للقمة تحت عنوان (تشكيل مجتمعات المعلومات لخدمة الحاجات البشرية إعلان المجتمع المدنى المقدم للقمة، وكان من أبرزها البنود الخاصة بالحق فى الحصول على المعلومات والحق فى حرية الرأى والتعبير وحقوق المرأة والشباب والطفل والجماعات المهمشة والفقراء والمعاقين والدول الأقل نموا.

إننا لا نطرح هذه الهواجس باعتبارها واقعا حتمى الحدوث فى حالة القبول بسيطرة الحكومات على إدارة الشبكة، ولكن باعتبارها هواجس حقيقية يتحدث عنها الكثيرون حول العالم ويتعاملون معها بمنتهى الجدية، لكننا فى المنطقة العربية لا نناقشها بالجدية نفسها، مما يعزز الاعتقاد الذى قلناه فى البداية من أن فقر الحرية فى العالم العربى ينعكس بقوة على مواقفه الرسمية من قضية إدارة الإنترنت ويدفع بها صوب سيناريو يتعلل بالسيادة الوطنية ويتحلل من ضمانات الحرية.■

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

الموت إلى حد الحياة

عباس أرناؤوط

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٥، ١٩٠صفحة



حكايات متناثرة من الطفولة ومن الصبا ومشاهد الحياة أشبه بلوحات فنية تمزج بين شاعرية القص وأخيلة الشعر، فيها كثير من حياة المؤلف وتجاربه، وتعاطيه المرهف مع العابر والآني، والذى يحيله إلى واقع يقطر نبلاً وحكمة، مستفيداً من موروث ثقافى دينى وأسطورى واسع من أجواء المجموعة: أبى يقبل من بعيد/ عائداً من السوق/ البدلة الزرقاء القاتمة.. الربطة الحمراء.. حبات العرق على الوجه الجميل الجليل/ بيده سلة خضراء وعلى كتفه أعباء الحياة/ وعلى شفتيه طيف ابتسامة/ طفل يجرى/ إنه أنا/ أحس بالأمان/ أركض نحو أبى فرحًا/ لكن الأمان لا يدوم/ ينظر إلى.. يتوقف.. يضع السلة على الأرض/ يمد يده إلى جيبه.. لعلها قطعة من الحلوى/ أركض نحوه/ ينحنى قليلاً.. يمد يده ليستقبلنى/ الجسد يخور/ اقترب منه.. أهوى فى الفراغ/ وصلت.. أكاد ارتمى بين يديه/ توقف الطفل.. لحظة/ التفت وجرى بعيداً.

■

كتـــابـــات

محجوب عمر

القاهرة: دار الفكر الإسلامى، ٢٠٠٥، ٤٧١صفحة



يضم الكتاب عدداً من الدراسات والمقالات التى كتبها الدكتور رءوف نظمى ميخائيل عبد الملك، أو محجوب عمر فى عدد من الدوريات أو مشاركاته فى ندوات تبحث فى المصير العربى والهم العربى العام، منها أيلول فى جنوب الأردن وحوار فى ظل البنادق ووجهة نظر فى استراتيجية المفاوض المصرى والناس والحصار وأزمة الخليج وانعكاساتها، ويلفت النظر إلى المؤلف المعروف بكتاباته السياسية العميقة ورؤاه الاستراتيجية الثاقبة، والذى ينطلق من خلفية فكرية يسارية وتجربة نضالية عميقة ضمن مقاتلى حركة فتح، واختياره المبكر لمواجهة العدو الإسرائيلى فى كل مكان من أرض العرب حتى خروجه مع المقاومة الفلسطينية من بيروت فى الثمانينيات من القرن الماضى، يلفت النظر فى كتاباته هذه اللمسة الأدبية المدهشة التى تتبدى بالأخص فى كتابته عن قصة مستشفى الأشرفية بعمان خلال أحداث أيلول الأسود، وكذلك إيمانه العميق بالحوار وبالقيم الديمقراطية داخل حركة فتح وبين المنظمات الفلسطينية جمعاء، وأن ما يحلم به هو دولة فلسطينية ديمقراطية تتسع لأبناء الوطن الواحد من كافة الديانات، وكذلك حلمه بانتصار ثورة الشعب الفلسطينى وليس الانتصار العسكرى الساحق على دولة إسرائيل، وتصوراته الواضحة عن أن ثورة الشعب الفلسطينى هى جزء من الثورة العربية الشاملة.

الكتاب يقدم له الدكتور قدرى حفنى أستاذ علم النفس المختص فى دراسة إسرائيل والإسرائيليين، والذى جمعته بالمؤلف صداقة عميقة بدأت فى سجون عبد الناصر وكشفت له عن جوانب مضيئة فى شخصيته.

■

الزمن فى الرواية العربية

مها حسن القصراوى

بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٤، ٢٨٣ صفحة



يعد الزمن محوراً أساسيًا فى تشكيل النص الروائى وتجسيد أبعاده التاريخية والاجتماعية والسياسية والنفسية، وقد برز هاجس الزمن فى الآداب القديمة والأساطير، وكان الاهتمام به أكثر فى العصر الحديث بسبب التحولات المتسارعة والإيقاع اللاهث للحياة، والذى يترك آثاراً كبيرة على الإنسان، والزمن الروائى بطبيعته تخيلياً، وقد كشفت الدراسة عن عمق العلاقة بين أشكال بناء الزمن فى الرواية العربية ووجهة نظر الروائى فى التعبير عن واقعه وقضاياه، فالروائى العربى المعاصر دائم التجريب والبحث عن أشكال تنسجم مع تجربته الإنسانية، وقد أخذت الرواية على عاتقها تجسيد معطيات الواقع العربى فى ظل انهيار القيم والهزيمة العربية الشاملة، وأكدت الدراسة على أن زمن الخطاب لا يقدم زمن الحكاية بنفس تتابعها الزمنى، حيث يغيب التتابع المنطقى للأحداث ويحضر الزمن النفسى بتشابكاته وتداخل أبعاده، كما لاحظت هيمنة المفارقات الزمنية واستمرار حضور زمن الماضى فى زمن الحاضر السردى.

والدراسة التى تتألف من خمسة فصول تبدأ بمدخل نظرى تمهيدى ثم يدرس الفصل الأول الزمن فى الأدب وفى الرواية، والثانى أشكال بناء الزمن فى الرواية العربية، ويتعرض الثالث لمستويات زمن الخطاب السردى وأبعاده ويدرس الرابع المفارقات الزمنية ودلالاتها ويركز الأخير على تقنيات زمن السرد.

والى جانب استعراضها للدراسات والكتابات النقدية السابقة التى تناولت الزمن فى الرواية العربية، تدلل المؤلفة على استنتاجاتها بأعمال لروائيين عرب يمثلون تيارات واتجاهات أدبية وفكرية متباينة، أو يغطون جغرافيًا خريطة الإبداع العربى كله من أمثال نجيب محفوظ وصنع الله ابراهيم وإلياس خورى وإبراهيم عبد المجيد والطاهر وطار وعبد الرحمن منيف وهدى بركات وجمال الغيطانى وغسان كنفانى وجبرا ابراهيم جبرا وبهاء طاهر وحليم بركات وآخرين.

■

السينما فى دول الاتحاد الأوروبى

سمير فريد

القاهرة: دار إلياس للنشر، ٢٠٠٥



تتضمن موسوعة السينما فى دول الاتحاد الأوروبى أربعة كتب منفصلة، أولها عن أعلام الإخراج السينمائى، والثانى عن المؤسسات السينمائية، والثالث عن الأسواق والشركات والاستوديوهات، والرابع عن التاريخ والتيارات والأنواع، وهى ليست موسوعة شاملة بمعنى أنها مثلاً فى الكتاب الخاص بالإخراج لا تتناول كل المخرجين الأوروبيين، لكنها تعرض لهم وفق معايير وضعها المؤلف أكثرها موضوعى يتعلق بإنجاز كل مخرج ومدى تأثيره وتجديده فى مجاله سواء فى بلادهم أو فى مسار السينما عموماً دون الاعتماد على جنسية المخرج، كما أنها لا تخلو من انحياز شخصى للمؤلف الذى قد يرى أن ثمة مخرجين مهمين من وجهة نظره ينبغى أن تتضمنهم الموسوعة حتى لو لم يذكروا فى موسوعات سابقة.

وفى الكتاب الذى يختص بالمؤسسات السينمائية يلفت النظر إلى أن المؤسسات الأوروبية لا تفصل فصلاً كاملاً بين المؤسسات الثقافية، والمؤسسات الصناعية، فكلاهما يعمل من أجل الثقافة والصناعة معًا، كما يؤكد على الدروس المستفادة من هذه المؤسسات والتى أهمها التطوير المستمر والدمج بين المؤسسات المتشابهة وإعادة النظر باستمرار فى القوانين واللوائح التى تحكم هذه المؤسسات لكى تصبح أكثر مواءمة، ويشير إلى الاتجاه نحو المزيد من التخصص الدقيق.

وبتحليله لقائمة أكبر ٥٠ شركة للسينما عام ٢٠٠٤، يرصد المؤلف عدداً من الحقائق، منها أن الوسائل السمعية البصرية واحدة من صناعات العالم الكبرى، حيث تبلغ إيرادات الشركات العشر الأولى حوالى ٢٥٠ مليار دولار، بما يعكس مدى التأثير الفكرى والثقافى المهم لهذه الصناعة، وأن الشركة الأولى هى تايم وارنر الأمريكية، كما أن قائمة الشركات العشر الكبرى تتضمن ٨ شركات أمريكية وواحدة ألمانية وأخرى يابانية، وهو ما يعنى أن الشركات الأمريكية تسيطر على أسواق العالم.

■

عبد الرحمن الرافعى

مؤرخ مصر الحديثة

بهاء الدين علوانى

المنصورة: سنابل للنشر والتوزيع، ٢٠٠٥، ٣٤٠ صفحة



يؤرخ هذا الكتاب لواحد من أشهر المؤرخين المعاصرين، فهو صاحب تاريخ الحركة القومية بمجلداته العديدة، والذى ظهر الجزء الأول منه فى يناير ١٩٢٩ وتناول بدء ظهور العامل الوطنى والشعبى عند المصريين منذ عهد المماليك مروراً بالحملة الفرنسية على مصر فى ١٧٩٨ والثورات الشعبية فى مواجهتها، وتتالت بعد ذلك مجلداته فى التاريخ المصرى الذى رآه «سلسلة متصلة من الحلقات من

جهاد الأجيال المتعاقبة لتحقيق آمال مصر وإدراك مطمحها الاسمى»، وتناولت دراساته عصر محمد على وعصر إسماعيل والثورة العرابية، ثم يخصص مجلداً ضخماً عن زعيمه الأثير وأستاذه فى الوطنية مصطفى كامل، يليه آخر عن «محمد فريد رمز الإخلاص والتضحية»، ومجلدين عن ثورة ١٩١٩ ثم كتاب «فى أعقاب الثورة المصرية».

وقد أصدر الرافعى فى فبراير ١٩٥٢ مذكراته التى تناولت شطراً كبيراً من حياته يمتد من ١٨٨٩ وحتى ١٩٤١، متضمناً مولده وتعليمه وعمله بالمحاماة والصحافة وتتلمذه على مبادئ الحزب الوطنى بزعامة مصطفى كامل ومحمد فريد من بعده، ودوره كنائب فى البرلمان وإبعاده عن الحياة السياسية منذ عام ١٩٢٦ وحتى ١٩٣٩، وكذلك مشاركاته فى إنشاء الجمعيات الوطنية أثناء الحرب العالمية الأولى.

وأرخ الرافعى أيضاً لثورة يوليو ١٩٥٢، فكتب عن مقدمات الثورة ثم أرخ لفترة ٧ سنوات من عمرها (١٩٥٢ - ١٩٥٩)، وإلى ذلك كتب عن شعراء الوطنية المصرية من أمثال رفاعة الطهطاوى وعبد الله النديم والبارودى وشوقى وإسماعيل صبرى وحافظ إبراهيم ومطران وغيرهم. وكتاب آخر عن الجمعيات التعاونية وكتابات عديدة أخرى.

وإذا كان المؤرخون المحترفون ينظرون للرافعى باعتباره من «الهواة»، وأنه فى كثير مما كتب كان متأثراً بأفكار الحزب الوطنى الذى تربى فى كنفه، وأنه يمثل تيار الوطنية فى الكتابة التاريخية بما فيه من تحزب وانحياز، إلا أن كتاباته التاريخية تمثل مراجع لا غنى عنها، وقد انتقد كثيرون ما كتبه الرافعى عن الزعيم أحمد عرابى وترديده لما قاله مصطفى كامل عن خيانته، وكذلك تمجيده لثورة يوليو وإجراءاتها فى مواجهة خصومها. وبرغم ذلك يبقى الرافعى واحداً من كبار المؤرخين المعاصرين.

■

نزع سلاح العراق الغزو بدلاً من التفتيش

هانز بليكس

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٥، ٢٨٨ صفحة



عندما وقع اختيار الأمين العام للأمم المتحدة - كوفى عنان - على بليكس ليرأس لجنة الأمم المتحدة للتحقيق والمراقبة والتفتيش (الأنموفيك)، كان على موعد مع واحدة من أكثر المعارك ضراوة فى تاريخ الأمم المتحدة، وفى تاريخ الوطن العربى.. وتاريخ العراق.

تلك كانت المعركة بين أمريكا (وحليفتها بريطانيا) من ناحية، والعالم من ناحية أخرى. المعركة بين الحرب والغزو والاحتلال والتدمير والقتل واستباحة استقلال دولة وسيادتها وثقافتها، وكذلك وحدتها، وبين التفتيش الدولى، الوسيلة التى ارتضاها العالم للتيقن من أن العراق لم يعد دولة تملك أسلحة دمار شامل.

كتاب هانز بليكس «نزع سلاح العراق» يدخل بنا إلى التفصيلات الدقيقة - السياسية والإجرائية والتقنية - لعمل المفتشين الدوليين.

■

إسماعيل صدقى الواقعية السياسية فى مواجهة الحركة الوطنية

صفاء شاكر

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٥، ١٨٠صفحة



يعد إسماعيل صدقى النموذج الأبرز للمدرسة البرجماتية فى السياسة المصرية، واشتهر بانقلابه الدستورى الذى أطاح بدستور ١٩٢٣ وجاء بدلاً منه بدستور ١٩٣٠، الذى منح سلطات أوسع للملك على حساب السلطات التنفيذية والتشريعية. وحين أطيح به انقلب على الملك، وطالب بعودة دستور ١٩٢٣، وقدم حججاً نقيضة لتلك التى برر بها ضرورة إلغاء هذا الدستور لعدم مناسبته لأوضاع المصريين. وإسماعيل صدقى كان واحداً من أربعة أدى نفيهم إلى جزيرة مالطة من قبل سلطات الاحتلال الإنجليزى إلى اندلاع ثورة المصريين فى مارس ١٩١٩، وهو أيضاً الذى أسس حزب الشعب عام ١٩٣٠ ليكون العوبة الملك فؤاد فى مواجهة حزب الأغلبية الشعبية آنذاك «الوفد».

الجانب الآخر الذى تقدمه المؤلفة هنا هو إثباتها أن إسماعيل صدقى وإن لم يكن مثالياً من الناحية السياسية، أو من هذه النوعية من القادة والزعماء الذين يتشيعون لفكرة ويدافعون عنها بما أوتوا من قوة بصرف النظر عن تقلبات الأحداث وتحولات موازين القوى، فإنه كانت له جوانب مضيئة كما كانت لشخصيته جوانب مظلمة، ليس ملاكاً ولا شيطاناً بتعبير المؤلفة، ويمكن القول أنه كان ضحية لسوء فهم الآخرين الذين لم تعجبهم واقعيته السياسية، وتسميته للأشياء بأسمائها دون مواربة وسعيه إلى التعامل مع الممكن والمتاح، لا مع الخيالى غير القابل للتحقق. وقد كان هذا موقفه من قضية الاستقلال، فقد آمن بأنه إذا لم يستطع المصريون الحصول عليه كاملاً غير منقوص، فلا بأس من الحصول عليه تدريجياً.

واستهدفت المؤلفة فى دراستها بيان أثر إسماعيل صدقى فى السياسة المصرية من ١٩١٤ وحتى ١٩٥٠، وتفاعله مع الأحداث السياسية فى تلك الفترة، وإبراز عدد من المواقف السياسية التى تؤكد منهجه الواقعى أو البرجماتى مثل موقفه من دستور ١٩٢٣ كما أسلفنا، واستقالته من وزارة زيوار ١٩٢٥ احتجاجاً على موقفها من كتاب الشيخ على عبد الرازق «الإسلام وأصول الحكم»، فى الوقت الذى وقف موقفاً مناقضاً من كتاب الدكتور طه حسين «فى الشعر الجاهلى»، وكذلك علاقته الودودة بالإخوان المسلمين أثناء توليه الوزارة ١٩٤٦ ثم انقلابه عليهم بعد ذلك، لكن المؤلفة تشير من جانب آخر إلى عدد من الثوابت التى لم يتزعزع عنها مثل موقفه من الاستقلال التدريجى، وانتماء مصر العربى، وضرورة اهتمام مصر بالصناعة بجانب الزراعة، كما أنه رأى دائماً أن الشعب المصرى غير صالح للحكم بالديمقراطية.

■

الدفاع عن حيفا وقضية فلسطين مذكرات رشيد الحاج إبراهيم

تقديم: وليد الخالدى

بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢٠٠٥



تتناول هذه المذكرات، الكثير من الموضوعات وتركز على الوضع فى حيفا عشية اندلاع المعارك بين الفلسطينيين والقوات الصهيونية ولا سيما بعد إعلان الحكومة البريطانية قرارها بالتخلى عن الانتداب. وتعرض لقرار إعلان الثورة ومؤتمر حيفا التاريخى وقرار التقسيم وجيش الإنقاذ واللجان القومية، ثم للمعارك العسكرية المختلفة. ويسرد الباب الثانى بعض مراحل القضية الفلسطينية منذ بدايات القرن العشرين حتى سنة ١٩٤٦، ويتناول علاقة صاحب المذكرات بالحاج أمين الحسينى والشيخ عز الدين القسام والثورة الفلسطينية الكبرى سنة ١٩٣٦ والنفى إلى سيشل سنة ١٩٣٧ ثم اغتيال سامى طه، فضلاً عن الخصومة بين الحاج أمين الحسينى وموسى العلمى، وبين فوزى القاوقجى وعبد القادر الحسينى. ولا تغفل المذكرات الحديث عن مدينة حيفا نفسها ولا سيما الحياة الأدبية فيها والعمران كالمرفأ والمواصلات والكولونية الألمانية وزيارة الإمبراطور غليوم والجالية البهائية وغير ذلك. ويرصد الباب الثالث الحرب النظامية فى فلسطين منذ ١٥ مايو ١٩٤٨ حتى افتتاح مؤتمر لوزان فى ٢٦ أبريل ١٩٤٩ وما تخلل هذه الفترة من أحداث ومواقف مثل مؤتمر غزة وقيام حكومة عموم فلسطين ثم اغتيال الكونت برنادوت ومعارك النقب والجليل واغتيال محمود فهمى النقراشى فى مصر وانقلاب حسنى الزعيم فى سوريا وقيام وكالة غوث اللاجئين (الأونروا).

وقد ولد رشيد الحاج إبراهيم فى مدينة حيفا سنة ١٨٩١، وساهم طوال ثلاثة عقود مساهمة فعالة فى حياتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية. حضر المؤتمر السورى الأول وسائر المؤتمرات الوطنية الفلسطينية مندوباً عن مدينته، وأسس مع زملاء له حزب الاستقلال الفلسطينى والغرف التجارية والشركات الاقتصادية والجمعيات الإسلامية والأوقاف الخيرية، ونظم التظاهرات، وصادق جل زعماء المشرق العربى. كان من أقرب المقربين إلى الشهيد الشيخ عز الدين القسام، وغدا من أبرز رجالات فلسطين وقادتها خلال الانتداب البريطانى وسجن ونفى من جانب سلطاته، واطلع على خبايا الحركة الوطنية الفلسطينية وعلى تفصيلات مجرياتها، وحافظ دوماً على استقلالية رأيه ومسلكه. وقاد المقاومة فى حيفا قبل سقوطها فى أيدى القوات الصهيونية فى نيسان/ أبريل ١٩٤٨، وتوفى فى عمان سنة ١٩٥٣ ودفن فى دمشق.

■

طلائع النهضة فى فلسطين

حنا أبو حنا

بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢٠٠٥، ١٩٣ صفحة



يتناول الكتاب الجهد الروسى فى إنشاء المدارس فى فلسطين ولبنان وسوريا فى ظل الحكم العثمانى، ويذكر أن عدد المدارس الروسية فى بلاد الشام بلغ ١١٤ مدرسة فى سنة ١٩١٤ ضمت ١٥ ألف طالب وطالبة، وأن أول من أنشأ الصحافة الأدبية فى فلسطين كان من خريجى دار المعلمين فى الناصرة (السمنار)، وأن نصف أعضاء الرابطة القلمية فى أمريكا الشمالية التى كان لها شأن مهم جداً فى بعث الأدب

العربى الحديث، هم من خريجى المدارس الروسية.

يتحدث الكتاب عن النشاط التبشيرى الكاثوليكى والبروتستانتى الذى عم المنطقة العربية فى القرن التاسع عشر، ويعدد أهم المدارس التى أنشئت فى تلك الفترة فى فلسطين، ثم يسهب فى رصد المدارس الروسية بالتحديد وتأثيرها المباشر لا فى التربية والتعليم فحسب، بل فى تطور أساليب التعبير الفنى ولا سيما فى القصة والرواية والصحافة والترجمة وغيرها.

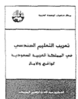
ويخلص الباحث إلى أن الهدف الجوهرى من إنشاء المدارس الروسية لم يكن نشر الأدب الروسى أو الثقافة الروسية بين العرب بقدر ما كان وسيلة لضمان حماية الأرثوذكس فى الدولة العثمانية وإنقاذهم من التبشير الكاثوليكى والبروتستانتى.

■

تعريب التعليم الهندسى فى المملكة العربية السعودية

عبد الله بن إبراهيم المهيدب

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٥، ١٤٢ صفحة



اختلفت الآراء فى تدريس العلوم الهندسية باللغة العربية، فالبعض يرى أن هذه الخطوة تؤثر سلبًا فى التعليم الهندسى بحجة أن اللغة العربية غير قادرة على مواكبة النهضة العلمية والتكنولوجية فى هذا العصر، بينما يرى البعض الآخر أن تدريس العلوم الهندسية باللغة العربية ضرورة يجب الأخذ بها فى أقرب وقت، ذلك أن من أساسيات استقلال أى أمة من الأمم وتميزها ارتباطها بلغتها الأصلية وعدم استبدالها بلغة أخرى.

■

نجيب محفوظ والإخوان المسلمين

مصطفى بيومى

القاهرة: دار أخبار اليوم، ٢٠٠٥، ١٠٠ صفحة



يحلل الكتاب الموقع الذى تحتله الجماعة التى مازال يعتبرها القانون محظورة، فى خريطة الإبداع الروائى والقصصى فى مصر، من خلال الشخصيات الإخوانية التى ظهرت فى إبداعات نجيب محفوظ، والتى عبرت عن أفكار ورؤى الإخوان كما يراها من خلال نظرتهم للدين، والمرأة والفكر السياسى، فبرغم التأثير الكبير للدين فى حياة أعضاء الإخوان المسلمين إلا أنه لم يكن العنصر الوحيد فى تشكيل شخصيتهم، فالمجتمع بتقاليده وثقافته ساهم أيضًا بقوة فى توجيه الشخصيات الإخوانية فى روايات محفوظ.

ويكشف موقف الإخوان من المرأة عن رؤية تقليدية محافظة من الناحية النظرية.. لكن تيار الحياة المتوقف ينتصر ويفرض على الإخوان المسايرة العملية للواقع. وأهم ما يكشف عنه تحليل الشخصيات الإخوانية فى عالم نجيب محفوظ كما يقول المؤلف هو الفكر السياسى للإخوان الذى يتسم بالميل إلى التعميم.

ويوضح الكتاب علاقة الإخوان بمختلف القوى السياسية التى عاصروها بدءًا من حزب الوفد القديم ومرورًا بقادة ثورة يوليو ١٩٥٢، ثم العلاقة مع الرئيس الراحل أنور السادات وكذلك التيارات الدينية الجديدة التى خرجت من عباءتهم أو انشقت عليهم وأخيرًا علاقتهم بالشيوعيين.

وكذلك الحال مع ثورة يوليو فبعد الترحيب بها من قبل الجماعة واستثناء الثورة للإخوان من قرار حل الأحزاب وقع الصدام الكبير ومحاولة اغتيال عبد الناصر والزج بالإخوان فى السجون، وهو الأمر نفسه الذى حدث مع الرئيس السادات الذى أخرجهم من معتقلات ناصر وتحالف معهم ضد الناصريين والشيوعيين ثم اختلف معهم عقب كامب ديفيد، وكانت المأساة باغتيال السادات نفسه على أيدى بعض الجماعات التى انشقت عن الإخوان فى حادث المنصة الشهير.

■

غواية التراث

جابر عصفور

الكويت: كتاب العربى، ٢٠٠٥، ٢٢٠صفحة



يجمع المؤلف ـ كما يقول ـ بين طه حسين وأدونيس فيما يتصل بغواية التراث، فقد أكسبه طه حسين من التراث والتعلق بجواهره نثرًا وشعرًا، وأغواه أدونيس بالنظرة المحدثة للتراث، أيضًا شعره ونثره، والمقالات التى يضمها هذا الكتاب تعكس هذا التزاوج الذى لا يمكن اعتباره تناقضًا وإنما اتساقًا بين رؤيتين فى مسار متصل.

يتحدث المؤلف عن منهجية فى الشعرية القديمة، منهج ينحاز إلى «الطبع» ويمثله البحترى، وهو ذاك الذى يرى أن الشعر يأتى عفو الخاطر دون مكابدة، بسيطًا دون تعقيد، وهى النزعة الشفاهية كما تبدو عند أمرئ القيس على سبيل المثال، فى مواجهة شعر الصنعة كما يتبدى عند زهير بن أبى سلمى مثلاً الذى كان يوصف بأنه الشاعر المتكلف، وقد جرى هذا فى العصر العباسى الذى عاش فيه البحترى، الذى ارتدى قناع أمرئ القيس فى مواجهة خصومه من الشعراء المحدثين، إنها خصومة بين القدماء والمحدثين مسرحها الشعر الجاهلى برغم أنها تجرى من زمن آخر، ومن ناحية أخرى فقد كان الوعى بالصنعة أو لذة الكتابة وعيًا بقدرة الشعر على تغيير العالم، و«الانتقال به من مستوى الضرورة إلى مستوى الحرية» كما يقول المؤلف.

أكثر من عشرين دراسة فى التراث وعنه، نقدًا وتحليلاً يضمها الكتاب بينها النموذج الأصلى للشاعر وسحر المعلقة وحكمة التمرد وحكمة اللذة والحضور المزدوج للإبداع والقلم واللسان ومديح القلم.

■

غواية الإسكندرية

إبراهيم عبد المجيد

القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٥، ١٢٥ صفحة



يحضر المكان بقوة فى الرواية، ليس بوصفه مسرحًا للأحداث التى تتناولها أو للشخوص الذين يتحركون فوق هذا المسرح فحسب، وإنما كثيرًا ما يكون المكان هو البطل الرئيسى للعمل كله، وهو الذى يشكل علاقات الشخوص ويرسم حتى ملامحها، وكثيرًا ما يرتبط الكاتب بمكان معين وبيئة بذاتها، تحتل النصيب الأكبر من أعماله وتؤثر فى رؤاه وأحكامه، والإسكندرية مدينة من هذا النوع، وكثيرون من أبنائها من الأدباء كتبوا عنها أو لها، لكن قليلين هم من حدثونا عن تأثيرها فى إبداعاتهم، وهذا الكتاب يضطلع بهذا الدور، ومؤلفه الذى يعد واحدًا من العلامات المهمة فى الرواية العربية الحديثة أمضى سنوات الطفولة والصبا فى الإسكندرية، قضى بها نحو أكثر من ربع قرن حتى أنهى دراسته الجامعية، ثم حضر إلى القاهرة فى منتصف السبعينيات، وهى سنوات الأسئلة الصعبة كما يقول، لكن القاهرة ظهرت فى أعمال قليلة له، فيما استحوذت الإسكندرية على النصيب الأكبر، بطابعها المميز وأفقها اللامحدود وبحرها الذى يصل بين قارتين وعدة حضارات، وسحر المكان تترجمه تلك المقولة لماركيز: للأشياء حياتها الخاصة بها، علينا فقط أن نوقظ روحها، وهو ما يعنى أن ثمة روحًا مميزة للمكان يشيدها الكاتب وينثر جواهرها فى ثنايا عمله.

الإسكندرية كما تبدو فى كتابات المؤلف وكما يعبر عنها فى مقالاته التى يضمها الكتاب مدينة للتسامح، مدينة كوزموبوليتانية بالمعنى الكامل، تجاورت فيها أديان وأجناس وأعراق وحضارات شتى، وهى أيضًا مدينة للتمرد والثورة، وهذه المعانى كلها تنعكس على لغة الروائى ابن الإسكندرية، أو حتى من يكتب عنها من غير أبنائها، كما يلاحظ المؤلف مثلاً فى أعمال نجيب محفوظ التى كانت الإسكندرية حاضرة فيها، بدءًا من اللص والكلاب ومرورًا بميرامار والطريق والسمان والخريف.

■

السياسة فى غير السياسة

عبد المنعم سعيد

القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب (مكتبة الأسرة)، ٢٠٠٥، ٣٥٢ صفحة



اعتاد قراء المؤلف الذى يشغل منصب مدير مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بجريدة الأهرام أن يتابعوا تحليلاته السياسية فى قضايا ذات طابع استراتيجى عميق، قضايا كبرى تتجاوز اليومى وانشغالاته، لكنه فى هذا الكتاب يجمع مقالات كتبها فى الفن والرياضة والشعر والتاريخ وغيرها مما اعتاده منه متابعوه، فهو يكتب مثلاً عن نهاية عصر السندريلا «سعاد حسنى»، ويقارن بينها وبين السندريلا كما جاءت فى الأسطورة، وفى الرياضة مثلاً يطرح سؤالاً يبدو شديد التفاؤل حتى لا نقول شديد السذاجة: لماذا لا نفوز بكأس العالم، وبعد مقارنات عديدة لها صلة بالسياسة أكثر مما لها صلة برياضة كرة القدم، يقول المؤلف إن المشكلة فى طريق تقدمنا ليس المال وليس السكان، فهما قد يشكلان عقبة فى بعض الأوقات، ولكن لم يحدث أن توقف تقدم دولة بسبب زيادة البشر أو نقص الموارد، ما يفرق بين مجتمع وآخر هو العمل وإرادة التقدم والرغبة فى

اقتحام المستحيل والاستعداد لتحمل المسئولية، وهو يتهم النظام الذى تدار به حياتنا بالارتجالية.

■

بنى بجـــم
بلال فضل
القاهرة: دار ميريت، ٢٠٠٥



مجموعة من النصوص يغيب عنها الميل إلى الاقتصاد فى اللغة وتكثيف اللحظات الشعورية أو حتى تلك التى تستدعى من مستودع ذكريات الطفولة والصبا، وهو ما يفقدها أهم شروط القصة القصيرة التى قد لا تعنى بالتفاصيل عنايتها بالحدث واللحظة فى بناء جمالى بسيط ومحكم. السمة المميزة لهذه النصوص هى الميل إلى الاستطراد والحكى بأسلوب ملس ساخر، سخرية لا تخلو من قسوة على النفس وعلى الآخرين، وهو ما نلاحظه فى «صخرة الكومبو» مثلاً، حيث يهرب الحب فى لحظة حزن شفيف من بين يدى الراوى، ويتقبل هروبه بسخرية من نفسه ومن الحبيب، وكذلك الحال فى «بنى بجم»، يعود الحبيب بذكريات حبه الأول أملاً فى لقاء النموذج النادر المثالى الذى صنعه خياله عن المحبوبة، لكنه يفاجئ أن لا شىء بقى على حاله. الطفولة وعوالمها يتم استدعائها أيضًا فى عدة نصوص ربما كانت هى أجمل نصوص المجموعة.

وفيما له صلة مباشرة بالواقع الاجتماعى والسياسى، يأتى «خطاب إلى جوليا روبرتس» و«لكن ربنا ستر»، وفى الأولى يحادث المؤلف النجمة الأمريكية الجميلة بالطريقة ذاتها التى لا تخلو من سخرية وميل إلى الثرثرة، ويسقط كثيراً من دلالات خطابه على الواقع الاجتماعى وتناقضاته. وفى الثانية يتخيل ما كان يمكن أن يقوله السادات فى حالة نجاته، كيف سيواجه ما تصور إنه خيانة وكيف ستتحدد علاقاته بمناوئيه ومؤيديه بعده.

■

الأهلة.. نظرة شمولية ودراسات فلكية
عدنان عبد المنعم قاضى
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٥، ٣٢٣ صفحة



فى المناسبات الدينية الكبرى يثار الحديث دومًا عن دور الأهلة واختلاف بدايات الشهور العربية بين الدول العربية والإسلامية.

وحتى الآن مازالت الخلافات قائمة، فبعض البلاد العربية تأخذ بالحسابات العلمية الفلكية، فيما يصر بعضها الآخر على الاستمساك بالرؤية الشرعية.

والكتاب يضم فصولاً ستة، يتناول الأول الظواهر الطبيعية، سببها ونسبيتها واستخدامها.

والثانى مواقيت الصلاة ورؤية الهلال وكيفية تحديد آليات هذه الرؤية.

والثالث اختلاف مطالع القمر.

والرابع عن بدايات الشهور والأيام.

والخامس مخصص لتقويم شهر رمضان.

والأخير عن علم الفلك والتنجيم.

وهو يقدم بدراساته العلمية والفقهية نظرة شاملة لمشكلة الأهلة، وقاعدة جوهرية لمسائل فلكية تختلف عليها الأمة الإسلامية.

■

دوريـــات

المستقبل العربى
بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، أكتوبر ٢٠٠٥



يتضمن العدد خمس دراسات هى: «مصر.. إلى أين؟ انتخابات الرئاسة فى مصر وتأثيراتها المحتملة فى عملية التحول الديمقراطى. رؤية تحليلية» أعدها حسن نافعة، و«نحو سياسة خارجية أمريكية ناجحة» لوليام بولك، و«الديمقراطية فى لبنان: خرافة أم واقع؟» لزياد حافظ، و«المعارضة السياسية وأنماط علاقاتها بالنظم الحاكمة فى دول مجلس التعاون الخليجى» لمفيد الزيدى، و«انقلاب ٣ أغسطس فى موريتانيا» لمحمد الأمين.

وفى العدد ملف بعنوان: «استحقاقات تواجه العراق»، ويحتوى العدد على وثيقة بعنوان «انتهاكات حقوق الإنسان فى العراق» أعدتها بعثة الأمم المتحدة.

■

قضايا راهنة
دمشق: المركز العربى للدراسات الاستراتيجية



العدد الجديد من هذه الدورية يتضمن أمسية حوارية عنوانها كيف نفهم اقتصاد السوق الاجتماعى وكيف نطبقه، أدار الحلقة عبد القادر النيال، وهى تتناول الاقتصاد السورى بالذات خصوصاً مع إطلاق عملية الإصلاح الاقتصادى السورى قبل ٥ سنوات، والنقاشات التى طرحت منذ ذلك التاريخ واهتم بعضها بالجانب النظرى للعملية وثارت تساؤلات مهمة تتعلق بحدود تدخل الدولة، وكيف يمكن الحفاظ على دور الدولة فى فتح الباب واسعاً للمبادرات الفردية والمنافسة التى هى أساس اقتصاد السوق، مع ضمان المكتسبات التى تحققت للفئات الكادحة من الشعب فى عقود سابقة، وتطرقت المناقشات أيضًا إلى تجارب الدول النامية التى سبقت فى هذا المجال.

■

دبى الثقافية
دبى: دار الصدى للصحافة والنشر (أكتوبر ٢٠٠٥)



فى بانورابما استطلاعان واحد عن مدينة خوزفكان الواقعة على الساحل الشرقى لدولة الإمارات العربية المتحدة، يتناول تاريخ المدينة وحياة ناسها ومعالمها، والثانى عن كرنفال البانشى البلجيكى.

يتضمن العدد أيضًا أربعة حوارات مع وزير الثقافة الليبى مهدى إمبيرشى الذى يقول «نحن بحاجة إلى فلاسفة مجانين»، وآخر مع الفنان يحيى الفخرانى، وثالث مع الشاعر العمانى سعيد الصقلاوى، ورابع مع الشاعر المصرى أشرف أبو اليزيد، وفى القسم الخاص بالسينما موضوعات عن السينما العراقية والإذاعة السورية ومقال عن فيلم دعاء الكروان الذى لعبت بطولته فاتن حمامة وأحمد مظهر، ومن كتاب العدد رجاء النقاش وفخرى صالح وفاروق عبد القادر وشهاب غانم ووليد قصاب ومحمد لطفى اليوسفى.

■

العـــــربى
الكويت: وزارة الإعلام، نوفمبر ٢٠٠٥



تطل العربى على قرائها فى عددها الجديد بملف خاص عن الأديبة الراحلة مى زيادة التى كانت واحدة من رائدات عصرها وكان ظهورها بداية لانتهاء الدور الهامشى الذى كانت تحتله المرأة العربية فى ذلك الوقت.

كما تفتح المجلة ملف قضية الفجوة المعرفية التى يعانيها العقل العربى فى كل نواحى حياته.

ويناقش رئيس التحرير سليمان العسكرى فى مقاله محاولات التمرد على اللغة العربية من بعض الأقليات اللغوية.

وترحل العربى على صفحاتها إلى نيل القاهرة لتقدم رؤية شاعرته لهذا النهر وتثير أيضا قضية الاعتداءات التى يمارسها البشر على النيل كما لم تحدث طوال تاريخه. ويتضمن العدد أيضا مقالات عن الحوار الحضارى العربى والكتاب الورقى والهجوم الالكترونى.

■

وحيد النقاش.. الأرض لا تبتلع أبناءها الأخيار!



من مقدمة:
إسراءات الرجل الطيف
وحيد النقاش
إعداد: عبير سلامة
المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، ٢٠٠٥، ٣٨٣ صفحة



ارتفع وحيد النقاش بعد رحيله إلى مستوى الرمز الدال على جوهر جيل كانت أحلامه أكبر من إمكانات واقعه، فانتهى إلى الهزيمة ولم ينل سوى السراب. وقد عبر هو نفسه عن هذا الجوهر الحزين في أوراقه، وجمعت اختياراته النقدية وترجماته «بين الحس الاجتماعي المرهف بالخيبة والتعاسة، والحس النضالي المرهف بأدوات الفكر الثوري، والحس العدمي المشبع بعبث الوجود الإنساني».

ولد وحيد النقاش في السادس من مايو ١٩٣٧، في قرية منية سمنود مركز أجا دقهلية، وهي كأية قرية مصرية شكّل الفقر معلمها الرئيسي، لذلك كان غريباً أن يقدم الفتى القروي على اختيار دراسة اللغة الفرنسية في كلية الآداب، اللغة التي اقترنت في ذلك الوقت بالطبقة المترفة ونشاطاتها الاجتماعية البعيدة تماماً عن أفق تطلعات وحيد النقاش، لكن ذلك الخروج الهادئ على المعتاد، في ذلك الوقت المبكر من عمره، سيظل ملمحاً قائداً لكثير من الاختيارات الشخصية والمعرفية التي عبرت عن روح جوابة وفياضة بحب الحياة.

مثلت ثقافة الغرب بالنسبة لوحيد النقاش وجيله حلاً جزئياً للفجوة العميقة بين الطموح والقدرات، ولم يرد الاعتماد على غيره للوصول إلى الحل، فأقدم على الترجمة بنفسه، لذلك اتسمت مختاراته المتنوعة من الآداب الأجنبية بكونها تشبع حاجة ثقافية ذاتية تؤرخ لتطوره الروحي، وتعكس تطور بلاده الثقافي والاجتماعي، فالرحلة التي قطعها من الفكر الوجودي إلى الفكر الثوري تتلمس تضاريسها الشعورية والعقلية في مختلف الترجمات والتلخيصات والتعليقات التي قام بها.

بل نتلمسها في قرارات حياته العملية التي أكدها بترك الوظيفة في مركز الفنون الشعبية بعد أشهر قليلة من التحاقه به عقب تخرجه، ليعمل محرراً أدبياً في الأهرام في عام ١٩٦٢، ثم توجها بالسفر إلى باريس للحصول على درجة الدكتوراة قبل شهر واحد من هزيمة يونيو ١٩٦٧.

مرة أخرى يتصل الخروج على المعتاد والمتوقع بجانب تعليمي، لكنه في حقيقته، مثل القرار الأول، كان انجذاباً للأصول وهروباً من الوسطاء، أراد ألا تكون اللغة هي نافذته الوحيدة على العالم، وإنما أن تكون الحضارة بممارساتها اليومية وعلاقاتها الإنسانية الحية هي الباب الواسع - والضيق معاً - الذي يجب تجاوزه حتى يعايش دلالات الحروف معايشة واقعية محسوسة.

بدأ وحيد النقاش الكتابة بعد أن أنهى دراسته الثانوية بتفوق في صيف ١٩٥٤، فنشر أولى دراساته الأدبية في شهر يوليو عن عشر قصص عالمية في مجلة الآداب البيروتية.

وانطلق بعد ذلك، كأنه كان يشعر بأنفاس المنية المقتربة، يربح عمقاً لحياته يوازي طول العمر، إن لم يفضله قيمة، فكتب وترجم ونشر بجدية بالغة وحماسة مضنية، في مجلات الآداب والشهر والطليعة والمجلة والمسرح، إضافة إلى الأهرام الذي نشر فيه أكثر أوراقه، بداية من موضوع (الأجانب وتراثنا الشعبي الحي، في ٢٠ نوفمبر ١٩٦٢، حتى (الملك يونيسكو في مقبرة الأكاديمية) في ٩ أبريل ١٩٧١.

أما آخر ما نشره قبل رحيله بخمسة أشهر، وفقاً للببلوجرافيا القيمة التي أعدها الدكتور صبري حافظ - فهو موضوع (يونيسكو يهاجم بريخت) في مجلة الآداب مايو ١٩٧١، إضافة إلى موضوع آخر بالعدد نفسه عن مسرح الأديب الجزائري كاتب ياسين.

أكثر ما كان يعني وحيد النقاش في تناوله النقدي للكتب هو المحتوى الذي يتحدى الذهن التقليدي، ويثمر تأثيره في الكيان الفكري والوجداني للقراء ببطء وعمق، مثل كتاب (ما الأدب؟) لسارتر، ترجمة د. غنيمي هلال، وكتاب (أنا وسارتر والحياة) لسيمون دي بوفوار، ترجمة عايدة مطرجي إدريس.

كان يهتم كثيراً برؤية الكاتب للعالم، وانعكاس تغيرات المجتمع على صفحة وجدانه، والتزامه بالتعبير الإيجابي عن موقفه من قضايا بلده والعالم، لذلك كان يتوقف في نقده عند الجانب التربوي للأدب، ومواقف الأديب السياسية والاجتماعية، مثلما يتضح من تناوله لإحدى قصص نجيب محفوظ، وأدب يوجين يونيسكو.



تنوعت ترجمات وحيد النقاش الأدبية بين القصة والرواية والمسرحية، لكتاب عالميين كألبرتو مورافيا، وتنيسي وليامز، ولوركا، وجان جيرودو. ويمكن أن نلحظ هنا وجود مشابهات كثيرة بينه وبين جيرودو (١٨٨٢ - ١٩٤٤) فكلاهما ابن لأسرة فقيرة، تفوق في دراسته، وتخصص في لغة أجنبية، ثم عمل بالصحافة، وسافر إلى البلد التي درس لغتها، كلاهما صنع نجاحه من لا شيء، خطوة خطوة بمجهود فردي، ثم أدركه الموت في سن مبكرة، فخبت سيرته سنوات طويلة.

كان وحيد النقاش يحرص في مختاراته قصيرة الحجم - ربما لتناسب النشر في الدوريات اليومية والشهرية - على إنسانية محتواها ومغزاها، كاختياره لقصتي «الصنم» و«الذاهلتان» لألبرتو مورافيا، وهما من قصصه التي «تعالج ملامح في تجربة الرجل والمرأة بعمق بالغ، وتعبر عن «مأزق اللقاء بين كائنين بشريين من أبناء العصر الحديث ارتبطا معاً برباط الزواج ولكن كلاً منهما لم يدخل إلى عالم الآخر بعد».

وهذا اللقاء «المأزق» بين البشر هو ما لفت انتباه وحيد النقاش لرواية «صمت البحر» لجان بريلير (فيركور) حيث حاولت الفتاة الفرنسية أن تقاوم عاطفتها تجاه الضابط الألماني، لأنه ينتمي للأعداء المغتصبين بلدها، وأخفت شغفها برقة إحساسه ونبل أخلاقه وسمو تفكيره وسعة معرفته، وحين فشلت مقاومتها استسلمت لحبها، لكنها أسرته في نفسها وطوته في قلبها، لم تفض به للفتى وهي موقنة بأن الفتى مدله في غرامه بها، وكلاهما لا يبوح للآخر بسره، وكلاهما يشعر أنهما مؤتلفان روحاً وعقلاً وأن أحدهما يكمل الآخر، ولكن الفتاة لم تذعن لهواها ولم تخضع لغريزتها، وآثرت أن تكتم حبها وتطويه في صمت عميق كصمت البحار.

وانفعالاً بكيفية رصد الإبداع لخفايا اللقاء الإنساني، ترجم وحيد النقاش مسرحية (وردة لكل عام) لتنيسي وليامز، رغم ارتكازها كما يقول على ما يمكن أن نعتبره «موضوعاً من موضوعات الشذوذ المألوفة في مسرح وليامز، ولكنه عالج برهافة ورقة هي أقرب إلى العلاج الشاعري.

اللقاء الإنساني المتفجر بدلالات الاتفاق النادر أو الاختلاف بين المحبين والأزواج هو أهم المشتركات الغالبة على ترجمات وحيد النقاش المسرحية خاصة، مثل كوميديا (فيلا مفروشة للإيجار) لجابريل ديرفيليه، وغنائية لوركا (يرما) التي يلخص قولها: «ليس بمقدور الماء أن يصعد في الجبل ولا بوسع القمر في تمامه أن يطلع في الظهيرة»، مأزق اللقاء الفريد بين متناقضات الطيف والحقيقة، العقل والجسد، الشرف والخيانة، والجدب والإخصاب.

لقد استوحى لوركا في هذه المسرحية الساحرة التراث الشعبي الإسباني، ممثلاً في أغاني الغجر والفلاحين وحكاياتهم البريئة، ثم صاغه برؤية عصرية مازجاً الرمزية الشفافة بالواقعية، ومؤكداً أصالة موهبته العظيمة، عالم (يرما) عالم حسي مفعم بعواطف العذارى والزوجات، شوق الريفيين للإنجاب، وظمأ العاشقين للقاء، أما موضوعها - وهو الأثير عند لوركا - فهو الجدب والإخصاب، أو الاشتهاء العارم للحب والإنجاب، ثم الحزن المأسوي لافتقادهما.

الحب المخصب لا ينتهي باللقاء الجسدي عند لوركا، بخاصة هنا في مسرحية (يرما)، وفي (عرس الدم)، و(بيت برناردا ألبا) بل ينتهي بالموت أو الجنون غالباً، كأنهما البديل الطبيعي لتعذر الحياة الجديدة والعطاء، وتتمتع الشخصيات النسائية في المسرحيات المذكورة بكبرياء نادر، يجعلها تدافع عن شرفها حتى الموت، قد يضعف أمام جموح العاطفة، لكنها تعود سريعاً للاحتماء بصخرتها الصلدة، مضحية مثل «يرما» بفرصتها الأخيرة لتحقيق الرغبة العنيفة في أن تقبض بالدم على طائر حي.

اختيار المرء وافد عقله كما يقولون، وترجمات وحيد النقاش - ودراساته وحواراته مع المفكرين والأدباء - أبلغ دليل على ما اتصفت به شخصيته النادرة من قلق خصب، وصفاء عقلي ثاقب، وتعاطف مع الضعف الإنساني. إنها الصفات النموذجية لأديب موهوب استسلم لغواية الصحافة والترجمة، ثم أخضعها لسلطان روحه المبدعة، ولتعبيره الأصيل الملتزم تجاه المجتمع والإنسانية.

إن الأرض لا تبتلع أبناءها الأخيار كما قال صلاح عبد الصبور، لكنهم يذوبون في أثيرها، كما يذوب العطر والشعر والموسيقى، ونحن بالتذكر وبنشر أوراقهم المطوية لقراءة جديدة، نجمعهم من الفضاء الهائل مرة ثانية، ونجتمع بهم في إسراءات طيفية حول نار المعرفة ونورها.

عبير سلامة

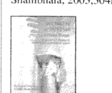
What To Expect When You Are Expecting
(ماذا تتوقعين وأنت تنتظرين)
Heidi Murkoff
Workman Publishing Company, 2002, 624pp, $13.95



من المعروف أن يستمر عرض مسرحية ما لسنين طويلة بالذات فى الغرب حيث عرضت مسرحيات لمدد تجاوزت العشرين عاماً ولكن أن يظهر كتاب على قائمة الكتب الأكثر مبيعا فى الولايات المتحدة بعد مرور ١٨ عاماً على طبعته الأولى فهذا هو المدهش فعلا. لقد أصبح كتاب «ماذا تتوقعين وأنت تنتظرين» مرجعاً أساسياً للأمهات الحوامل فى الولايات المتحدة. والكتاب ينقسم لفصول تتابع شهور الحمل منذ فترة التخطيط للحمل وحتى ستة أسابيع تالية للولادة. ولكنه لا يقدم المعلومات فى شكل سرد مثل أغلب الكتب المماثلة ولكنه يقدمها فى صيغة أسئلة وأجوبة عن كل ما يخطر فى بال الأم بما فى ذلك الحالات المتناقضة والأمور التى لا تتعلق بشكل مباشر بالحمل مثل طريقة اختيار الطبيب أو المولد واختيار مكان الولادة. كما تقدم إرشادات للتوليد فى حالة حدوث ولادة مفاجئة فى السيارة أو المنزل. كما يتضمن الكتاب إرشادات غذائية مثالية وفصلاً كاملاً يتحدث عن دور ومشاعر الأب فى هذه المرحلة. وتتضمن الطبعة الثالثة والأحدث القليل من الإضافات على الطبعات الأقدم مثل مناقشة أوسع لموضوع اكتئاب ما بعد الولادة وإرشادات مفصلة فى حالة السفر بالطائرة.

■

Women of Sufism: A Hidden Treasure
(نساء الصوفية: كنز خفى)
Camille Adams Helminisky
Shambhala, 2003,304P, $18.95



شغلت النساء مكانة بارزة فى عالم التصوف وإن كانت أدوارهم لم تبرز بنفس درجة ابن الرومى وعمر بن الفارض وآخرين. فى كتابها نساء الصوفية: الكنز الخفى، تحكى كاميل أدمز هيلمينسكى عن أبرز النساء المتصوفات منذ العصور الأولى للإسلام وحتى الزمن الحالى بما فى ذلك المتصوفة الأشهر فى التاريخ رابعة العدوية والسيدة نفيسة وفى العصر الحديث المتصوفة ذات الأصول الروسية أرينا تويدى التى تصف فى الكتاب مشوارها المتدرج نحو الصوفية. ويتضمن الكتاب أشعار ويوميات وأغانى وأدعية كتبتها النساء اللاتى أتى ذكرهن فى الكتاب. أما عن سير هؤلاء النساء وخاصة الأقدم منهن فقد استقت الكاتبة أغلبها من كتابات رجال. وترى الكاتبة التى كانت أول امرأة تترجم القرآن إلى الإنجليزية وقد اشتهرت بإعادة نشر التراث الصوفى. وهى ترى النساء لعبن دورا كبيرا فى الصوفية حيث إنه تنبذ الهيراركية فى مقابل التوحد مع الذات الإلهية وهو ما كان مناسبا جدا للنساء.

■

The Tender Bar
(البار الحنون: مذكرات)
J.R. Moehringer,
2005, 384pp,

لا تكتفى مذكرات الكاتب جاى آر موهرينجر بجريدة لوس أنجيلوس تايمز الحائز على جائزة بولتزير بعرض لسيرة حياته وذكريات طفولته ولكنها تتجاوز ذلك لتتحول لتعليق اجتماعى على «التافرن» (المطعم الشعبى الذى يلتقى فيه أهل كل حى). يركز موهرينجر على غياب والده فى طفولته وانحسار صورة هذا الأب فى «صوت» يأتى أحيانا عبر الهاتف. كما يتحدث عن حياته مع أمه المكافحة فى منطقة لونج أيلاند بنيويورك. يبحث موهرينجر عن بديل لوالده الغائب فى الرجال الذين يقابلهم فى التافرن ويمكن اعتبار كتابه بالكامل تحية لثقافة البار. يتلقى موهرينجر تعليما عمليا من الشخصيات التى يلتقيها فى التافرن ويبحث هناك عن الحب ثم يفقده وينعى هذا الفقد فى نفس المكان. ويصف التافرن بأنه ملجأه والمكان الذى يكتسب فيه قلبه صفاء أكبر. تأتى ذروة الكتاب عندما تحدث هجمات الحادى عشر من سبتمبر والتى يموت فيها ٥٠ شخصاً من المدينة التى عاش فيها الكاتب فى طفولته والذين رأينا العديد منهم فى وصفه العاطفى والمطول لحياته فى التافرن. لقد رسم الكاتب صورة جميلة عن حياة عادية فى بلدة عادية ثم ليثير وبمهارة شديدة عواطف القارئ مع ضحايا الحادى عشر من سبتمبر.

■

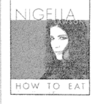
Bob Dylan Scrapbook, 1956-1966
(دفاتر بوب ديلان ١٩٥٦-١٩٦٦)
Bob Dylan and Robert Santelli
Simon & Schuster Adult Publishing Group, 2005, 64pp., $45.00



أصدر المغنى المعروف بوب ديلان والذى يعتبر أحد رموز مرحلة الخمسينيات والستينيات الثقافية كتاباً عنه هو شخصياً فى صورة ما يسمى «دفتر قصاصات» وهو دفتر أو ألبوم يحتفظ فيها المراهقون عادة بقصاصات وكتابات تؤرخ لحياتهم وهو من المعالم المعروفة للحياة الاجتماعية فى الولايات المتحدة. يتضمن دفتر ديلان صوراً نادرة وكلمات أغانيه مكتوبة بخط اليد وتذكارات أخرى نادرة. كما يتضمن أحاديث مع ديلان نفسه وبعض المقربين منه والموسيقيين الآخرين تساعد كلها فى بناء صورة مكتملة لهذا الفنان الذى اعتبر أهم كاتب أغان فى عصره. كما يباع مع الكتاب أسطوانة مدمجة تتضمن ساعة من اللقاءات النادرة مع ديلان والمقطوعات التى لم تسجل على نطاق واسع. كما يستخدم الكتاب مقاطع أخذت من فيلم تسجيلى حديث لمارتين سكورسيزى وأكثر من ١٠٠ صورة فوتوغرافية من أرشيف ديلان الشخصى.

■

How to Eat
(كيف تأكل)
Nigella Lawson
Wiley, 2002, 496pp, $35.00



اقتحمت نيجيلا لوسن عالم برامج الطهى بشكل عاصف إذ أنها منذ البداية شخصية شهيرة فهى ابنة نايجل لوسن أحد أكثر الوزراء البريطانيين نفوذا فى القرن العشرين. وقد يكون ذلك هو ما جذب المشاهدين لبرنامجها فى المقام الأول إلا أنها استمرت فى اجتذابهم ربما عن غير عمد عبر الدراما الشخصية التى مرت بها والتى تمثلت فى مرض زوجها ووفاته مما جعل البعض يتابع برامجها كما يتابع المسلسلات. وهى لا تخفى مشاعرها عند تصوير البرنامج بل إن الكثير من الحلقات تدور حول الأطعمة المناسبة لحالتها المزاجية. كما أن زوجها ظهر فى بعض الحلقات قبل وفاته. ولنيجيلا فلسفة فى الأكل إذ أنها ترفض اعتبار أكلات معينة مناسبة لفصول معينة أو غير ذلك من القواعد التى اعتاد الطهى المحترفين الالتزام بها. فى كتابها «كيف تأكل» تحكى نجيلا لوسن بطريقتها المرحة والحميمة آراءها هى الشخصية عن كيف وماذا يجب أن نأكل وهى لا تعنى بذلك أن تعطى نصائح عما يناسب الصحة بلا أنها تفرط فى استخدام البيض والكريمة وما شابه. الكتاب مثل كتبها الأخرى ليس ممتعا فقط لأنه ملىء بالوصفات السهلة واللذيذة ولكن يمكن قراءته أيضا على أنه ملاحظات كاتبة ساخرة حول الحياة والطعام.

■

The Other Place
(البلدة الأخرى)
Ibrahim Abdel Meguid
The American University Press, 1997, 332P



تحتل تجربة العمالة المصرية فى الخليج مكانة مميزة فى الأدب والفن المصريين.

وقد تم تناول الجوانب المختلفة من هذه التجربة فى أعمال أدبية عديدة منذ السبعينيات بما فى ذلك تأثير هذا الاغتراب على سلوك وعلاقات المواطن المصرى عند عودته للوطن.

من أهم الأعمال التى تناولت هذه التجربة رواية البلدة الأخرى لإبراهيم عبد المجيد والتى صدرت الترجمة الإنجليزية لها حديثا بعد فوز الكاتب بجائزة نجيب محفوظ التى تمنحها الجامعة الأمريكية.

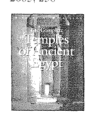
وتحكى الرواية عن موظف مصرى ينتقل للعمل فى دولة خليجية تعمد الكاتب تجهيلها.

ويسجل الموظف ملاحظاته حول العالم الجديد من حوله بما فيه من موظفين وعمال مهاجرين ومواطنين. وتبرز دهشة الكاتب من الاختلاف الذى يراه بين ما عرفه من قبل وبين حياته فى البلدة الأخرى منذ السطور الأولى التى يصف فيها فرق الحرارة بين البلدة التى وصلها للتو وبين الطائرة. تمتاز الرواية بغوصها فى نفسيات أبطالها المختلفين ودوافعهم سواء للهجرة أو فى تعاملاتهم

اليومية. كما نجح الكاتب فى نقل الإحساس بالمدينة الصحراوية وكيفية تشكيلها لنفسيات ودوافع المقيمين فيها.

■

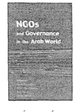
The Complete Temples of Ancient Egypt
(معابد مصر القديمة)
Richard Wilkinson
The American University Press,
2005, 256



من المتعارف عليه أن ما يعرف بكتب طاولة القهوة لا يتضمن فى الغالب الكثير من المعلومات الجادة إذ أن الهدف منه فى الأساس هو تسلية الضيوف أو الزبائن عند الانتظار وهو يطمح بشكل أساسى فى أن يكون ألبوم صور أنيقًا يتضمن بعض المعلومات. ولكن كتاب معابد مصر نجح فى الجمع بين الغرضين فهو كتاب شديد الجاذبية ويصلح فعلا كأحد كتب طاولات القهوة الأنيقة بصوره البديعة لجميع معابد مصر ولكنها يزيد عليها بشرح دقيق لمعمار تلك المعابد بما فى ذلك الوظائف الدينية والهندسية لكل أجزاء وتفاصيل المعبد. ويعزز المؤلف الشرح بخرائط للمعابد نفسها ولخرائط لموقع المعبد بالنسبة للآثار المحيطة به. أختار الكاتب أيضا معلومات خفيفة مختلفة عن الأعياد فى مصر القديمة وزوجات الحكام والحكام غير المصريين الذين ورد ذكرهم أو تم تصويرهم على جدران المعابد المصرية.

■

NGOs and Governance in the Arab World
(المنظمات غير الحكومية والحوكمة فى العالم العربى)
American University Press
Edited: Sarah Ben Mefissa,
Nabil Abd al-Fatah, Sari Hanafi,
Carlos Milani, 2005, 388pp



يشهد العالم العربى تغيرًا واضحًا فى دور المنظمات الأهلية. فقد لعبت هذه المنظمات لسنوات طويلة دورا خيريا فى المجالات الإنسانية والاجتماعية خاصة الإحسان للفئات المحتاجة. ولقد أخذت معظم المنظمات الأهلية طابعا إما دينيا أو أنها أنشئت على أساس أن تخدم مجتمعا صغيرا بعينه.

ألا أن هذا الاتجاه شهد تغيرا ملحوظا فى السنين الأخيرة حيث إن العديد من المنظمات الأهلية أصبحت مسرحا للصراعات بين التيارات السياسية المختلفة.

كما أنشئت بعض المنظمات الأهلية بأهداف سياسية فى المقام الأول مثل مراقبة وحماية حقوق الإنسان أو قضايا الديموقراطية.

وتحاول الدراسات الواردة فى هذا الكتاب مناقشة التفاعل بين المنظمات الأهلية والحكومات فى العالم العربى خاصة مع الأخذ فى الاعتبار حالة الشد والجذب بين اللامركزية والأساليب التقليدية فى الإدارة وبين الحاجة أحيانا لدعم مطالب المجتمع المدنى. ويتساءل الكتاب إن كان من الممكن لنا أن نعتبر منظمات المجتمع المدنى فى العالم العربى مؤثرين بشكل رئيسى فى الحوكمة وفى التنمية المحلية. وكيف يمكن لنا توصيف العلاقة بين هذه المنظمات والمجتمع. ولقد قدمت الدراسات الواردة فى الكتاب فى مؤتمر المنظمات غير الحكومية والحوكمة فى العالم العربى الذى أنعقد فى القاهرة فى مارس ٢٠٠٣.

■

The Iconography of Islamic Art
(رمزية الفن الإسلامى)
Editor: Bernard O'Kane
American University Press,
2005, 336pp



هناك شغف مستمر بين المتخصصين باكتشاف الرموز المتضمنة فى أشكال الفن الإسلامى المختلفة.

وتتجمع فى كتاب الرمزية فى الفن الإسلامية عدة دراسات تستخدم أساليب متنوعة فى البحث عن معانى هذه الرموز ولكن يجمع أغلبها محاولة وصل التفسير الذى يراه الكاتب بنصوص إسلامية مختلفة تدل عليه وتثبته.

وتتناول الأبحاث المختلفة فى الكتاب رموزًا متكررة فى الفن الإسلامى مثل الطاووس والأشجار والكأس مع فرع الشجرة وهى رموز ظهرت على الحوائط كما ظهرت على الأدوات المستخدمة فى الحياة اليومية مثل الكؤوس والمكاحل والأوانى والسجاجيد بالطبع.

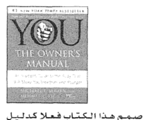
وتوفر دراسة النصوص المتعلقة بالكعبة وباستخدام الرخام نقطة انطلاق لدراسة علاقة الأدوات المختلفة بالتاريخ كما يساعد اتساع المدى الجغرافى للدراسات المختلفة، من مصر إلى الهند، على تكوين فكرة واضحة عن شكل ومعنى تلك الرموز فى الأقطار الإسلامية المختلفة.

كما توضح بعض الدراسات التأثير المسيحى، خاصة من صقليا، والتأثير البوذى فى أشكال الفن والرمز الإسلامى.

وقد تم جمع هذه الدراسات كشكل من أشكال تكريم روبرت هيلينبراند الأستاذ والكاتب المتخصص فى الفن الإسلامى.

■

You; The Owner's Manual
(أنت: دليل المستخدم)
Mehmet Oz and Michael F. Roizen
Collins, 2005, 432pp, $24.95



صمم هذا الكتاب فعلا كدليل للمستخدم حيث إنه يشرح بشكل بسيط وبألفاظ متداولة فى الحياة اليومية أجهزة ووظائف الجسم المختلفة كمرحلة أولى تساعد القارئ العادى على استيعاب مسببات الأمراض وطرق الشفاء منها.

وقد ألف الكتاب طبيب أمراض قلب مشهور وأخصائى فى مقاومة الشيخوخة. ويبدأ الكتاب بمجموعة من الاختبارات التى تهدف إلى قياس مدى معرفة القارئ بجسمه ثم ينقسم الكتاب إلى فصول يتناول كل منها أحد أعضاء الجسم والأمراض المتعلقة به ويقدم الكتاب نصائح عن الأكلات وأنماط الحياة والتى تضر وتفيد هذا الجزء من الجسم كما يوضح الكتاب تأثير الوراثة على عملية الكبر والشيخوخة. يمتاز الكتاب بأسلوب فكاهى نوعا ما فهو عندما يشرح فكرة الغضروف يشبهها بالكريمة بين قطعتى بسكويت وكيف أنه من الممكن أن تنضغط فتخرج من البسكويت. يقدم الكتاب نظاما غذائيا ورياضيا فى الختام يدعى أنه يساعد على طول العمر وتحسين الصحة العامة بما فى ذلك إزالة الوزن الزائد. ولكن حتى هذا النظام يركز على أجزاء الجسم بشكل منفصل مما يعنى أن هناك صعوبة فى اتباعه بشكل يفيد باقى الجسم.

■

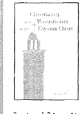
Remembering Childhood in the Middle East.. Memoirs From a Century of Change
(تذكر الطفولة فى الشرق الأوسط)
Editor Elizabeth Warnock Fernea
American University Press,
2002, 354pp



يسجل فى الكتاب ٣٦ رجلاً وامرأة من بلاد مختلفة فى المنطقة ذكرياتهم عن طفولتهم. ومن خلال هذه الذكريات نستطيع أن نكون فكرة ما عن شكل الحياة بين شرائح متعددة جدا من الشرق أوسطيين منذ بداية القرن العشرين. وقد تم تجميع الشهادات على حسب الفترة الزمنية بحيث تشتمل كل فترة على شهادات مجموعة متنوعة من الأشخاص من خلفيات عرقية ودينية وطبقية مختلفة مما لا يترك مجالاً لرؤية أحادية الجانب لهذا التاريخ بل إنها تكسبها تنوعا فى التجارب قل أن يوجد فى أى كتاب تاريخ عادى. يتضمن الكتاب شهادات للموسيقى النوبى حمزة الدين والباحثة عفاف لطفى السيد والشاعرة سلمة الخضراء الجايوسى كما يتضمن شهادات لأفراد لعبوا أدوارا أقل تميزا مثل على افتخارى الموظف بوزارة التعليم الإيرانية.

■

Christianity and Monasticism in the Fayoum Oasis
(المسيحية والرهبنة فى الفيوم)
Editor: Gawdat Gabra
American University Press,
2005, 322



فى كتاب المسيحية والرهبنة فى واحة الفيوم يدرس مجموعة من المختصين بالشئون القبطية من أنحاء العالم تاريخ الديانة المسيحية فى هذه الواحة بما فى ذلك بعض الكشوف الأثرية الحديثة التى قد تساعد على كشف تفاصيل أكثر عن هذا التاريخ.

■

«كيد مرتد»
المؤلفان: رفيف دروكر وعوفير شيلح
الناشر: كيتر، ٢٠٠٥، ٣٣٤ صفحة

בומרנג
רביב דרוקר עפר שלח
כתר
2005
334 עמודים



يكشف كتاب «كيد مرتد» لمؤلفيه الصحافيان رفيف دروكر وعوفير شيلح حجم التواطؤ الإسرائيلي على الرئيس الراحل ياسر عرفات، والمساعي الحثيثة للتخلص منه عنوة أو بـ «طرق إبداعية»، بعد فشل الاحتلال في قمع الانتفاضة رغم البطش والحصار. ويفضح الكتاب قيام إسرائيل بإهدار فرص التهدئة والسلام في السنوات الأربع الأخيرة خلال انتفاضة الأقصى. وأوضح الكتاب أن اسرائيل دأبت على «شيطنة» الرئيس عرفات من خلال التحريض على شخصه وتحميله كامل المسئولية عن سفك الدماء في المنطقة، بهدف التهرب من استحقاقات السلام مع الفلسطينيين، انسجاماً مع نظرية قيام الزعيم الفلسطيني بإشعال الانتفاضة والتحكم بها وغياب الشريك في الجانب الآخر.

وأضاف الكتاب، أن رئيس الوزراء الإسرائيلي أرئيل شارون، استغل التحريض على شخص الرئيس عرفات من أجل عدم مواجهة التحديات، كالمبادرة السعودية التي سوقت على أنها «غير ذات صلة لأن عرفات سيحبطها». ونوه المؤلفان، إلى أن انتهاج التحريض ضد الرئيس الراحل حركتها دوافع الحفاظ على الوحدة الداخلية في إسرائيل، مشيرين إلى أن شخصنة الصراع وتعليق كل «الشر» على شماعته أسهل بكثير من مواجهة إرادة شعب كامل. وأضاف المؤلفان أنه عندما بلغت معلومات قاطعة أن عرفات يعمل من أجل خفض مستوى ألسنة لهب الصراع كما حصل بعد عملية «نادي الدولفين» في يافا، في يونيو - حزيران ٢٠٠١ التي أعقبها وقف إطلاق نار فلسطيني سرعان ما قوبل بالإنكار والتحريض من قبل إسرائيل. وأشار الكتاب إلى الكاريكاتور الذي نشرته صحيفة «هآرتس» الإسرائيلية تعبيراً عن تحويل عرفات إلى المتهم الدائم في وعي الإسرائيليين، وتظهر فيها امرأة إلى جانب سيارتها التي تعطلت في الشارع وهي تقول لزوجها الغاضب: هيا نتهم عرفات.

وأضاف الكتاب، إنه ومع مرور الأيام بدا أن شارون ووزير دفاعه موفاز يستصعبان فرملة ذاتيهما، تمهيداً لإطلاق العنان لشهوتهما بإبعاد الرئيس عرفات، ما أدى إلى ازدياد الحملات العسكرية الموجهة ضده بشكل خاص مثل حملة «قريباً لديك» في مارس - آذار ٢٠٠٢ التي فرضت حصاراً على مقره. اقترح شارون اقتراحات للتخلص من الرئيس عرفات أو مضايقته منها، تثبيت محركات «مولدات»، تصدر ضجيجاً بجوار المقاطعة على مدار الساعة. وأضاف الكتاب «أطرافاً» دولية أوصلت رسالة خفية بعد تجدد العمليات ضد إسرائيل، رغم عملية «الجدار الواقي» عام ٢٠٠٢ أنها لن تعارض طرد الرئيس الفلسطيني. ولفت إلى أن شارون كان يشارك بنفسه في التخطيط لعمليات المس بعرفات والتضييق عليه سوية مع رجالات الجيش.

■

«أخت صغيرة»
المؤلف: رام اورن
الناشر: كيشت، ٢٠٠٥، ٣٥٢ صفحة

אחות קטנה
רם אורן
מוציא לאור קשת
2005
352



يسلط كتاب «أخت صغيرة»، للكاتب رام أورن الضوء على حياة المتدينين اليهود المتزمتين «الحريديم». ويقدم مؤلف الكتاب فكرته على شكل قصة لحياة إحدى الفتيات التي تعيش في مدينة «بني براك» الواقعة شمال شرق تل أبيب، وتعتبر معقل اليهود «الحريديم». الحياة في هذه المدينة تعيد للأذهان عيش اليهود في الجيتوهات في أوروبا في القرن التاسع عشر. حيث تخضع هذه المدينة «الجيتو» لسلطة الحاخامات والمرجعيات الدينية الذين حولوا المدينة إلى سجن كبير يعيش تحت وطأته عشرات الآلاف من اليهود المتدينين الذين يعيشون في حياة صعبة مقارنة مع مستوى الحياة في المدن اليهودية العلمانية نسبياً. يظهر من خلال هذا الكتاب الاختلاف في حياة اليهود الحريديم عن غيرهم من اليهود في الدولة العبرية. ويعرض الكتاب نماذج لحياة غير عادية، فهؤلاء لهم لباسهم الخاص وأكلهم الخاص، وهم لا يتنزهون بالشكل العادي. وينوه الكاتب إلى أنه حتى القضايا الشائكة التي تهم جميع بني البشر لا تعالج هناك بالشكل العادي. وبسبب اقتصار الأغلبية الساحقة من أبناء اليهود المتدينين على التعليم الديني في المدارس الدينية التابعة للأحزاب التي تمثل الحريديم، فأنهم يحتلون نهاية السلم الاجتماعي في الدولة العبرية حيث أن مدينة «بني براك» تعتبر أكثر المدن الإسرائيلية التي تعاني من الفقر، وكذلك الأمر مع الأحياء التي يعيش فيها الحريديم. يوضح الكتاب المعضلة التي يتعرض لها بعض اليهود الحريديم الذين يقررون الانفتاح على العالم من حولهم، حيث يشعرون بصعوبة الاندماج. وبسبب العيش في ظل هذه الظروف فأن هذه الفتاة التي كانت متفوقة في الدراسة تتحول حياتها إلى بؤس عندما تقرر الانتقال إلى خارج إطار الجيتو. ومن المعلوم أن القيادات الدينية والسياسية للحريديم في إسرائيل معنية ببقاء نسق حياة اليهود في مناطقهم على حالها، ليس فقط لأن هذا يتطابق مع المعتقدات التي تروج لها هذه القيادات وتلك المرجعيات، بل لأن ذلك يضمن لهذه المرجعيات نفوذها.

وهناك من يرى أن المرجعيات الدينية الحريدية الكبيرة في إسرائيل ظلت ترفض السماح بتجنيد الشبان الحريديم للخدمة في صفوف من الجيش خوفا عليهم من الانبهار بالحياة العلمانية وترك الدين في النهاية، كما حدث مع الكثيرين.

■

«الاستقلال والنكبة»
المؤلف يوآف غلبر
الناشر: دفير، ٢٠٠٥، ٦٥٦ صفحة

קוממיות ונכבה
יואב גלבר
דפיר
2005
656



يتناول كتاب «الاستقلال والنكبة» لمؤلفه يوآف غلبر أحداث حرب العام ١٩٤٨ وحلول النكبة على الشعب الفلسطيني بقيام العصابات الصهيونية بتشريد أبنائه وتهجيرهم وولادة قضية اللاجئين الفلسطينيين. ويعتبر المؤلف أن قضية اللاجئين تمثل لب الصراع الفلسطيني الإسرائيلي، وأنها العقبة الأساسية أمام أي إمكانية للتوصل لتسوية سياسية بين الفلسطينيين والإسرائيليين. وفي حال ظلت إسرائيل تتجاهل هذه القضية، فأنه لا مناص من بقاء جذوة الصراع مشتعلة. الكتاب مخصص بشكل أساسي للحديث عن مشكلة اللاجئين جذورها وتحولها من مسألة تهجير قسري إلى لجوء دائم يصعب رؤية لنهايته على الأقل في الظروف الحالية. يعتمد الكتاب على مجموعة من الوثائق الهامة التي تنشر لأول مرة، ويستند في سرده إلى مجموعة من المصادر الارشيفية المتنوعة عسكرية ومدنية، سواء كانت إسرائيلية وبريطانية إضافة إلى مصادر باللغة العربية. إلى جانب ما نشر في الصحف، فضلاً عما حفظ من تسجيلات للشبكة اللاسلكية وتقارير التنصت التي تزخر بها وتقارير العملاء وأشخاص تم التحقيق معهم في أروقة التحقيق لدى المخابرات. ويتطرق الكتاب إلى أدب الذاكرة العربي، الذي أضيف إليه في الآونة الأخيرة لتوثيق شفهي تم نشره على شبكة الإنترنت. يأتي إصدار كتاب «الاستقلال والنكبة»، في ظل دعوة العديد من المؤرخين الجدد إلى اعتبار «استقلال» إسرائيل هو نكبة للشعب الفلسطيني، وأنه بدون هذه النكبة لم يكن بالإمكان الحديث عن «استقلال» إسرائيل المزعوم.

■

«في زمن حقيقي انتفاضة الأقصى واليسار الإسرائيلي»
المحرر: أوفير عادي
الناشر: كيتر، ٢٠٠٥، ٣٢٠ صفحة

זמן אמת-אינתיפאדת אל-אקצה והשמאל
אופיר עדי
כתר
٢٠٠٥
320 עמודים

لماذا اندلعت انتفاضة الأقصى، ولماذا فوجئت إسرائيل مرة اخرى، وما الذي يحرك النضال الذي يشنه فلسطينيو ٤٨، وكيف تحول صحافيون إسرائيليون كبار إلى مجرد ناطقين باسم الحكومة، وأين اختفى اليسار الإسرائيلي؟. وهل إسرائيل حقاً شريك طبيعي لعملية سلام، وهل يترسخ نظام تفرقة عنصرية داخل الدولة العبرية. وهل المجتمع الإسرائيلي مستعد وقادر على تحمل تبعات التسوية مع الشعب الفلسطيني. كل هذه الأسئلة يجيب عليها ٢٩ أديباً وكاتباً وأكاديمياً وصحافياً إسرائيلياً في كتاب «في زمن حقيقي»، الذي حرره اوفير عادي. في هذا

الكتاب هناك محاولة لتفسير اندلاع انتفاضة الأقصى فى سياقاتها الواسعة، سياسياً وأيديولوجياً، وإبراز معالم الحرج الشديد الذى لحق باليسار الإسرائيلى الذى لعب دور «مقاول الأعمال القذرة»، سيما عندما انضم لحكومتى شارون الأولى والثانية، الأمر الذى أدى إلى انهيار كل ما تبقى له من مصداقية ومكان فى سوق الأفكار الإسرائيلى. الكتاب يوجه نقدا لاذعا لأداء الإعلام الإسرائيلى أثناء انتفاضة الأقصى، وتجنده لتبنى الرواية الرسمية الإسرائيلية دون الأخذ بالاعتبار الرواية الرسمية الفلسطينية، وتجاهل إدارات التحرير فى الصحف والصحافيين للحقائق التى يعرفونها لمجرد الاستنفار لصالح الدولة وروايتها. بالنسبة للذين شاركوا فى تأليف الكتاب لم يكن هنالك أى شعور بالمفاجأة لاندلاع انتفاضة الأقصى، ويقولون أن هذا كان متوقعاً لأن أحداً لا يمكنه الافتراض أن الشعب الفلسطينى يمكن أن يقبل أن يحيا فى واقع الذل والمهانة الذى يفرضه الاحتلال. وبالنسبة لهم فإنه سيكون من غير الطبيعى ألا تندلع الانتفاضة التى جاءت لتقضى على الأوهام الإسرائيلية بإمكانية تعايش الشعب الفلسطينى مع الاحتلال، والقبول بالدونية. وفى المقابل كان البطش والقمع الإسرائيلى متوقعاً، حيث كانت الدولة العبرية قد أعدت مخططات عسكرية جاهزة لاستخدامها وقت الحاجة ضد الشعب الفلسطينى فى حال ثار على الظلم الذى لحق به. وفى نفس الوقت فقد كان إعداد هذه المخططات يدلل على أن إسرائيل كانت تعى أن ما تقوم به يستوجب من الفلسطينيين شن الثورة وتفجير الانتفاضة.

■

« السور الحديدى »

المؤلف : افى شلايم

الناشر : حيمد ويديعوت احرونوت، ٢٠٠٥ ، ٦٣٠ صفحة

כיר הברזיל

אבי שלים

חמד + ידיעות אחרונות

2005-

630 עמודים



فى كتابه «السور الحديدى: إسرائيل والعالم العربى»، الذى يمتد على ٥٧٣ صفحة، ينسف البروفيسور افى شلايم، أحد أبرز المؤرخين الجدد فى الدولة العبرية الرواية الصهيونية التقليدية والتى تدعى أن إسرائيل كانت دائماً هى التى تبادر إلى مد يد السلام للعالم العربى، لكنها لم تجد دائماً شريكا فى الجانب العربى. شلايم الذى يعتمد على الحقائق يعتبر الرواية الإسرائيلية لا أساس لها من الصحة، وهو يقتفى الاتصالات الإسرائيلية العربية منذ العام ١٩٤٨ وحتى العام ٢٠٠٠ . ويصل شلايم إلى استنتاج مفاده أن العالم العربى هو الذى كان يمد يده للسلام مع إسرائيل، وكانت الدولة العبرية بالذات التى ترد العرب خائبين. وحسب شلايم لا يوجد دولة فى العالم مثل إسرائيل فيها هناك هوة شاسعة بين خطاب قيادتها السياسية وفعل هذه القيادة. ويضيف أن جميع قادة الدولة العبرية تحدثوا عن السلام، لكنها لم تكن أقوالاً صادقة. وحسب الوثائق الإسرائيلية وأرشيف الجيش الإسرائيلى هناك دلالة واضحة على أن الزعماء العرب كانوا هم تحديداً الذين أرادوا السلام. ومستنداً على الأرشيف يشير شلايم إلى أن الرئيس السورى حسنى الزعيم الذى حكم فى العام ١٩٤٩ لعدة أشهر كان طموحه الأكبر هو أن يكون الزعيم العربى الأول الذى يصنع السلام مع إسرائيل. وحسب شلايم فقد اقترح الزعيم تبادل السفراء ووافق على استيعاب ربع مليون لاجىء فلسطينى فى سوريا، مقابل أن تمر الحدود فى وسط بحيرة طبريا. لكن بن جوريون رد ببرود قائلاً أنه معنى أولاً أن يتم توقيع اتفاق وقف إطلاق النار مع سوريا. ويقول شلايم فى كتابه إن جهاز الموساد قام بتنفيذ عمليات تفجير داخل العراق ضد مصالح اليهود وكنسهم من أجل دفعهم للهجرة لإسرائيل. اسم الكتاب مستمد من المقالة الشهيرة التى نشرها زئيف جابوتنسكى فى عام ١٩٤٣ ، والتى قال فيها «لا يمكن أن نحلم باتفاق طوعى بيننا وبين عرب أرض إسرائيل، وعلى هذا يستطيع الاستيطان أن ينمو فى ظل القوة التى لا تتعلق بالسكان المحليين، من وراء سور حديدى لا يكون بإمكان السكان المحليين خرقه». ويوضح شلايم أن رئيس الوزراء الإسرائيلى الأول دفيد بن غوريون والحركة الصهيونية ودولة إسرائيل أخذت بنظرية «السور الحديدى» التى صاغها جابوتنسكى، أى أن صانعى القرار الصهيونى كانوا يعتقدون أن الشىء الوحيد المهم هو «إقرار حقائق ميدانية» ولهذا فلا داعى للتفاوض مع العرب. ويشير شلايم إلى أن السنوات العشر الأولى من عمر الدولة دلت بشكل لا يقبل التأويل أن الدولة الفتية لا تتعامل بشكل جدى مع العروض التى تقدمت بها الأنظمة الحاكمة فى العالم العربى آنذاك. وحسب ما يورد شلايم فقد أراد فاروق ملك مصر تسوية سياسية، لكن بن جوريون تجاهله، وأراد عبد الله ملك الأردن تسوية، وردته إسرائيل أيضا. ويكشف شلايم فى كتابه أن الرئيس جمال عبد الناصر أرسل مندوبين لإسرائيل، وحتى أرسل رسالة شخصية إلى رئيس الوزراء الأسبق موشيه شريت، بهدف تلمس طرق التسوية. ولم يلتفت إليه. يظهر من الكتاب إحساس واضح بدولة لا تعرف الشبع. فموشى ديان، الذى كان آنذاك رئيس هيئة الأركان، يضغط لمحاربة مصر لاحتلال قطاع غزة وشرم الشيخ، ويقدم «اقتراحا» لاحتلال الضفة. ويضغط يغئال ألون لإصلاح «بكائية الأجيال» التى تمت فى عام ١٩٤٨. وفى عام ١٩٥٦، قبل لحظة من عملية سيناء، يبسط بن جوريون حلمه الكبير أمام أصدقائه الجدد من فرنسا، حيث قال لممثلى الحكومة الفرنسية «ستحتل إسرائيل شبه جزيرة سيناء، وستحتل الضفة الغربية مع شق المملكة الأردنية وستصل إلى الليطانى مع إقامة دولة مارونية فى شمال لبنان. كل القادة الإسرائيليين (ما عدا موشيه شريت)، كما يقول شلايم، أخذت بفكرة «السور الحديدى». أما الجدل الوحيد فكان على مكان نصبه. يقول شلايم إنه بعد حرب العام ٦٧، اقترح الملك حسين سلاما تاما لقاء انسحاب من الضفة، لكن الوزراء الإسرائيليين ابتداء من جليلى وحتى ألون، مروراً بـ «سارقى الأراضى» ردوا العرض الأردنى. فى نظر شلايم، كان هذا الجواب السلبى استمرارا للسياسة التى تجرى منذ ١٩٤٨ أو حتى قبل ذلك. وعلى هذا المنوال تتوالى الشهادات التى يقدمها شلايم لتأكيد تشبث الدولة العبرية بالحرب مقابل أيادى العرب الممدودة للسلام. يعتبر شلايم فى الدولة العبرية «عدواً للدولة» بكل المقاييس، ويرى رئيس الوزراء الإسرائيلى أرئيل شارون أنه يتوجب عدم السماح بتدريس مؤلفاته فى المدارس، وقامت وزيرة التعليم فى حكومته ليمور ليفنات فعلاً بإلغاء تدريس مؤلفاته فى المناهج الدراسية.

■

« الهــدنة »

المؤلف ايال ايرليخ

الناشر: اريه نير، ٢٠٠٥ ، ٣٦٨ صفحة

הודנה

אייל ארליך

מוציא לאור אריה ניר

2005

368 עמודים



أرغمت انتفاضة الأقصى الإسرائيليين على جعل كلمة «الهدنة» العربية جزءاً لا يتجزأ من قاموس التداول اليومى بينهم. ويتناول «كتاب الهدنة» لمؤلفه الإعلامى الإسرائيلى المعرف ايال ايرليخ، أن ذلك يرجع لشعور المجتمع الإسرائيلى بالحاجة الملحة للتهدئة والهدوء والعيش بأمن وأمان.

ويؤكد المؤلف أن الغالبية العظمى من الإسرائيليين سئمت حياة العنف والقتل، وبدأت تبحث عن حياة تخلو من ذلك، وهو ما توفره الهدنة التى تمهد الطريق لتوصل الإسرائيليين والفلسطينيين إلى مصالحة سياسية تاريخية وسلام دائم فى المنطقة.

ويرى المؤلف أن على دوائر صنع القرار فى الدولة العبرية أن تكون مستعدة لدفع الثمن الذى يتطلبه التوصل لمثل هذه التسوية.

يقف الكاتب عند المخاوف التى تحاول المستويات السياسية والعسكرية فى الدولة العبرية ترويجها فى كل ما يتعلق بالهدنة. حيث يقول هؤلاء إن الفلسطينيين قد يتعاملون مع الهدنة كاستراحة مقاتل، واستغلالها من أجل مراكمة أسباب القوة استعداداً لاستئناف المقاومة من جديد.

لكن الفكرة الأساسية التى يحاول المؤلف التشديد عليها دائما هى أن الإسرائيليين سواء كانوا مدنيين أم عسكريين أم سياسيين قد سئموا العنف و الصراع فأصبحت عيونهم تتطلع نحو البحث عن مخرج يحفظ عليهم أمنهم وحياتهم وكرامتهم.

ويشير الكاتب إلى أن الرغبة فى الهدوء تجسدت فى انبعاث بعض التشكيلات الجماهيرية التى أثرت على دائرة صنع القرار الإسرائيلى ودفعتها نحو قرارات دراماتيكية. ويشير ايرليخ بشكل خاص إلى حركة «الأمهات الأربعة»، التى كان لها الدور الأبرز فى دفع حكومة ايهود براك إلى سحب قوات جيش الاحتلال من جنوب لبنان فى العام ٢٠٠٠ . وذلك بفضل ما قامت به من مظاهرات واعتصامات واحتجاجات متعددة أثرت على واقع المجتمع الإسرائيلى، بل أصبحت قوة ضاغطة على السياسيين، إضافة إلى نجاحها فى لعب دور سياسى ومؤثر على المرشحين السياسيين فى إسرائيل.

ويتناول الكتاب حركة «محسوم»، أى (حاجز) التى ركزت جهودها على فضح ممارسات جنود الاحتلال التعسفية ضد الفلسطينيين أثناء مرورهم بحواجز جيش الاحتلال. كما يرصد عمليات التنكيل السادية التى كانت تستهدف الشيوخ والنساء والأطفال وكل من يمر بهذه الحواجز.

■



قـــراءة صفحـــة ٤